الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كلية أصول الدين و الشريعة والحضارة الإسلامية.

قسم: العقيدة ومقارنة الأديان.

شعبة: العقيدة.

رقم الإيداع:........../........

الرقم التسلسلي:..............

منهج الرازي في الاستدلال بالآيات الكونية على عقيد ة البعث

من خلال تفسيره "مفاتيح الغيب"

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في العقيدة

إعداد الطالبة:

صونيا منصري

تحت إشراف الدكتور

صالح نعمان

لجنة المناقشة

الرئيس	د.أسعيد عليوان	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر
المقرر	د.صالح نعمان	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر
العضو	د.كمال جحيش	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر
العضو	د.صونيا وافق	أستاذة محاضرة	جامعة الأمير عبد القادر

السنة الجامعية: 2006-2007.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

[فصلت: 53]

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ. وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

[الذاريات: 20-21]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإهداء

إلى من تركت لي أغلى وصية وافتقدتها وأنا صبية: أمي

إلى من غرس في شغف طلب العلا بالعلم والأخلاق: أبي

إلى القمم الشامخة بقسم العقيدة ومقارنة الأديان: أساتذتي الأفاضل.

عرفانا بفضلهم ووفاء لغرسهم الطيب.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شكر وتقدير

عرفانا لما بذلوه لأجلي، وما ينتظروه مني، واعترافا بعجزي عن رد فضلهم عليّ ما حييت، أتوجه بأسمى عبارات الشكر والتقدير مع خالص الامتنان لكل من:

- الشمس التي لا يحرم من أشعتها أحد: أستاذي ومشرفي الدكتور صالح نعمان، جزاه الله كل خير على ما يبذله من جهد لتكوين طلبة العلم.
- القمر المبدد لظلمات الليالي الحالكة: أستاذي الدكتور مولود سعادة، سند كل باحث عن الحقيقة ومنارة الفكر الإسلامي.
- النجم الوحيد الساطع في وجودي: أخي الكريم حسين الطاهر.
- الشموع التي تحترق لأهتدي بها: أخواتي.
- القدوة بجبال الأوراس: بلقاسم بن أحمد براجل.

كما لا أنسى من جمعني بهم دروب الأخوة وتقاسموا معي نكهة طلب العلم: دنيا زاد سابغ، حياة ديلمي.

صونيا

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمـــــة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الحمد لله واهب الحياة وسالبها، الذي خلقنا من تراب وإليه يسيّرنا ، ومن التراب عندما يشاء يبعثنا، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء. وبعد :

التعريف بالموضوع :

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان ،وعلّمه البيان وكرّمه على كثير ممن خلق، إذ جعله خليفة في الأرض فحمل الأمانة التي عرضت على السموات والأرض فأبين أن يحملنها وأشفقن منها.

ومن نعم الله وتكريمه له أن ميزه وفضله على المخلوقات بالرفعة والاستعلاء ، مما أقتضى تسخير الكون له ماديا ومعرفيا وذلك بإعداده ليتقبل وجوده،ولحفظ حياته واستمرارها، مما يتيح له تأمل ظواهر هذا الوجود الكوني وإدراك حقائقه ، فكانت النتيجة صلاحية الكون لممارسة الخلافة من جهة والانطلاق نحو معرفة الحقيقة الإلهية وما يتبعها من حقائق الغيب من جهة أخرى .

الأمر الذي أكده التوجيه القرآني في دعوته إلى الإيمان بالغيب ، إذ كان الواقع الكوني منطلقه إلى جانب الأنفس: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ. وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[1]، لذلك جاء الخطاب الإلهي، الموجه للبشرية بكل مستوياتها ،في عرضه لحقائق الوجود موقظا للوعي الإنساني بأبعاده المختلفة مؤسسا بنيان الفكر الإنساني على الحقائق الكونية.

وجمع القرآن في دعوته للقراءة بين عالمي الغيب و الشهادة أعطى الإنسان الاطمئنان، وحمى عقله من الحيرة و الضلال في قضايا لا يقدر على الكشف عنها، والمعروفة بقضايا الغيب، الذي لا تستقيم حياة المرء إلا بالإيمان به، فكان من دلائله الآيات الكونية التي هي وحي مسطور كما هي حقائق مشهودة.

ومن ثمة يكون للمسلك الاستدلالي بالآيات الكونية أهمية كبيرة في إثبات الحقائق الإيمانية ، وكان على المسلم اليوم الاعتماد عليه في ظل ما حققه العلم من نتائج ،وذلك لبيان حقيقة أصول الدين ،والدفاع عنها باعتبار أن الحقائق الكونية هي المادة الصالحة لأن تتخذ كمقدمات استدلالية مقنعة، مصداقا لقوله تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[2].

---

[1] سورة الذاريات ، الآيتان : 20 - 21.

[2] سورة فصلت، الآية : 53.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وإيمـان المسـلم بتحقق الوعد الإلهي، واستنادا إلى حديث القرآن الكريم عن الكون، كان اهتمام العلماء المسلمين بهذه الآيات، واتخاذها دلائل إيمانية، امتثالا منهم لدعوته عز وجل إلى تدبر الحقائق الكونية ،وإدراك أبعادها ومقاصدها الحقيقية .

ومن ثمة لا غرابة أن نجد لهذه الدعوة صدى عند المفكرين المسلمين ،باعتبار أن الوحي الإلهي أهم مصادر الفكر الإسلامي،لذلك آثرنا الاستفادة من هذا التراث في تعاملنا مع هذه الآيات، فكان اختـيارنا لأحد المفكرين الذي كانت جوانبه العلمية متعددة، وهو فخر الدين الرازي ، إذ المطلع عـلى "تفسيره الكبير" يقف على اهتمامه، وعنايته الكبيرة بالآيات الكونية، وتوظيفها في الاستدلال على الحقائق الإيمانية وبيانه لكيفية التعامل معها، فكان أحد المتبحرين في هذا المجال ، لذلك عد من أهم الذين تناولوا هذه الآيات بمنهج متميز دراسة وتوظيفا.

هـذا وقد كانت عقيدة البعث النموذج المختار لبيان طرق الاستدلال بالآيات الكونية عند الرازي ، وهو ما يمثل الجانب التطبيقي لمنهجه ، وذلك لكون هذه العقيدة من صميم الغيبيات التي لا يمكن للإنسان أن يلمسها باليقين بمنأى عن الوحي ، الذي تعد الآيات الكونية معلم هداية لحقائقه، ولمـا كانت القضية المحورية في مفاتيح الغيب هي طلب اليقين ، وكانت تلك الآيات عند الرازي أبلغ من سواها كدلائل إيمانية ،كان موضوع دراستنا : منهج الرازي في الاستدلال بالآيات الكونية على عقيدة البعث من خلال تفسيره .

الإشكالية:

إن ممـا هـو مؤكـد أن عقيدة البعث من القضايا التي كانت ولا تزال مثار إشكال لدى الإنســان، دليله رغم أننا في زمن يدّعى أنه عصر الإنسان، لكن واقعه لا يعكس ذلك ، إذ اختفاء فكرة اليوم الآخر من الضمير البشري أدى إلى إهدار كرامته ، في حين لو كانت حاضرة لكان سيد المخلوقات كما أراد له تبارك وتعالى ، وكما تقتضي مكانته في الوجود .

ورغـم مـا حققه التطور العلمي في هذا العصر من مكاسب مادية لم يسبق لها مثيلا، لكن الإنسان بقي عاجزا عن توفير الطمأنينة والاستقرار لنفسه ، نتيجة لفقدانه الصلة بعقيدة الآخرة، إما إنكـارا أو غفلـة منه. في حين نجد أن الإيمان هو جوهر الحياة الآمنة لقوله تعالى: ﴿...فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى. وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[1]. ومن ثمة كان التصديق بالبعث شطر الإيمان الذي يقوم عليه منهج الحياة في الإسلام، نتيجة الوثوق في الوعد الإلهي والاطمئنان إليه، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[2].

وإذا وقفنا على حال المسلم اليوم نجده يعيش معاناة، سببها ابتعاده عن دينه وعدم تمثله لعقيدته في سلوكه، فصلته بدينه يشوبها نوع من الضعف بفعل عوامل متعددة. مما جعله يفقد ثقته بنفسه ، ويبعد عن دينه ، كانت نتيجته تيهاعقدياً وتخلفا حضاريا . هذا بالنسبة للمسلم ناهيك عن غيره، لذلك لئن كانت الأمة في حاجة إلى التنمية الاجتماعية أو الاقتصادية أو غيرها، فهي في أشد الحاجة إلى تفعيل العقيدة في النفوس، وإعادة ربطها بأصول دينها ، حتى تكون كما أريد لها، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[3]، في ظل التحديات المعاصرة، أين كان التخلف سببا في الشرك، وكان تسلح أعداء الإسلام بالعلم.

ومن ثمة يمكن التأكيد على أن البشرية تعيش في أزمة نتيجة ابتعادها عن الدين الصحيح، فواقعها ينبئ على أنها أزمة عقيدة ناتجة عن تصور خاطئ للحقائق الإيمانية أو الغفلة عنها ، وفي مقدمتها حقيقة البعث، لذلك فإن بيان حقيقتها، وتفعيل الإيمان بها بطرق تستوعبها العقلية المعاصرة أصبح ضرورة ملحة؛ لما له من أثر في تمكين الإنسان من أداء رسالته الوجودية، التي يعد تحقيقها من ضروريات الإيمان باليوم الآخر، فإلى أي مدى يمكن الاعتماد على الآيات الكونية لتحقيق ذلك؟

بناء على هذه المعطيات يمكن طرح مجموعة من الأسئلة حول الإشكال الذي يمثل محور موضوع الدراسة، منها:

كيف يمكن توظيف الآيات الكونية لبيان حقيقة عقيدة البعث، التي هي من صميم الغيبيات؟

وانطلاقا من حديث القرآن الكريم عن الكون، ما هي الأبعاد الوظيفية للآيات الكونية؟ وأين

---

(1)—سورة طه، الآيتان: 123-124.

(2)—سورة النور، الآية : 55.

(3)—سورة آل عمران، الآية: 110.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تكمن أهميتها؟

هل كان لاهتمام الرازي بهذه الآيات دوافع وأسس بنى عليها منهجه في الاستدلال بها؟ وفيما تتمثل؟

ما هي الطرق التي اعتمدها في الاستدلال على عقيدة البعث انطلاقا من توظيفه للآيات الكونية؟ وأين تتجلى أهمية هذه الآيات ومكانتها عند الرازي؟

هل يمكن الاستفادة من منهجه في الاستدلال بالآيات الكونية من خلال ما تناوله في "تفسيره الكبير"، في وقتنا الحاضر؟

أهمية الموضوع :

يرجع تناول موضوع منهج الرازي في الاستدلال بالآيات الكونية في تفسيره إلى تلك الأهمية التي يستمدها من مجال الدراسة وهو الفكر العقدي، إذ الموضوع يقدم أدلة على أصل من أهم أصول الدين، وذلك نظرا لارتباط رسالة الإنسان في الوجود بإيمانه باليوم الآخر، فحتى الإيمان بوحدانية الله تبارك وتعالى لا تستقيم إلا إذا كان الإيمان بالبعث متمكنا في النفوس .

لذلك فبناء هذا الركن ذو أهمية كبيرة نظرا لما يترتب عنه من مقاصد وأهداف غائية،وما عليه هذا الموضوع من تعقيد كونه من متعلقات الغيب، مما يجعل الكثير من الناس يعتريهم الشك في حقيقته، فلا يصدقون أنهم سيبعثون بعد الموت للحساب.

ومما لا شك فيه أن واقع الإنسان هو الدافع إلى معالجة أي قضية ، فالمتأمل في الواقع العقدي الراهن للبشرية عامة وللمسلم خاصة ، يجد أن ما يعاني منه يرجع إلى الابتعاد عن دين الله ، مما أدى إلى تراخي صلة العقيدة بمختلف مناشط الحياة ، فكان ذلك الانفصال بين الاعتقاد والسلوك لدى المسلم، وما زاد هذا الوضع استفحالا هو تفاقم الغرور العلمي، مما جعل الإنسان يعاني من الانبهار بنتائج العلم من جهة، وتوظيف أتباع الأديان الباطلة حقائقه لصالحهم من جهة أخرى.

كما يستمد البحث أهميته من الآيات الكونية على مستوى الواقع ، لكونها تقدم أدلة مقنعة لعقلية العصر، التي لا تقتنع إلا بالاستدلالات العلمية والعملية المبنية على معطيات العلم الكوني والإنساني ، لذلك تكون آيات الآفاق المدخل الحقيقي للإيمان وترسيخه.

ولما كان الاستدلال بالآيات الكونية ليس بدعا في الفكر الإسلامي ، إذ إن مصدره انطلق

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ـــنها في دعوته ، وهذا ما نجده عند النموذج المختار الذي يزيد الدراسة أهمية ، نظرا لمنهجه المتميز في دراسة الآيات الكونية ، من خلال "مفاتيح الغيب " الذي يعد المجال الذي اهتم فيه بالموضوع ، مما أعطى تفسيره مكانة خاصة، سواء في غايته أم بالنسبة لطريقته في تناول القضايا ، وهذا ما يجعل الاستفادة منه في إثبات حقيقة البعث ذا أهمية كبيرة.

لذلك لا بد من الرجوع إلى القرآن الكريم، لأنه مصدر العقيدة ، والاهتمام بتوجيه الدراسات نحـــوه واعتماده أساسا لعلومنا وبحوثنا ، والاستفادة من كتب التفسير يعد ضربا من ذلك ، فهي قد اشتملت على علوم القرآن وأصول العقيدة، وثرية بمادة علمية، وبمناهج للبحث لا ينبغي إهمالها، بل تستحق العناية والاهتمام .

أسباب اختيار الموضوع :

إن دواعي اختيار البحث في هذا الموضوع ترجع إلى أمور عديدة يمكن حصرها في :

– الرغبة الملحة في البحث في مجال المنهجية الاستدلالية في الفكر العقدي ، ودلالة الآيات الكونية أفضـــل مـــا يلبي هذه الرغبة، خاصة وأنها تجمع بين قراءة الآيات الكونية المكتوبة والمشهودة ، وتجمع بين مصدر الفكر الإسلامي –القرآن الكريم– وموروثنا الفكري–الرازي–والعلوم المعاصرة.

– حاجتنا كمتخصصين في العقيدة إلى مزيد من التعمق في مبحث الاستدلال وفق متطلبات العصر.

– كثرة الاستشهاد بأقوال فخر الدين الرازي من طرف المتخصصين في الفكر العقدي ، والتي يبدو فيها عمق وأصالة ،خاصة في مجال الاستدلال على مباحث العقيدة ، مما يدل على أن الرجل من أعلام الفكر الإسلامي، الذين تشكل أعمالهم مرجعا لأهل العلم ، وهذا ما جعلني استعين به في دراسة الموضوع .

–حاجـــة المسلم إلى مناهج للاستدلال على حقائق الإيمان ملائمة لعصر تسلح الإلحاد وأصحاب الأديان الباطلة فيه بالعلم.

–حاجـــة الإنســـان إلى بناء عقيدة البعث التي هي من أهم مقاصد القرآن الكريم، وذلك نظرا لما يتوقف عليها من أهداف غائية.

–فقـــدان كثير من المسلمين وغيرهم ذلك اليقين الذي يعيد إليهم أمنهم في ظل التحديات الفكرية المعاصرة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-قلة الدراسات المهتمة بأبعاد الآيات القرآنية الكونية، ومقاصدها رغم اتصالها كموضوع بصميم العقيدة الإسلامية.

-قراءة آيات الآفاق ذلك البعد الغائب في حياة المسلم، رغم أهميتها في ترسيخ الإيمان.

-عدم جدوى بعض مناهج علم الكلام القديمة في إقناع العقلية العلمية العملية في عصرنا الحالي.

-جهل الكثير اهتمام الرازي بالآيات الكونية ، واعتماده عليها في الاستدلال على حقائق الإيمان ، رغم ما كتب عن فكره .

-الطابع المميز الذي يتسم به كتاب "مفاتيح الغيب" واختلاف العلماء حول قيمته العلمية.

-عـــدم وجـــود دراسة تناولت طرق الاستدلال بالآيات الكونية عند الرازي المتعلقة بالبعث، ولا منهجه في ذلك.

أهداف البحث:

وقد أملت من اختيار هذا الموضوع للدراسة ما يلي :

- ترقية الإيمان لدى المسلم وترسيخه بالرجوع إلى القرآن والتأمل في آيات الآفاق .
- لفت انتباه المسلم إلى الآيات الكونية ، وأهميتها في خدمة الإسلام في هذا العصر .
- الاستفادة من المنهجية الاستدلالية القرآنية للرد على خصوم الإيمان .
- ترسيخ الإيمان بالبعث في نفوس المتشككين ، وإجلاء الشبه من نفوس المنكرين .
- توضيح المنهج السليم في الانتفاع بحقائق العلم لإثبات مباحث العقيدة الإسلامية وعرضها .
- الجمع بين قراءة الآيات الكونية المشهودة والمقروءة ودلالتها على البعث في دراسة عقدية مستقلة.
- الاستفادة من التراث الفكري للمسلمين لخدمة مناهج البحث في الفكر العقدي في ضوء التطور العلمي المعاصر .
- الكشف عن زاوية جديدة في المنظومة الفكرية للرازي .
- بيان ما أضافه الرازي للفكر الإسلامي من تأصيل مبني على أسس دعا إليها القرآن الكريم.
- وضع تفسير الرازي في إطاره التاريخي البيئي، لإدراك الأسباب التي جعلته يتسم بطابعه المميز .
- إدراك القيمة العلمية والمعرفية لـــ"مفاتيح الغيب".

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الدراسات السابقة

فيما يتعلق بالدراسات التي تناولت هذا الموضوع ، لا يمكنني الجزم بعدم وجودها ، ولكن حسب اطلاعي لم توجد بهذا المضمون ولا حتى في مقال، أما ما وجد فيتمثل في الدراسات التي تناولت جزئيات من الموضوع كدراسة الآيات الكونية في القرآن الكريم في ضوء العلم أو تلك المتعلقة بعقيدة البعث، إضافة إلى التي تناولت الرازي كمفسر أو كمتكلم .

وما سأذكره فيما يأتي من الدراسات فهي الأكاديمية منها فقط ، تلك التي قدمت كأطروحات علمية، وتتمثل في:

-"مناهج المفسرين في بيان آيات الكون من خلال السور المكية" لعبد الواحد بن بكر بن إبراهيم آل عابد. ماجستير بالمعهد الأعلى لأصول الدين بتونس.

-"الإعجاز البياني للآيات الكونية في القرآن الكريم" لخالد عميور. ماجستير في اللغة العربية والدراسات القرآنية بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة.

-"الآيات الكونية في القرآن الكريم وبعدها الإيماني" لمحمد قاسم حسون. ماجستير في الفلسفة بمعهد أصول الدين بالجزائر.

-"عالم الغيب والشهادة عند فخر الدين الرازي" ليوسف تيتواح. ماجستير في الفلسفة بالجامعة الأردنية.

وهي دراسات تناولت الآيات الكونية لكن دون ربطها بموضوع عقدي، وبعيدا عن توضيح كيفية توظيفها في الاستدلال بها استنادا إلى ما قدمه أعلام الفكر الإسلامي والرازي تحديدا، لكن مع ذلك فقد استفدنا منها بدرجات متفاوتة .

مراحل البحث:

ولتحقيق الأهداف الموجوة من هذه الدراسة و إجابة عن الإشكالية المطروحة فيها ، تضمن البحث إلى جانب المقدمة أربعة فصول وخاتمة ،فكان مضمونها بعد المقدمة التي هي مجال للتعريف بالموضوع وطرح الإشكالية وما إلى ذلك من مختلف عناصرها ، كان الفصل الأول متضمنا للآيات الكونية في القرآن الكريم ، وذلك كدراسة تمهيدية أو مدخل للموضوع المدروس : تناول المبحث الأول منه مفهوم الآيات الكونية وأبعادها الوظيفية المتعددة، أما المبحث الثاني منه تضمنت

فيه إلى بيان خصائص القرآن الكريم في عرض الآيات الكونية، انطلاقا من تتبعها في الذكر الحكيم ، وخصصت المبحث الثالث للآيات الكونية وأساليب إثبات الحقائق الإيمانية .

في حين كان الفصل الثاني عبارة عن دراسة حول الرازي وتفسيره، المبحث الأول منه تناول الظـروف التي عاش فيها الرازي ومميزات عصره إضافة إلى حياته ،والمبحث الثاني خاص بالتعريف بتفسير الرازي وقيمته المتجلية في الغاية من تأليفه وآراء العلماء فيه،والفصل الثالث تضمن المقدمات المنهجـية للاستدلال بالآيات الكونية عند الرازي، المبحث الأول منه تم ضبط فيه مصطلحي المنهج والاسـتدلال، والمبحث الثاني خصص لبيان منطلقات الاستدلال بالآيات الكونية عند الرازي، إلى جانب قواعد منهجه في ذلك، التي تضمنها المبحث الرابع.

أمـا الفصـل الرابع فهو عبارة عن الجانب التطبيقي للمنهج، وذلك من خلال عرض طرق الاسـتدلال بتلك الآيات، وكان النموذج المختار عقيدة البعث؛ لذلك تضمن المبحث الأول منه حقـيقة البعث مفهوما وتصورا في القرآن الكريم، والمبحث الثاني منه تضمن طريق الخلق من خلال دلالة كل من خلق السماوات والأرض وخلق النبات على البعث، في حين تضمن المبحث الثاني طريق الإحكام والإتقان انطلاقا من دلالة كل من حفظ السماوات وحركة الكواكب على عقيدة البعث، وكـان المبحث الرابع خاصا بطريق الهداية، الذي شمل دلالة تسخير ما في الأرض وما في السماوات على حقيقة البعث.

لنختـم الدارسـة بخاتمة تضمنت أهم النتائج المتوصل إليها، والاقتراحات المستفادة من إنجاز البحث كآفاق له.

منهج الدراسة :

إن كـون طبـيعة الموضـوع هي المحددة لنوع المنهج ، فإن استيفاء الدراسة حقها استدعى الجمع بين عدة مناهج .

فكان المنهج الاستقرائي الذي استفدت منه في تجميع الآيات الكونية بتتبعها في القرآن الكريم، مـع اسـتقراء ما ورد حولها في تفسير الرازي و استخراج مادتها العلمية، إلى جانب الاعتماد على المـنهج التحليلي في تناول مختلف جوانب الموضوع، أما استنتاج خصائص القرآن الكريم في تناول الآيات الكونية وكل من منطلقات و قواعد وطرق الاستدلال بها عند الرازي فكان بتوظيف المنهج

الاستنباطي.

كما كان للمنهج المقارن حضور في تناول آراء العلماء في " التفسير الكبير " و في بيان مدى أصالة منهج الرازي في تعامله مع الآيات الكونية ، مع مقارنة ما أورده من حقائق كونية بما توصل إليه العلم اليوم إلى جانب الاعتماد على النقد كلما دعت الضرورة؛ هذا، وقد كان للوصف حظه في إنجاز هذا البحث، والذي استفدت منه في دراسة حياة الرازي ومميزات عصره بجوانبه المختلفة.

المصادر والمراجع

لقـــد حاولت قدر المستطاع أن تكون قائمة الكتب المعتمدة متنوعة، وكون الدراسة متعلقة بمنهج الـــرازي، فـــإن المصادر تمثلت في مؤلفاته، التي لا أزعم أنني اعتمدها بكاملها، إنما حاولت الـــرجوع إلى ما له صلة بالبحث، فاستفدت من بعضها، فيما ركزت على "تفسيره الكبير" باعتباره محور الدراسة.

أمـــا عن المراجع، فهي متعددة، إذ ما وظفت منها كان كل حسب الحاجة إليه، منها ما هو حـــول فكر الرازي، والملاحظ أنها في مجملها تناولته كمفسر أو كمتكلم وفيلسوف، كالدراسة التي قـــام بها الزركان في رسالته "الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية"، و "نظرية المعرفة عند الرازي من خـــلال تفســـره" لمحمد العربي بوعزيز، ودراسة عبد العزيز مجذوب الموسومة بـــ"الرازي من خلال تفسيره"، وغيرها.

ومـــن المراجع المعتمدة في هذه الدراسة ما كان حول الآيات الكونية في مجال التفسير أو في مجال الإعجاز العلمي، منها: "موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة-آيات الله في الأفاق" لمحمد راتـــب النابلسي، "السماء في القرآن الكريم" لزغلول النجار، "التفسير العلمي بين النظرية والتطبيق" لهـــند شلبي، "التفسير العلمي في الميزان" لأحمد عمر أبو حجر، إضافة إلى ما يتعلق بالحقائق الكونية من الناحية العلمية.

والملاحـــظ أن هذه المراجع لم تركز على موضوع الاستدلال بالآيات الكونية على الحقائق الإيمانـــية، كما أنها لم تبرز إسهامات مفكرنا في البناء العلمي للاعتقاد، في دراسة مستقلة، وإنما كان أغلبها في التفسير والإعجاز العلمي.

وقد حاولت الاستفادة من كل ما له علاقة بالموضوع من قريب أو من بعيد لتطعيم الدراسة

قدر الإمكان.

الصعوبات

ككـــل بحـــث فإن إنجاز هذه الدراسة لم يكن خال من صعوبات عديدة، في مقدمتها تعدد مشـــارب البحث، فهو من ناحية بحث في التفسير وقبل ذلك هو في آي الذكر الحكيم، ومن جهة أخرى فهو بحث في الكون بعناصره المختلفة، وفي المحصلة هو دراسة في منهجية الاستدلال بالحقائق الكونية على أصل من أهم أصول العقيدة الإسلامية، وهو البعث، وكان من الصعب الجمع بين هذه المباحث المتشعبة في موضوع واحد، فكنت أحيانا أغوص في التفسير، وأخرى أجد نفسي أجول في عالم السموات والأرض لشدة ما تستهويني حقائقه، وفي كل ذلك مضطرة إلى ربط الموضوع بعقيدة البعث وكيفية توظيف الرازي للآيات الكونية لإثباتها.

ولكن حسبي أني بذلت ما في وسعي من جهد لإنجاز هذا البحث، وأرجو أن أكون قد وفقت فيه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول :

الآيات الكونية في القرآن الكريم

المبحث الأول: الآيات الكونية وأبعادها الوظيفية

المبحث الثاني : خصائص القرآن الكريم في عرض الآيات الكونية

المبحث الثالث : الآيات الكونية وأساليب إثبات الحقائق الإيمانية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمهيـــد:

يقدم لنا الإسلام نظرة عن الكون، ومكانة الكائنات فيه، إذ عليها يرتكز تحديد العلاقات التي تحكـــم عناصر هذا الوجود؛ لذلك جاء الوحي الإلهي محددا لعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وعلاقته بغـــيره من الموجودات، والأهم أنها رسمت له معالم علاقته بخالق هذا الوجود لكي تنتظم وظيفته في الأرض تحقـــيقا لرســـالته الإستخلافية،ومن ثمة يكون الخطاب القرآني قد زوّد الإنسان بخطوط تلك الـــنظرة، فدعاه إلى التفكر والتدبر في أسرار هذا الوجود، إذ الحقيقة التي لا مراء فيها هي ثراء القرآن الكـــريم بالآيـــات التي تناولت حقائق عالم الشهادة، مع تنوع المواضيع التي عالجتها، مما يشدّ انتباه الـــنفوس ويبهر العقول أليس ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[1].

الأمـــر الذي جعل أول ما يثير الدهشة في روح من يتوخاه مثل هذا النص القرآني لأول مرة، هـــو ثـــراء الموضوعات المعالجة[2]، والتي كانت موجهة إلى تحقيق ما جاء الوحي الإلهي بتبليغه، وفي مقدمتها الحقائق الإيمانية، حيث مثلت أغلب مقاصد السور مقارنة بآيات الأحكام التشريعية التي لا تتجاوز ستمائة آية[3].

ومـــن ثمـــة كان منهج القرآن الكريم غنيا في مضمونه، فريدا في نسجه، إذ من طبيعته عرض الحقائق وإثباتها بالتدليل العقلي والتنبيه الوجداني، والآيات الكونية جزء من هذا، لذلك فالتطرق إلى ورودهـــا فـــيه كمدخر قرآني للدراسة، هو من باب التأصيل للموضوع، إذ يعد الوحي الإلهي أهم مصادر الفكر الإسلامي، وحديثه عن الكون يشكل منطلق اهتمام المسلمين بتلك الآيات، فماذا عن عرضه لها، والذي من خلاله تتجلى أهميتها؟ هذا ما سنعرفه في هذا الفصل.

---

(1) ـسورة الزمر، الآية: 23.

(2) ـموريـــس بوكـــاي: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ترجمة: الشيخ حسن خالد، المكتب الإسلامي، بيروت، ط3، 1411هـــ-1990م، ص149.

(3) ـفخر الدين الرازي: التفسير الكبير، دار التراث العربي، (د.م)، (د.ط)، (د.ت)، ج2، ص96.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول: الآيات الكونية وأبعادها الوظيفية

المطلب الأول: مفهوم الآيات الكونية:

لمعـــرفة المقصود بالآيات الكونية، لابد من ضبط الألفاظ المتكوّن منها هذا المصطلح؛ لذلك سنتطرق لمفهوم كل من "الآية" و"الكون".

أولا: تعريف الآية

-لغـــــة: الآية هي العلامة، على وزن "فَعَلَة"؛ لأن أصلها "أوية"، وموضع العين فيها واو. وقيل أصلها "فَاعِلة"، فذهبت منها اللام أو العين تخفيفا، ولو جاءت تامة لكانت "آيية".

وتُجمع "الآية" على: آيات، آي، آياي، وآياء جمع الجمع نادر، نحو قول أبي زيد[1]:

لم يبق الدهر من آيائه   غير أثافيه وأرمدائه

فقولنا: أيَّا الرجل آية، أي وضع علامة.

هـــذا المعـــنى الذي أوردته المعاجم اللغوية والقواميس [2] واتفقت عليه، لكن جاء فيها كذلك

---

(1) -هو سعيد بن أوس بن ثابت أبي زيد الأنصاري، عاش ما بين 119هـــ-210هـــ.

-خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط7، 1986م، ج03، ص92.

(2) -انظـــر كـــل مـــن: -ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، (د.م)، (د.ط)، (د.ت)، ج1، ص185.

-الفيروز آبادي: قاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995م، ج4، ص322.

-مجمع اللغة العربية: معجم ألفاظ القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ط2، 1390هـــ-1970م ،مج1، ص73-75.

-إسماعيل بن حماد الجوهري: تاج اللغة وصحاح العربية، دار الفكر، بيروت، ط1، 1995م، ج2، ص1658.

-محمـــد عـــلي الـــتهانوي: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق: علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1996م، ج1، ص75.

-أيـــوب بن موسى الحسيني: الكليات، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1413 هـــ-1993م ، ص219-220.

ذكر لمعان عديدة للفظ "الآية" منها: -آية الرجل: شخصه، يقال تأييته إذا تعمّدت آيته، أي قصدت شخصه.

-وآية القوم: جماعتهم، يقال: خرج القوم بآيتهم، أي بجماعتهم، فلم يدّعوا شيئا وراءهم.

-كما تأتي الآية بمعنى العبرة، لأنها علامة على معاني العظة والاعتبار، منها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ [1]، أي أمور وعبر مختلفة.

كذلك سميت معجزات الأنبياء آية لأنها علامة صدقهم وسميّ خلق الكون آية لأنه دليل القدرة الإلهية.

وترد أيضا بمعنى الأمر العجب كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [2]، فآيات الله عجائبه ومعجزاته، كما يقال فلان آية في الجمال وفي العلم، أي ليس له نظير.

والآية من القرآن الكريم، كلام منفصل بفاصل لفظي، علامة على ما تضمنته من أحكام وآداب ونحوها.

فالملاحظ أن هذه المعاني كل منها له صلة بالمعنى الأصلي للفظ "آية"، إذ هو متحقق في كل ما تُطلق عليه؛ لذلك فمعانيها عديدة لكنها «كلها إطلاقات لغوية وقد يستلزم بعضها بعضا»[3].

أما عن ورود مصطلح "آية" في القرآن الكريم، نجده بعد استقراء ذلك قد ورد اثنين وثمانين وثلاثمائة مرة، بصيغ متعددة، مع اختلاف معانيها، وهو ما يبينه الجدول الآتي:

---

(1) -سورة يوسف، الآية:07.

(2) -سورة المؤمنون، الآية: 50.

(3) -عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الفكر، بيروت، ط1، 1997م، ج1، ص339.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الصيغة	عدد ورودها في القرآن	الشاهد	موضعه	الدلالة
الآية	01	﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾	النازعات: 20	المعجزة
آية	83	﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.	الذاريات: 37	العظة والاعتبار
آيتك	02	﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ﴾	آل عمران: 41	العلامة الواضحة
آيتين	01	﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾.	الإسراء: 12	آيات الكون ومنافعها
آيات	115	﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾	البقرة: 252	آيات القرآن
الآيات	33	﴿ ...كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.	البقرة: 219	بيان الأمور وما يترتب عنها
آياتك	03	﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾.	البقرة: 129	تلاوة الآيات المنزلة
آياتنا	92	﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾.	الحج: 72	الدلائل العقلية والأحكام
آياته	37	﴿ ...كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.	المائدة: 89	الأحكام
آياتها	01	﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾.	الأنبياء: 32	آيات الآفاق
آياتي	14	﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾.	الأنبياء: 37	دلائل القدرة الإلهية

هذا وبعد تتبع ورود لفظ "آية" في القرآن الكريم نجد أنه بجميع صيغه قد ورد في صورة الإسم فقط، فلم يُصرّف منه الفعل، لكن أتى في بعض المواضع مقترنا بالفعل، هذا الأخير الذي يبين علاقة الإنسان بالآية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كمـــا أن لفظ "آية" وما يحمله من إضافة من حيث نسبته، يؤكد أنّ الآيات لا تكون إلا من عنده تعالى، أي أن أصل "الآية" ومصدرها إلهي.

وبـــناء على ذلك يمكن تحديد مفهوم هذا المصطلح وفق التصور القرآني، الذي حوت ألفاظه غـــزارة متجددة في المعاني، وهو وجه من وجوه إعجازه، إضافة إلى ما أورده العلماء حول اللفظ في تعريفه الاصطلاحي.

-تعريف "الآية" اصطلاحا: تناول المشتغلون في علوم القرآن "الآية" بالتعريف، وما يتعلق بها ضـــمن مباحثهم، فاعتبروها **طائفة من القرآن الكريم، منقطعة عما قبلها وما بعدها، ليس بينها شبه عما سواها**[1].

أمـــا عـــن حدّ الآية فقيل أنها قرآن مركب من جمل ولو تقديرا، ذو مبدأ ومقطع، مندرج في ســـورة [2]، وهذه الأخيرة التي تتكون من مجموعة آيات، **كل آية جزء من القرآن، تبين أوله وآخره توقيفا**[3].

فالمقصـــود بالآية عند هؤلاء، هي جزء من الكلام الإلهي المنزل عن النبيﷺ، وهو كلام متلو مقروء. ومن ثمة فالآيات هي أجزاء الوحي الإلهي، حيث تتعين في الجملة من جهة المقاطع التي تفصل الآيات بعضها عن بعض، مع إعانة ما من ذوق التفاهم، لذلك ربما وقع الخلاف في عدد آيات بعض السور بين العلماء [4].

وقال حمزة[5]: «أنّ الآية من القرآن كأنها العلامة التي يُفضى منها إلى غيرها، كأعلام الطريق

(1) -بدر الدين محمد الزركشي: البرهان في علوم القرآن، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ج1، ص 266.

(2) -جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ج1، ص88.

(3) -وزارة الأوقـــاف الكويتـــية، الموســـوعة الفقهية، طبعة وزارة الأوقاف الكويتية، ضمن القرص المدمج: جامع الفقه الإسلامي، شركة حرف لتقنية المعلومات، الإصدار الأول، ج1.

(4) -محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط1، 1991م، ج10، ص07.

(5) -هو حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل: عاش ما بين سنتي 80هـــ-156هـــ، عالم بالقراءات، قال عنه الثوري: «ما قرأ حمزة حرفا من كتاب الله إلا بأثر، لذلك انعقد إجماع على تلقي قراءته بالقبول».

-خير الدين الزركلي: الأعلام، مج2، ص277.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المنصوبة للهداية، إذا مضى علم بدأ علم»[1]، وإلى المعنى نفسه يشير الراغب الأصفهاني بقوله: «الآية العلامة الظاهرة، وحقيقته لكل شيء ظاهر هو ملازم لشيء لا يظهر ظهوره، فمتى أدرك مُدرك الظاهر منها، علم أنه أدرك الآخر الذي لم يُدرَك بذاته، إذ حكمها سواء، وذلك ظاهر في المحسوسات والمعقولات»[2].

فما يمكن التأكيد عليه أنّ مصطلح "الآية" له معان ظاهرة وأخرى باطنة، هذه الأخيرة التي لا يتم إدراكها بذاتها، وإنما تُدرك عن طريق المعاني الظاهرة منها، ويتجلى ذلك في المعقولات التي أحيانا لا يتم إدراكها إلا عن طريق المحسوسات، ذلك أن المعاني الباطنة دقيقة لا تُعرف إلا بالبحث، حيث يشترك جميع الناس في معرفة المعاني الظاهرة، لكنهم يتفاوتون في فهم المعاني الدقيقة غير الظاهرة، وذلك على حسب غزارة علمهم وصفاء قلوبهم[3].

ومن هذه التعريفات نجد أن مصطلح "الآيات" يراد به آيات القرآن الكريم، كما قد يُراد به أصناف مخلوقاته،أي آيات الكتاب العزيز المتلوة، وآياته تعالى المجلوة في الآفاق والأنفس، وبذلك يدخل في تحديد مفهوم "الآية" كل ما سماه الله تعالى كذلك، إذ «أنّ آيات الله عقلية وشرعية، فالعقلية أدلة مخلوقاته وعجائبه ومصنوعاته، والشرعية آيات كتابية وأدلة خطابية، وجملة معانيه وأسراره، وبهما تستفاد الأحكام الشرعية أصلا أو قياسا، وبهما يتذكر ويتّعظ الإنسان»[4].

فالآيات الشرعية هي آيات القرآن الكريم المتلوة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [5]، وما تعلق بها من ناحية النزول والإحكام والتلاوة –التي تضمنتها مباحث علوم القرآن–، إضافة إلى نظمها وما أودعت من أسرار، إذ هي محتوى﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا

---

[1] –ابن منظور: لسان العرب، ج1، ص185.

[2] –الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن الكريم، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ص28.

[3] –أحمد حنفي: التفسير العلمي للآيات الكونية، دار المعارف، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، ص34.

[4] –أحمد بن غنيم النفراوي: الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، طبعة دار الفكر، ضمن القرص المدمج: جامع الفقه الإسلامي، ج1.

[5] –سورة البقرة، الآية: 129.

﴿عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1].

إضافة إلى ما تحمله الآيات المتلوة عند التعقيب على القصص القرآني، نحو قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾[2]، إذ عاقبة السابقين وآثارهم، هي آيات للاعتبار والاتعاظ.

كما تضمنت هذه الآيات أحكاما إلهية، من أوامر ونواهي على الإنسان الامتثال لها؛ لانتظام حياته الدنيوية ولتحقيق سعادته الأخروية، من ذلك قوله تعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[3]، فالمقصود بالآيات، الفرائض التي بينها ﷻ وما تعلق بها من أحكام.

هذا وقد عُدّت المعجزات آية، ذلك إذا ذُكرت في الرسل، كما في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾[4].

والملاحظ أنّ هذه المعاني المختلفة لمصطلح "الآية" هو ما يحمله في الاستعمال القرآني، إذ حمل أوجها متعددة حسب وروده، فأخذ بذلك أوسع مفهوم ضمن القرآن الكريم؛ فهناك ما سماه الله آية وهو كذلك، وهناك ما هو في حدّ ذاته آية وإن لم يُطلق عليه ذلك، كما نجد أنّ الوحي الإلهي مقابل آيات الله المتلوة اعتبر الكون وما أودع فيه من حقائق مشهودة آيات[5]، فكانت مقابل آياته المتلوة آيات مجلوة مودعة في هذا الوجود آفاقا وأنفسا.

وما يهمنا في هذه الدراسة هي آياته تعالى في الآفاق، المعروفة بالآيات الكونية.

---

(1) —سورة فصلت، الآية: 03.

(2) —سورة يوسف، الآية: 07.

(3) —سورة النور، الآية: 01.

(4) —سورة المؤمنون، الآية: 45.

(5) —للتفصيل أكثر راجع كل من: محمد السيد الجلنيد: تأملات حول منهج القرآن في تأسيس اليقين، مكتبة الزهراء، القاهرة، (د.ط)، 1990م، ص10.

—محمد الحسيني البهشتي: المعرفة في نظر القرآن الكريم، ترجمة: علي الهاشمي، دار الهادي، بيروت، ط1، 1423هـ—2002م ، ص223-232.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانيا: مفهوم الكون

الآيـــات الكونية، الآيات العقلية أو آيات العالم المادي، كلها مصطلحات لها دلالة واحدة، عُرّفـــت مـــن زوايـــا مختلفة عند من تناولها بالدراسة[1]، وإن كان بشيء من التفاوت في التفصيل والتحليل؛ فكانت «الآية الكونية نسبة إلى اختصاص معانيها بالكون المادي»[2]، ومن ثمة فهذا الأخير هو المحور الذي تدور حوله هذه الآيات بمواضيعها المختلفة؛ لذلك حريّ بنا التعرف على مدلول هذا المصطلح والمقصود به.

-لغة: الكون: اسم مذكر[3]، مفرد جمعه الأكوان، مأخوذ من الفعل "كان"، إذا جعلته عبارة عـــن ما مضى من الزمان، واحتاج إلى خبر لأنه دل على الزمان فقط، إذ تقول: كان زيد عالما. وإذا جعلـــته عبارة عن حدوث الشيء ووقوعه استغنى عن الخبر، لأنه دلّ على معنى وزمان، تقول: كان الأمر، وأنا أعرفه منذ كان، أي منذ خُلق[4].

ويـــأتي "الكـــون" بمعنى الحدث، فالكائنة هي الحادثة، وكوّنه بمعنى أحدثه، وقد كان كونا وكيـــنونة[5]. والمقصود بقولنا الله مكوّن الأشياء، أي يخرجها من العدم إلى الوجود،ويقال: الكونان إشارة إلى الوجودان أو الدنيا والآخرة[6].

ومما رُوي عنه ﷺ، من بين ما كان يتعوّذ منه إذا سافر «الحور بعد الكون»[7]، أي التعوّذ من الـــنقص بعد الوجود، ومن ثمة فالكون هنا مصدر كان التامة، يقال: كان، يكون، كونا، بمعنى وُجد واستقر.

---

(1) -مـــنهم: مهـــدي كلشني: القرآن ومعرفة الطبيعة. -أحمد عمرأبوحجر: التفسير العلمي في الميزان. -هند شلبي: التفسير العلمي بين النظري والتطبيق.

(2) -أحمد حنفي: التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن، ص34.

(3)-Le petit Larousse, Grand format, Montréal Québec, 100ed, 2005. p.1092.

(4) - إسماعيل بن حماد الجوهري: تاج اللغة وصحاح العربية، ج6، ص3959

(5) -ابن منظور: لسان العرب، ج5، ص3959.

(6) -أيوب بن موسى الحسيني: الكليات، ص771-772.

(7) -رواه الإمـــام مسلم في كتاب الحج، باب: ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره. -صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق: عصام الصبابطي وآخرون، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1415هـــ-1994م، مج5، ص121.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وعليه فإن أصل كلمة "كون" هو الفعل "كان"، الذي يعني **الوجود**، وبما أنّ **الإيجاد** قد حدث في الماضـــي، أصبح الفعل دال على هذا الزمن من جهة، ومحتاجا إلى الخبر الذي يعطيه المعنى أيضا؛لذلك قيل له فعل ماضي ناقص المعنى، فهو يدل على الزمن فقط. ثم اشتُقّ منه المكان بإضافة الميم في أوله، فأصـــبح يـــدل على الظرف الذي يحدث فيه الشيء، ومنه اشتُقّ "الكون"، وهو كل شيء حادث في الوجود [1].

أما عن ورود لفظ "الكون" في القرآن الكريم، فإنه لم يرد بهذه الصيغة، لكن ورد باشتقاقات مختلفة، منها في قوله تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ**﴾ [2]، و "كان" معناها ما مضى من الزمن، كما وردت بمعنى الخلق والتكوين في قوله تعالى: ﴿**...إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾[3].

-اصـــطلاحا: يأتي مصطلح "الكون" مرادفا لكل من الوجود، العالم، الطبيعة والمخلوقات؛ فهي متقاربة في المعنى، مختلفة فيه باختلاف توظيفها.

فـــإذا كان المقصود من الطبيعة ذلك العالم المادي، الذي نتعامل معه محواسنا[4]، فإن مصطلح "الكـــون" في الفـــيزياء وعلم الفلك يشير إلى كل ما هو موجود من أصغر الذرات إلى أكثر الأجرام الفلكـــية بعـــدا، هذا العالم الذي اختلفت نظرة الإنسان إليه من وقت لآخر، إذ كان يبدو بالنسبة للإغـــريق مرتبا بصورة بالغة الإحكام، له نظام متناغم، يتألف من الأرض والشمس والنجوم، القمر والكواكـــب الظاهرة، لكن بمرور الزمن أصبح الإنسان يدرك أن الشمس ما هي إلا واحدة من مائة بلـــيون جـــرم في مجرة تدعى "درب التبانة"، التي بدورها ما هي إلا مجرةٌ واحدة من مائة بليون مجرة على الأقل يتألف منها الكون الظاهر لنا[5].

---

(1) –خالد بن عميور: الإعجاز البياني للآيات الكونية في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، قسم اللغة والدراسات القرآنية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2000-2001م، ص27.

(2) –سورة آل عمران، الآية: 103.

(3) –سورة مريم، الآية: 35.

(4) –مهدي كلشني: القرآن ومعرفة الطبيعة، دار الأضواء، بيروت، ط1، 1989م، ص74.

(5)– مؤسسةسلطان بن عبد العزيز آل سعود: الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة، الرياض، ط2، 1419 هـ-1999م ، ج20، ص285.

–منير بعلبكي: موسوعة المورد، دار العم للملايين، ط2، 1992م، مج10، ص59.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الأمـــر الـــذي أدّى إلى القول بأنه لا يمكن وضع تعريف ثابت ومحدد لمعنى الكون، خصوصا في الأزمنة الأخيرة التي تتقافز فيها معطيات العلم بصورة مذهلة، تدفعه لتغيير طبيعة قناعاته على ضوء ما استجد من حقائق، ذلك أنّ حقيقة الكون لم تُدرك بعد إلا بالتزر اليسير[1].

أما عند المتكلمين، فالكون مرادف للوجود[2]، إذ قد يستخدم مصطلح "العالم" ويُشار به إلى مجموع أجزاء الكون عندهم، أما عند أهل التحقيق -الصوفية-، فهو عبارة عن وجود العالم كله من حيـــث هو عالم لا من حيث أنه حق، في حين يرادف "الكون" الوجود المطلق العام المكوَّن، وذلك عند الفلاسفة، كما يراد به حصول الصورة في المادة بعد أن لم تكن حاصلة فيها، ويُقابل الفساد[3].

فـــالملاحظ أن المصطلح عُرِّف من زوايا مختلفة، إلا أنها متقاربة، إذ من خلال هذه التعريفات يمكـــن اعتباره مجموع ما تكوّن بالإرادة الإلهية في الزمان والمكان من الموجودات على اختلافها[4]، بعـــد أن لم تكـــن موجـــودة، ولهـــذا المعـــنى ما يماثله في الاصطلاح الأجنبي، إذ يأخذ "الكون" (L'univers) معنى العالم كله، أي مجموع كل ما هو موجود من أصغر مكونات الذرة إلى التجمع العظيم للمجرات[5].

ومـــا يمكـــن قوله مما سبق أنّ للكون معنى كليا تتكامل فيه عوالم عديدة ومختلفة، ضمن ما يُعـــرف بالعالم العلوي والعالم السفلي، من أكبر مجرة إلى تلك الأشياء المتناهية في الصغر وما يحتويه عالمها من الذرة والكائنات الوحيدة الخلية، والتي لها جميع وظائف الحياة، أي ما يحتويه عالم الشهادة.

ومـــن ثمة يكون الكون أو العالم أو الوجود أو المخلوقات، كلها مصطلحات إن اختلفت في

---

(1) -ذائـــر آل حبـــيل: "الديـــن ونظرة الإنسان الكونية"، الكلمة، مجلة فكرية ثقافية إسلامية صادرة عن منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، ع22، س6، شتاء 1420هـ-1999م، ص104-105.

(2) -محمد علي التهانوي: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق: علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بروت، ط1، 1996، ج2، ص1392.

(3) -علي بن محمد الجرجاني: التعريفات، تحقيق: عبد المنعم الحفني، دار الرشاد، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، ص214.
-مجمع اللغة العربية: المعجم الفلسفي، عالم الكتب، بيروت، (د.ط)، 1399هـ-1979م، ص115، 156.

(4) -أبو الوفاء الغنيمي التفتزاني: الإنسان والكون في الإسلام، عالم المعرفة، السعودي، (د.ط)، 1983م، ص25. (انظر هامش الكتاب).

(5) -Gallimard Jeunesse : Dictionnaire visuel pour tout, édition Revue et augmentée, p10.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مبـــناها، فإنها تشترك في مدلولها ومعناها، وهي كل ما خلق سبحانه وتعالى في هذا الوجود، أي كل مـــا سوى الله من المخلوقات بأنواعها، في العالم العلوي من أفلاك وأجرام سماوية، وفي العالم السفلي من أرض وما احتوته من نبات وجماد وحيوان، وأجسام متناهية الصغر. هذا المفهوم الذي لا يتجاوز عـــالم الموجودات المادي –عدا الإنسان–،هو المتداول في الدراسات الحديثة –خاصة الأجنبية منها–، التي لا تتجاوز في دراستها للكون عالم الموجودات المادي باستثناء الإنسان الذي هو عالم قائم بذاته، فكانت بذلك مسائل الكون موضوع علم الكونيات (Cosmologie).

ومـــع أنّ مصـــطلح "الكون" لم يُذكر في القرآن الكريم بهذه الصيغة، إلا أنّ العلماء المسلمين أكدوا وجود مفهومه في الكتاب العزيز استنادا إلى آيات التكوين، التي مفادها إيجاد أشياء من العدم إلى الوجـــود[1]، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [2]، وبذلك يؤكد الوحي الإلهي أن إخراج المعدوم إلى الوجود صفة له عَزَّ وَجَلَّ، فيكون تكوينه للمخلوقات على حسب علمه وإرادته.

هـــذا،وقد جاء حديث القرآن الكريم عن الكون من نشأته إلى منتهاه، وما يحتويه من عناصر وأجـــزاء، مـــا يدخل ضمن المخلوقات الإلهية المشهودة، المتشعبة في هذا الوجود الكلي، مُشـــكّلة عـــالم العلائق القائمة بين الموجودات وظواهرها؛ فكان ذلك الحديث في الوحي الإلهي من خلال ما عُرف بالآيات الكونية.

ثالثا: المقصود بالآيات الكونية

لإعطـــاء مفهوم للآيات الكونية، كان لزاما علينا معرفة المعنى اللغوي والاصطلاحي لكل من "الآية" و"الكون"، مع الاستناد إلى ما ورد حولهما في القرآن الكريم؛ لأن من شأنه تعميق تلك المعاني وإعطاء دلالات أوسع، ومن خلال ذلك يمكن الكشف عن المقصود منها.

فالآيـــات الكونـــية هي: «تلك القضايا المتعلقة بالكون المشهود، عدا الإنسان من حيث هو

---

[1] –جمـــال مـــيمون، نضال قسوم: قصة الكون من التصورات البدائية إلى الانفجار العظيم، دار المعرفة، الجزائر، (د.ط)، 1998م، ص60.

[2] –سورة يس، الآية: 82.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

روح وعقل واختيار، أما البدن من حيث خلقه وسنن الله فيه فداخل في الكون، والنفس أيضا خلقها الله و له سبحانه وتعالى في خلقها وفي سلوكها سنن، لكن العرف جرى في فهم الآيات الكونية القرآنية، أنها الآيات المتعلقة بغير نفس الإنسان، ومن هنا جاء تقسيم القضايا إلى كونية وقضايا نفسية»[1].

فالملاحظ أن الآيات الكونية -من خلال هذا التعريف- تختص معانيها بالكون أو ما يعرف بالوجود المادي، الشامل لمنظومة الموجودات التي نستطيع مشاهدتها، إذ استثنى هذا التعريف الإنسان من حيث نفسيته، واقتصر منه على الجانب المادي المدرك بالحواس -البدن-. في حين هناك من لم يفرق بين الإنسان كبدن ونفس، أو بين كونه مخلوقا بتركيبه المعجز، المادي والروحي[2] إنما اعتبره بتركيبته المتنوعة داخلا ضمن آية الكون، ولم تُستثنى نفسه من ذلك؛ فشملت بذلك الآيات الكونية كل عناصر عالم الشهادة، باعتبار أن الإنسان جزء منه.

وإذا كان هناك اختلاف في مدلول الآيات الكونية، حيث قسمت على أساسه القضايا إلى كونية ونفسية، فإن القرآن الكريم أعطى لها معنى أعمق ومدلول أوسع في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[3]، فكانت آيات الآفاق وآيات الأنفس قسمين منفصلين.

-مفهوم الآفاق

ذكر أهل اللغة أن الآفاق جمع مفرده "أفق"، ويجوز أن يكون "الأفق" واحدا وجمعا كالفلك. يُقال رجل أفقي إذا كان من آفاق الأرض أي نواحيها، والإنسان الأفق هو ذلك الذي بلغ الغاية في العلم والكرم وغيرها من المحاسن[4]. ويُطلق أيضا على الناحية من السماء والأرض[5].

---

(1) -أحمد عمر أبو حجر: التسفير العلمي في الميزان، دار قتيبة، بيروت- دمشق، ط1، 1411هـ-1991م، ص361 (بالهامش).

(2) -هند شلبي: التفسير العلمي بين النظرية والتطبيق، (د.د)، تونس، (د.ط)، 1985، ص84.

(3) -سورة فصلت، الآية: 53.

(4) -ابن منظور: لسان العرب، ج1، ص74.

-أيوب بن موسى الحسيني: الكليات، ص154.

(5) -مجمع اللغة العربية: معجم ألفاظ القرآن الكريم، مج2، ص40.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

واللفـــظ ورد في القرآن الكريم بالصيغتين -المفرد والجمع- في ثلاث مواضع،وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [1]، ومعنى "الأفق" هنا الفضاء الذي يبدو للعين من الكرة الهوائية بـــين طرفي مطلع الشمس ومغربها، ومن حيث يلوح ضوء الفجر، ويبدو شفق الغروب، والمقصود به في الآية رآه ما بين السماء والأرض[2].

كما ورد في قوله أيضا: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ [3]، والمراد بالأفق الأعلى هنا ناحية الشرق مـــن السماء، لأنّ أفق المشرق فوق المغرب في صعيد الأرض لا الهواء[4]، أي أنه الجو الذي يبدو للناظرين، وهو ملتقى منتهى النظر من الأرض، وبين منتهى ما يلوح كالقبة الزرقاء، ومنه أفق المشرق وأفق المغرب[5].

إضـــافة إلى ذلك نجد أن اللفظ قد ورد في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ [6]. بصيغة الجمع ومعناه ما ظهر من نواحي الفلك وأطراف الأرض.

ومن ثمة يكون المقصود بالأفق (Horison)، الخط الذي يبدو وكأن السماء والأرض يلتقيان عنده،أو الحد الذي ينتهي عنده سطح الأرض في الرؤية بالعين المجردة -إذا جاز التعبير-[7].

وفي علم الفلك -أو الهيئة- يُطلق الأفق على ثلاث دوائر: أحدها، دائرة عظيمة فاصلة بين ما يُـــرى من الفلك وبين ما لا يُرى منه، ويسمى الأفق الحقيقي. والثانية هي دائرة صغيرة ثابتة تُماس الأرض من فوق، موازية للأفق الحقيقي، ويُعرف بالأفق الحسِّي، في حين تكون الثالثة عبارة عن دائرة ثابتة، ترسم محيطها من طرف خط يخرج من البصر إلى سطح الفلك الأعظم مماسا للأرض، ويسمى الأفق الحسي هو الآخر[8].

---

(1) -سورة التكوير، الآية: 23.

(2) -الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس، (د.ط)، 1397هـ-1977، ج30، ص159.

(3) -سورة النجم، الآية: 7.

(4) -محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج19، ص29.

(5) -الطاهر بن عاشور: المرجع السابق، ج27، ص96.

(6) -سورة فصلت، الآية: 53.

(7) -منير البعلبكي: موسوعة المورد، ج05، ص123.

(8) -عـــبد الـــنبي بن عبد الرسول الأحمد نكري: موسوعة مصطلحات جامع العلوم، تحقيق: علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط01، 1997م، ص137.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هـذا عـن الأفق الذي ما ظهر من نواحي السماء والأرض، أما آيات الآفاق؛ فالمؤكد أنها ليسـت إلا في المخلوقات، التي هي دلائل الخالق، ومعلوم أن الخلق هو إخراج الشيء من العدم إلى الوجود، ومن ثمة تكون آياته تعالى في الآفاق هي هذا الوجود بما حوى في كلياته وجزئياته في العالمين العلوي والسفلي باستثناء الإنسان، والتي جمعها سبحانه وتعالى في قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِـنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [(1)]؛ فهذه هي العناصر المكونة للآفـاق، مـن سموات وما حوت، وأرض وما تضمنت، إضافة إلى العناصر الموجودة بينهما؛ هي آيـات وعـد سـبحانه وتعالى عباده بالشكف عنها في قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِـهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [(2)]، فتكون الآفاق هي الآيات الفلكية والكوكبية، وآيات الليل والنهار[(3)] وغيرها، التي هي آياته ودلائله سبحانه وتعـالى في هـذا الوجود الموجهة لعباده العقلاء؛ لأنّ إدراك حقيقتها لا يتسنى لمن غابت عنه هذه الصفة.

ومقابل آيات الآفاق نجد ما يعرف بآيات الأنفس، والمقصود بها:

-النفس مفرد، والجمع منه أنفس ونفوس، وللفظ في اللغة معاني عديدة[(4)]، فيقال:

نفس الشيء: ذاته، والنفس هي عين الشيء وكنهه وجوهره. وغيرها من المعاني التي تحملها.

أما في القرآن الكريم، فاللفظ ورد بصيغ متعددة، وبمعاني مختلفة، تحوي تلك المعاني اللغوية، إذ يمكـن حصرها في معنيين رئيسين، تتفرع عنه باقي المعاني. فقد جاءت النفس بمعنى الروح الساكنة للجسـد، والموجهة له، حيث إذا فارقته حلّ به الموت، مصداقا لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ

---

(1) -سورة البقرة، الآية: 164.

(2) -سورة فصلت، الآية: 53.

(3) -الرازي: التفسير الكبير، ج27، ص85-86.

(4) -ابن منظور: لسان العرب، ج6، ص4500-4501.

-مجمع اللغة العربية: معجم ألفاظ القرآن الكريم، مج1، ص746.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾ [1]، تقول: خرجت نفس فلان؛ أي روحه، وهي النفس الأولى. أما النفس الثانية فهي تلك التي يكون فيها التمييز، وتزول لزوال العقل.

كما جاءت النفس معبرًا بها عن الإنسان جميعه، كقولهم: عندي ثلاثة أنفس، مثاله ما ورد في قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [2]، فالنفس هنا بمعنى الإنسان بجوانبه النفسية والروحية، العقلية والجسمية، هذا المعنى الذي يقابله في القرآن الكريم الآفاق.

ومن ثمة فآيات الله في الأنفس هي تلك الآيات المتعلقة بنفس الإنسان وخلقه، وتكون أعضائه، وما يعرض له في حياته من أحوال وأطوار[3].

لذلك ما يمكن قوله من خلال ما تقدم أن أعمق معنى وأوسع مدلول للآيات الكونية، عبر عنه القرآن الكريم بالآفاق مقابل الأنفس، إذ أطلق عن الموجودات المحسوسة والمشهودة اسم "الآيات" أي العلامات؛ لذلك فالآفاق مرادفة للكون، والأنفس مرادفة للإنسان، رغم أن الإنسان جزء من هذا الكون.

ويكون بذلك قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [4]، شاملا لنوعين من الآيات: آيات مشهودة في الآفاق وفي الأنفس، مجلوة في الكتاب الكوني المنظور، وآيات قرآنية في الآفاق وفي الأنفس، متلوة في الوحي الإلهي المنزل؛ فهو سبحانه وتعالى يرينا آياته المشهودة من غير ذكرها في القرآن، لكن زوّد عباده بالوسائل الموصلة لإدراكها، كما يرينا آياته المتلوة في الآفاق والأنفس، مرشدة إيانا إلى تلك المجلوة؛ ليرينا فيها مصداق الآيات القرآنية[5].

وبناء على هذا المفهوم قسمت الآيات المشهودة إلى آيات في الآفاق، وآيات في الأنفس، متلوة ومجلوة، فإن تأمل الإنسان ببصره فيما حوله رأى آياته تعالى في الآفاق، بعالميه العلوي والسفلي،

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) ـسورة الزمر، الآية: 42.

(2) ـسورة الزمر، الآية: 56.

(3) ـالرازي: التفسير الكبير، ج27، ص85-86.

(4) ـسورة فصلت، الآية: 53.

(5) ـمحمد عز الدين توفيق: دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث، دار السلام، القاهرة، ط2، 1418هـ-1998م، ص51.

وأدرك بعقلـه ما هو متشعب منها في الوجود من خلال العلائق القائمة بين الموجودات وظواهرها، كذلـك الأمر إذا تأمل في نفسه، فإنه يقف على أعظم الآيات، التي هي عبرة من النفس إلى النفس، دليلا ومدلولا في الوقت ذاته -فسبحان من خلقها وأمر بتأملها-، ولا مفر للإنسان من كلا القسمين أو على الأقل واحدامنهما، إلا من هو جاحد عنيد.

وبمـا أن الإنسان عالم قائم بذاته في هذا الوجود، فإنّ دراستنا ستقتصر على الآيات الكونية بمفهومهـا الخـاص المتضمن لآياته تعالى في الآفاق. في حين تكون الآيات الكونية نسبة إلى الكون، وهـي آيات الآفاق الشاملة لعالمنا المادي بشقيه العلوي والسفلي -عدا الإنسان الذي هو عالم قائم بذاته-، والذي يمكننا التعامل معه بحواسنا وإدراكه بعقولنا.

ويكون المقصود من هذه الدراسة تناول آيات الآفاق المرادفة للكون؛ لذلك فالآيات الكونية القرآنـية هـي آي الذكر الحكيم التي تتحدث عن خلق العالم المادي، والعارضة على العقول عناصر الكـون، ومـا فـيها من دلائل العلم الواسع والقدرة العظيمة في الخلق والحكمة البالغة في التوجيه، والـرحمة الواسـعة بالمخلوقـات، التي جاء الخطاب الإلهي موجها الإنسان إلى تدبرها والتأمل فيها لإدراك أبعادهـا انطلاقا من الوحي، كتاب الله المقروء، ووصولا إلى الكون كتاب الله المفتوح -عالم الشهادة-؛ فتكون آيات الآفاق بذلك متلوة ومجلوة.

المطلب الثاني: الأبعاد الوظيفية للآيات الكونية:

يسـتند الإنسان في تفسيره للوجود إلى منابع يستلهم منها معرفته، وتتمثل في كل من العلم، الفلسـفةوالدين، حيث لكل واحد رافد مبني على اعتقاد خاص في نظرته وتقييمه له، أي أنّ لكل مـنها رؤية كونية معينة؛ لذلك وُجدت لها ثلاثة أنواع: رؤية كونية فلسفية، وأخرى علمية، إضافة إلى الرؤية الدينية، والتي تتمايز فيما بينها في المنطلق والخصائص.

وإذا تأملـنا المعرفة الكونية الإسلامية في نظرتها للوجود، والتي منطلقها الوحي الإلهي، نجدها تتميز بثلاث خصائص هي: الثبات، والخلود، فهي لا تتغير مع مرور الأزمنة، وإنما تبقى خالدة كما نزلت في القرآن الكريم رغم تعاقب الأجيال.

إضافة إلى أنها معرفة شاملة لكل عناصر الوجود، إذ تقدم لنا نظرة عامة عنه آفاقا وأنفسا، أما

لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

ومن مبادئ الرؤية الكونية الإسلامية غائية الخلق، فعناصر هذا الوجود تتكامل فيما بينها وفق نظام وانسجام لبلوغ هدف واحد، إذ لم يُخلق عنصر منه عبثا، بل لكل دوره،وذلك لأجل تحقيق إرادة الخالق، مع اختلاف تحقق هذه الإرادة، إما بالضرورة كما هو الحال بالنسبة لحياة الكائنات التي لا تملك اختيار سلوك غيرالذي فُطرت عليه، أو بالاختيار والضرورة معا، وذلك مع الإنسان، إذ تقتضي فطرته تحقيق إرادته تعالى بالاختيار حينا، مثلما هو في تحقيق الإيمان أو الكفر، أو بالضرورة فيما يتعلق بالأمور التي تضمن له الحياة كالصحة والأكل وغيرها [2].

أما المبدأ الأخير فيتمثل في مكانة الإنسان في هذا الوجود وما يترتب عنها؛ فالله ميّز هذا المخلوق عن غيره بقوة الإدراك العقلي لما أورده الله في كتابيه المقروء والمنظور، إلى جانب ما فطر عليه، فكانت له بذلك القدرة على إنفاذ أوامر الله وتكاليفه، مما استوجب مسؤوليته على ما كُلّف به، وحسابه على ذلك.

ونظرا لهذه المكانة المميزة له لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[3]، كانت عناصر الوجود مسخرة له لتحقيق الغاية من وجوده -عبادة وعمارة- هذه الأمانة التي هي تشريف له وتكليف في آن واحد.

وبناء على هذه المبادئ تمثلت عناصر الرؤية الكونية التوحيدية، في الله والكون والإنسان، وهي المحاور التي تناولتها الآيات الكونية في القرآن الكريم، إضافة إلى بيان العلاقة بينها، مما جعل لهذه الآيات أبعاد متعددة تتمثل في:

---

(1) -سورة الذاريات، الآية: 56.

(2) -مرتضى مطهري: الرؤية الكونية التوحيدية، ص20.

-محمد أبو القاسم حاج حمد: العالمية الإسلامية الثانية، دار ابن حزم، بيروت، ط2، 1416هـ-1996م، مج1، ص482.

(3) -سورة الإسراء، الآية: 70.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا: البعد الإيماني

من رحمة الله بعباده أن نزّل القرآن الكريم ليعطي تصورا كاملا عن حقيقة الألوهية ،الكون والإنسان، والعلاقة الرابطة بينهم، فقدّم بذلك رؤية كونية توحيدية؛ لذلك لا غرابة في كثرة حديثه عن الآفاق، إذ هي دلائل ورسائل نور ليفقهها أصحاب الفطرة السليمة، والقلوب الغافلة، وأولئك الذين عُميت أبصارهم؛ لتثبيت الإيمان بالتعمق في العبودية، وتصحيح المعتقدات الفاسدة، فجاء الكتاب المقروء والمنظور كل منهما شارحا للآخر، بل لا يُفهم أحدهما بمعزل عن الثاني؛ لذلك قيل: «القرآن يقرأ الكائنات في المسجد الكوني الكبير، وذاكرة الآيات المسطورة في صفحات الكائنات بقلم القدرة»[1].

ومن ثم يكون ورود الآيات الكونية في الخطاب الإلهي ،كوسائل موصلة إلى المقاصد الكلية له، إذ هو وحده الكفيل بالإجابة عما يُسأل للكائنات: من أين، وبأمر من أتت؟ من سلطانها؟ ما غاية وجودها؟ وإلى أين تصير؟

لهذا فتلك الآيات هي بيان للحقائق الإيمانية، التي من خلالها تكون الإجابة عن هذه الاستفهامات، لذلك كانت الرؤية الكونية التوحيدية مسلحة بقوة المنطق والعلم والاستدلال[2]، بداية بدلالتها على وجوده تعالى، إذ في كل ذرة من الوجود دلائل على وجود الحكيم العليم، وفي كل ورقة من الشجر يوجد كتاب من معرفة الله جل جلاله.

فكان إثبات وجوده ووحدانيته تعالى المقصد الإيماني الرئيس للبعد الوظيفي للآيات الكونية، وذلك انطلاقا من أعظم الأفلاك في الآفاق إلى أصغر خلية،فهو ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ. لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[3]، ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ

---

(1) -بديع الزمان النورسي: الكلمات، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر، القاهرة، ط2، 1412هـ-1998م ، ص30.

(2) -مرتضى مطهري: الرؤية الكونية التوحيدية، ص20.

(3) -سورة الزمر، الآيتان: 62-63.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا: البعد الإيماني

مــن رحمة الله بعباده أن نزّل القرآن الكريم ليعطي تصورا كاملا عن حقيقة الألوهية ،الكون والإنســان، والعلاقة الرابطة بينهم، فقدّم بذلك رؤية كونية توحيدية؛ لذلك لا غرابة في كثرة حديثه عــن الآفاق، إذ هي دلائل ورسائل نور ليفقهها أصحاب الفطرة السليمة، والقلوب الغافلة، وأولئك الذيــن عُميــت أبصارهم؛ لتثبيت الإيمان بالتعمق في العبودية، وتصحيح المعتقدات الفاسدة، فجاء الكتاب المقروء والمنظور كل منهما شارحا للآخر، بل لا يُفهم أحدهما بمعزل عن الثاني؛ لذلك قيل: «القــرآن يقرأ الكائنات في المسجد الكوني الكبير، وذاكرة الآيات المسطورة في صفحات الكائنات بقلم القدرة»[1].

ومن ثم يكون ورود الآيات الكونية في الخطاب الإلهي،كوسائل موصلة إلى المقاصد الكلية له، **إذ هو وحده الكفيل بالإجابة عما يُسأل للكائنات: من أين، وبأمر من أتت؟ من سلطانها؟ ما غاية وجودها؟ وإلى أين تصير؟**

لهــذا فــتلك الآيــات هــي بيان للحقائق الإيمانية، التي من خلالها تكون الإجابة عن هذه الاســتفهامات، لذلك كانت الرؤية الكونية التوحيدية مسلحة بقوة المنطق والعلم والاستدلال[2]، بدايــة بدلالتها على وجوده تعالى، إذ في كل ذرة من الوجود دلائل على وجود الحكيم العليم، وفي كل ورقة من الشجر يوجد كتاب من معرفة الله جل جلاله.

فكــان إثبات وجوده ووحدانيته تعالى المقصد الإيماني الرئيس للبعد الوظيفي للآيات الكونية، وذلــك انطلاقا من أعظم الأفلاك في الآفاق إلى أصغر خلية،فهو ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ. لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[3]، ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ. إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ

---

[1] –بديــع الــزمان النورسي: الكلمات، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر، القاهرة، ط2، 1412هــ- 1998م ، ص30.

[2] –مرتضى مطهري: الرؤية الكونية التوحيدية، ص20.

[3] –سورة الزمر، الآيتان: 62-63.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [1]، حيث كل عنصر في الآفاق يدل على وجوده تعالى، ويشهد على وحدانيته، فإذا تأملنا في الكائنات المتنوعة، ونظرنا إلى جنان الأرض وتدبرنا تلك الأفلاك، نرى على كل منها علامة هي دليل خالقها.

نعم، إن خالق هذا الكون يديره إدارة حكيمة بقانون أمري معجز، بحيث لا يمكن أن يطبق ذلك القانون إلا مَن جميع عناصر الكون في قبضته، وهكذا «إن لم تنطفئ جذوة عقلك و لم تفقد بصيرة قلبك، فستدرك أن الأمر ليس إلا علامة واضحة وآية بيّنة لخالق كل شيء وصانعه»[2].

كما تأتي الآيات الكونية لإبطال معتقدات فاسدة، باعتبارأن الكون منطلقا للعديد منها، وذلك لتتريهه تعالى، منها الاعتقاد بألوهية الكواكب وعبادها ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[3]، فجاء إثبات أنها مجرد مخلوقات لمن لا إله إلا هو جل جلاله ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ [4]، وبذلك طرح سبحانه وتعالى في محكم تتريله أسس الكفر المبني على عالم الشهادة، وحارب الشرك، بإثباته أنّ هذا الوجود لا يمكن أن تخلقه طبيعة عمياء، صماء، كما تستحيل فيه الصدفة؛ لذلك فإسناد خلقه لغير الله الأحد الصمد هو ضلال عن الصراط المستقيم.

هذا عن دلالة الآيات الكونية عن المقصد الأساسي للقرآن الكريم، كما أنها جاءت مثبتة لما يتبعه من الحقائق الإيمانية، كالنبوة والحشر وغيرها من الحقائق المرتبطة ببعضها، والمشكّلة كلا لا يتجزأ.

وبما أن المقام لا يتسع للحديث عنها بالتفصيل، سنتناول دلالة الآيات الكونية على أنّ القرآن الكريم مصدره إلهي، إذ لو لم يكن كلام صانع هذا الكون ذاته، لما أمكن أن يحوي الصورة الكاملة والشاملة لعناصر هذا الوجود، المترابطة في تناسق عجيب.

فمن تَدبّر محتوى الخطاب الإلهي يجد أنه يبدأ بتعريف الإنسان بذاته، وما تحمله من خصائص،

---

[1] ـسورة البقرة، الآيتان:163-164.

[2] ـبديع الزمان النورسي: الكلمات، ص328.

[3] ـسورة النمل، الآية: 24.

[4] ـسورة النجم، الآية: 49.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وما لها من حقوق مقابل ما عليها من واجبات، ويضعه على بيّنة بمبدئه ومنتهاه، فيجيب بذلك على الإشكالات المطروحة في موضوع المعرفة، كما يُعرِّفه أيضا على المظاهر الكونية، وعلاقته بها، منبها إياه إلى السنن الإلهية الراسخة في هذا الوجود، وما فيه من عناصر مسخرة له؛ فيضعه بذلك على الصراط المستقيم الذي لا يعي سالكه.

وهذا المضمون في الحقيقة هو الأركان الكلية لبنيان هذا الوجود، المتمثلة في كل من الله جل جلاله، الإنسان والكون، الممثلة لينابيع المعرفة[1]، وبذلك يتمثل عالم الآفاق أمام بصيرة الإنسان من خلال آيات الكتاب المقروء، وهذا دليل كاف على إلهية مصدره.

هكذا درج الخطاب القرآني على إثبات حقائق الإيمان على نفس المنهج، بدلائل متعددة من الآفاق، عماده في ذلك استنطاق كتاب "عالم الشهادة" لإثبات حقائق "عالم الغيب".

ثانيا: البعد التشريعي

إن أهم ما يميز التشريع الإلهي، عجز الإنسان عن إعطاء بديل عنه، فهو أعدل وأنصف التشريعات نظرا لمصدره الحق تبارك وتعالى، إذ جاء مستوفيا لحاجيات البشرية بشموله كل جوانب الحياة، وجمعه لأحكام العبادات والمعاملات، وذلك بهدف إعداد الفرد تصورا وسلوكا لتحمل الأمانة التي كُلّف بها[2]، والقيام بمهمته الاستخلافية على أكمل وجه، الأمر الذي جعل الإعراض عنه ضلالا مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[3].

وباعتبار أنّ مجال تطبيق الإنسان لهذا التشريع هي الآفاق، فإنه جاء متناسقا معها ومع سننها، وهو ما يفسر ارتباط العديد من أحكامه بالمظاهر الكونية؛ لذلك يعدّ البعد التشريعي من الأبعاد الوظيفية للآيات الكونية، الممثل لعلاقة الإنسان بغيره وعلاقته بخالقه، إذ كثيرا منها وردت حاملة

---

(1) محمد سعيد رمضان البوطي: "ظاهرتان تبعثان على الدهشة في كتاب الله عز وجل"، المؤتمر العالمي الرابع لبديع الزمان النورسي، نحو فهم عصري للقرآن، رسائل النور نموذجا، تركيا، 20-22 سبتمبر 1998، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، ط1، ص364.

(2) عبد المجيد النجار: فقه التحضر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1999م، ص95-102.

(3) سورة طه، الآية: 124.

لحكم شرعي منظِّما لجانب من جوانب الحياة في هذا الوجود.

الأمر الذي جعل أهمية هذا المقصد تظهر أساسية وواضحة في تعلق آيات الآفاق في الخطاب القرآني، إما بأحكام العبادات أو المعاملات.

فمن الأحكام الفقهية التي جاءت الآيات الكونية ببيانها، والمتعلقة بالعبادات، نجد ربط القرآن الكريم لأوقاتها بآيات في الآفاق، من ذلك قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا. وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [1]، حيث حددت أوقات الصلاة المفروضة بظواهر كونية مشهودة، وهي ميلان الشمس إلى الأفق الغربي بعد الزوال؛ فيدخل في ذلك صلاتا الظهر والعصر وصلاة العشاء، إضافة إلى صلاة الفجر التي تأتي في وقت يشهد الله وملائكته الليل والنهار[2]، وكل ذلك مبني على حركة الأرض، مما يترتب عنه أحكاما خاصة بالوقت، كشرط لصحة الصلاة، وكسبب لوجوبها، وغيرها من الأحكام الفقهية المتعلقة بهذا الباب.

كذلك نجد منها ما يتعلق بأحكام الصوم في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [3]، فهي أحكام فقهية ورخص للإنسان في شهر رمضان، مرتبطة بظاهرة كونية وهي طلوع الفجر، إذ يبدأ وقت الصيام والامتناع عن كل ما هو مفسد لهذه العبادة، كما جاء تحديد فترتها إلى الليل ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾، فكانت بذلك حدود الله التي حدّها لعباده، ونهاهم عن تجاوزها بناء على آيات معروفة ومشهودة في الآفاق، يقف عليها ويدركها كل إنسان عاقل.

---

(1) ـسورة الإسراء، الآيتان: 78-79.

(2) ـمحمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج13، ص171-172.

(3) ـسورة البقرة، الآية: 187.

والأمـــر نفسه بالنسبة للزكاة في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[1]، إذ ارتبط وقت زكـــاة الزرع –ذات الأنصاف المقدرة في الشرع– بيوم حصادها، وذلك لأن حصادها بمترلة حولان الحـــول[2]، وهـــو حكم مبني وجوبه على ظاهرة حسية يشهدها الإنسان بسهولة، فيوم يتم نضج المحصول، وتُجنى ثماره عندها تجب الزكاة.

أما الحج فيتصل وقته بآية كونية مشاهدة بالعين المجردة لقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾[3]، فالله جل جلاله برحمته ولطفه جعل الأهلة على ذلك التدبير، إذ قدّره منازل، فيبدو ضعيفا في أول الشهر، ثم يتزايد إلى نصفه، وبعدها يشرع في الزيادة إلى كماله، ثم يـــنقص إلى أن يصير كالعرجون؛ ليختفي معلنا عن نهاية الشهر، وهكذا حتى يتعرف الناس على مواقيـــت عـــباداتهم من حج، صيام، زكاة وكفارات وغيرها من الأحكام، كأوقات الديون المؤجلة، ومـــدة الإجارات، ومدة العِدَد والحمل، مما هو من حاجات الإنسان، وخص هنا الحج بالذكر لأنه يقـــع في أشـــهر معلومات، ويستغرق وقتا محددا[4]، هذا الاتصال الذي جاء مؤكدا عليه في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[5].

وبذلك ارتبطت الأحكام التشريعية بالآيات الكونية، وكان نتيجة هذا الاتصال بيان لما يترتب عـــنها من أحكام شرعية في المسائل الفقهية المتعلقة إما بعلاقة الإنسان بربه –العبادات–، أو علاقته بغيره –المعاملات–.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[1] –سورة الأنعام، الآية: 141.

[2] –عـــبد الـــرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1423هـ–2002م، ص81.

[3] –سورة البقرة، الآية: 189.

[4] –محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج2، ص57.

[5] –سورة يونس، الآية: 05.

ثالثا: البعد التربوي

يُعدّ البعد التربوي من الأبعاد الوظيفية للآيات الكونية، الممثّل لعلاقة الإنسان مع الإنسان، ومع بقية المخلوقات، إذ نكاد نلمح في كل آية كونية متلوة مقصدا تربويا موجّها للإنسان بغرض دفعه إلى تحقيق وجوده الروحي والمادي، دليله ذلك الاتصال الدائم بين الآيات المشهودة على اختلاف مواضيعها، وبين الإنسان في جانب من جوانب حياته.

لذلك لا ترد الآيات الكونية في الخطاب القرآني، إلا ويكون الإنسان محورا لسياق ورودها، وذلك على سبيل التوجيه التربوي إما مباشرة أو بطريق غير مباشر، حيث تمثّل هذا المقصد التربوي في تلك الإرشادات والتنبيهات، التي من شأنها أن تُعدّه نفسيا وعقليا وجسديا؛ مما يؤدي إلى توافقه مع البيئة الكونية -بما فيها المجتمع-، فيحصل التفاعل المثمر الموصل إلى تحقيق غايته في الوجود [1].

فعن علاقة الإنسان بالكون تمخضت مشكلة نستطيع القول أنها نفسية، مفادها ضآلته أمام عظمة الكون، مما أدى إلى وضع انهزامي كان له انعكاس سلبي مباشر على الحياة الإنسانية، تمثّل ذلك في سلبية وضمور طاقة الفرد وإنجازاته الحضارية، كما أدّى إلى عداء نتج عنه الشموخ والتأله اقتداء بالكون[2]، انعكاسا لذلك الصراع المفتعل بين الكون والإنسان؛ لعدم فهمه لعلاقته به ومكانته ضمن مجال تحقيق وظيفته الاستخلافية.

وقد جاءت الآيات الكونية في الخطاب القرآني متضمنة حقائق ذات بعد تربوي[3]، لمعالجة المشكلة النفسية للإنسان في علاقته بالكون، حيث تمثلت وظيفتها في تأسيس الشعور بحقيقة وحدة الإنسان والكون، وتعميقه مصداقا لقوله تعالى﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [4]، فكل الموجودات تتكامل بنظام وانسجام في مجال واحد؛ لتحقيق غاية واحدة، هي عبادة الله، مما ترتب عنه

---

(1) -عبد المجيد النجار: مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1992م، ص10.

(2) -عماد الدين خليل: حول إعادة تشكيل العقل المسلم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أمريكا، ط4، 1991م، ص28.

(3) -عبد المجيد النجار: المرجع السابق، ص17-20.

(4) -سورة النور، الآية: 41.

وَحــدة في التوجه. كما تتجلى تلك الوَحدة بينهما في المأتى والمصير، فماهية الكون وما تضمّن من عناصر لا تختلف عن الإنسان، إذ كل منهما من عند الله، وهما إليه يتجهان، فملكهما لله ومصيرهما إلــيه سبحانه وتعالى، إذ قال: ﴿وَلِلَّـهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [1]، وأكّد ذلك بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [2].

إضــافة إلى حــركة التغــيُّر الشــاملة والمستمرة، وهي الحقيقة التي قصدت الآيات الكونية تأسيسها، إذ يخضع لها الإنسان والكون على السواء. فالأول يخضع لها مراحل حياته من بداية الخلق إلى مــرحلة الشيخوخة،مرورا بمراحل الحياة المختلفة، حيث في كل منها هو خاضع لتغير مستمر، لا حيلة له لتفادي الأمر، وذلك ما تؤكده آياته تعالى المتلوة، وتجسده آياته المجلوة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِــنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [3]، وهي سنة إلهية تشهدها الآفاق أيضا مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ. وَالشَّمْسُ تَجْــرِي لِمُسْــتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيـمِ. لَـا الشَّـمْسُ يَنْبَغِــي لَهَــا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْــبَحُونَ﴾ [4]، هــذا فــيما يتعلق بحركة الأفلاك في العالم العلوي، أما ما يتعلق بالعالم السفلي، فالقــانون نفسه تخضع له عناصره، فهي كما قال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَــلَكَهُ يَنَابِــيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [5]، فهي سنة الله في خلقه، كل الموجودات عرضة للــتغير المستمر والحركة الدائمة، إذ «تجري الإرادة الإلهية في الوجود بصورة سنة أو قانون وأصل كــلي، والسنن الإلهية لا تتغير، وكل تغير يقع إنما هو حسب تلك السنن»[6]، التي هي قانون واحد يشمل كل من عناصر الكون والإنسان.

---

[1] ـسورة النور، الآية: 42.

[2] ـسورة آل عمران، الآية: 109.

[3] ـسورة غافر، الآية: 67.

[4] ـسورة يس، الآيات: 37-40.

[5] ـسورة الزمر، الآية: 21.

[6] ـمرتضى مطهري: الرؤية الكونية التوحيدية، ص23.

هذه الحقائق التي جاءت الآيات الكونية لغرسها في الإنسان، ترتب عنها بعد وظيفي تمثّل في تربية الإنسان بتوجيهه إلى حقيقة التعامل مع الكون بناء على أنه مسخّر له، وهو المجال الذي يحقق فيه خلافته –عبادة وعمارة–، مما يجعل علاقته به مبنية على التعامل الإيجابي والفعّال مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [1].

ومن مظاهر هذا التسخير تلك القوانين التي تحكم عناصر الآفاق، الملائمة لحياة الإنسان، إذ قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [2]، وهي إشارة إلى تسخيره ﷻ للمادة الكونية بأكملها المتمثلة في الشمس والقمر، إضافة إلى المقادير الكيفية[3] في نسب العناصر الكونية، المتمثلة في الليل والنهار وعلاقتهما ببعضهما.

أما عن تسخير الموجودات الكونية لحفظ حياة الإنسان واستمرارها، فأشار إليها سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [4]. وفي قوله أيضا: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[5]. وفي قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [6].

والملاحظ أن معظم سياق الآيات الكونية المتلوة يُنبه إلى كل من ظواهر الخلق المتنوعة، والمعاني الإنسانية للعناصر الكونية، إضافة إلى آثار الرحمة الإلهية، فهي آيات الغرض منها دفع الإنسان وشده ليتفاعل مع الحياة بناء على عقيدة التسخير، فيكون تفاعله هذا نوعا من الاندماج بالوحدة مع الكون، ومع ذاته مما يؤدي إلى تحقيق مفهوم حضاري قائم على سلام كوني في ظل التوجيه والعناية الربانية[7].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) –سورة الجاثية، الآية: 13.

(2) –سورة إبراهيم، الآية: 33.

(3) –عبد المجيد النجار: مباحث منهجية في الفكر الإسلامي، ص24.

(4) –سورة النحل، الآية: 05.

(5) –سورة النحل، الآية: 07.

(6) –سورة الجاثية، الآية: 13.

(7) –محمد أبو القاسم حاج حمد: العالمية الإسلامية الثانية، مج1، ص476.

فهـــذا البعد التربوي الذي جاء الخطاب القرآني لترشيد الإنسان من خلاله إلى حقيقة علاقته بالكون، من شأنه أن يدفع بعزمه ونزوعه إلى المباشرة الفعلية والفعالة لعناصر الكون؛ لاستغلالها وفق ما سُخّر له، ووفق ما يحقق غاية وجوده، وذلك بكل اطمئنان وثقة في النفس، إذ يكون في كل ذلك عـــلى بيـــنة بحقيقة العلاقة التي تربطه بهذا الوجود، وهو ما يوضحه قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ. وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ. لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [1]، حيث جاءت متضمنة للعناصر المسخرة للإنسان، الـــتي إن أدرك حقيقتها وغايتها، وما يجب عليه اتجاهها، اعترف بنعم الله وفضله عليه، الذي ﴿... آتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [2]، والأكيد أن إدراكه لما سُخّر له من آيات في عالم الشهادة سيجعله من الذين قالوا: ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [3]، وممن قال ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[4].

ومن ثمة يكون إدراك الإنسان لحقيقة علاقته بالكون، ولصيغة الوّحدة الكونية الضابطة لعناصر الوجـــود، المتعددة الخصائص في تجاذبها وتقابلها، فيبتعد عن التعامل بمنطق الصراع والنفي في الحركة الكونـــية[5]، مما يؤدي إلى انكشاف وعيه عن قيم الخلق الإلهي؛ لتكون قيمه هو كخليفة في الأرض، باعتـــبار الخلافـــة معـــنا متعلقا بالله وبالإنسان في الوقت نفسه، إذ تحمل كل معاني القوة والإبداع والفعل، ألا يكفي أنّ لأجلها سجدت الملائكة.

أمـــا عـــن البعد التربوي للآيات الكونية فيما يخص علاقة الإنسان بنفسه، وبأخيه الإنسان، فيتجـــلى ذلـــك في تزكية النفس واستكمال فضائلها، إذ جاء الخطاب القرآني موضحا وظيفة تلك الآيات، ذلك أن النفس البشرية في أصلها قابلة للتغير إلى الأحسن بالتزكية أو إلى ما هو أسوأ، لقوله

(1) –سورة الزخرف، الآيات: 10-13.
(2) –سورة إبراهيم، الآية: 34.
(3) –سورة الزخرف، الآية: 14.
(4) –سورة يس، الآية: 22.
(5) –محمد أبو القاسم حاج حمد: العالمية الإسلامية الثانية، مج1، ص476.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [1]، ومن أجل الفلاح والتقوى، اعتمد الخطاب الإلهي الآيات الكونية لتوجيه الإنسان إلى ما يزكي النفس؛ ليكون شاكرا لا كفورا، وذلك بحثّه على الصدقة، نظرا لما يترتب عنها من سمو عن الصفات الذميمة من أنانية وشح، وما تحققه من تواصل بين أفراد المجتمع، إضافة إلى ما تؤدي من القضاء على الكثير من المشاكل في شقي الحياة المادي والروحي، فضرب الله لنا مثلا للإنفاق في سبيله بقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2]، لغرس هذه الصفة التي هي أحد طرق تزكية النفس، جسد لنا ذلك بالآية الكونية المشاهدة، وهي الحبة التي أنبتت العديد من السنابل، كل واحدة منها أعطت مائة حبة، هذا في العالم المحسوس، أما في الحسنات، فقد يكون الأمر صعب التصوّر، إذ يضاعف الله لمن يشاء من عباده.

كذلك في توضيح حقيقة الحياة الدنيا جاء قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [3]، وهي حقائق تربوية وقيم أخلاقية ممثلة بآيات كونية، لتكون أكثر تأثيرا في النفس، ولتنبيه الإنسان حتى لا يكون كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ﴾ [4].

فهذه الآيات المحسوسة التي بإمكان أي إنسان مشاهدتها، جاءت لتغرس فينا حقيقة العمل الصالح والسلوك الصحيح، ولتدفع عن النفس غواية الشهوات، وبذلك تكون مسالك للتزكية، ويكون الغرض من الخطاب التربوي للقرآن، ترقية النفس باستخدام الآيات الكونية كوسيلة لتحقيق الخير الاجتماعي، ولاكتساب الأخلاق الفاضلة من صدقة، إخلاص وإنفاق في سبيل الله، وهي في مجملها سلوكات تنمّ عن النفس الزكية، إذ يحاول المؤمن من خلال الالتزام بهذه الأخلاق والمبادئ التربوية أن يترقى من مستوى البهيمية إلى عالم المَلَكية.

---

(1) –سورة الشمس، الآيات: 07-10.

(2) –سورة البقرة، الآية: 261.

(3) –سورة الكهف، الآية: 45.

(4) –سورة العلق، الآية: 06.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومن ثمة تكون هذه الآيات بربطها بين الأخلاق الحميدة والعناصر الكونية، الهدف منها تزويد الفرد بما يحقق وجوده الروحي والمادي، وبهذا يكون البعد التربوي مُتعلِّقا باستكمال فضائل النفس وتزكيتها، إذ يتصل بعلاقة الإنسان بنفسه وبغيره، وعلاقته بالكون، كل ذلك كان للآيات الكونية دورا أساسيا في توضيحه وتثبيته.

رابعا: البعد الجمالي

إنّ نظرة الإسلام في الجماليات تشكل ركنا أساسيا في بناء معرفي متكامل، يمثل فيها البعد الجمالي للآيات الكونية، إضافة إلى صلة الإنسان بخالقه، علاقته بعناصر الكون المختلفة؛ فإلى جانب كل من الوعي الكوني والذاتي اللذين أحدثهما القرآن الكريم بتنبيه العقل البشري إلى التدبر والتفكر في خلقه ﷻ، هناك وعي وجداني أيقظه أيضا في كل نفس؛ لاستيعابه ما في الآفاق من مظاهر الجمال.

وبذلك كان الإنسان مختصا بهذا الوعي، والمقصود الوحيد بالخطاب الجمالي، الذي نجد تجلياته في المضامين الكونية، مجال الإبداع الإلهي﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [1]، إذ أحكم سبحانه وتعالى خلق كل شيء؛ فكان وفق إرادته، وبالهيئة التي أوجدها عليها هو على أحسن ما يكون.

فهذا الإحكام والانسجام هو ما اصطُلِح[2] عليه المسلمون بالجمال الفطري، إذ هو جبلة الخلق الكوني وروحه وقانونه[3]، وهو ما تؤكده نظرة العلم الجديدة، التي تعترف بأن الجمال خاصة من خواص الطبيعة، لا مجرد أثر أو موقف للإنسان في الحكم عليها[4]، هذا الجمال الذي يتجلى في صور وتركيب عناصر الوجود، المُدرَك بالحواس في كل من اتساق أشكالها، نسب ألوانها وانسجام

---

(1) –سورة السجدة، الآية: 07.

(2) –عبد المنعم الحفني: موسوعة القرآن العظيم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2004م، ج2، ص1808.

–وانظر أيضا: معنى لفظ "الجمال" في القرآن الكريم، عبد الباري محمد داود: دراسات فلسفية وإسلامية في الآيات الكونية، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 1419هـ–1999م، ص125.

(3) –عماد الدين خليل: "رؤية جمالية في الكلمات لبديع الزمان النورسي"، المؤتمر العالمي حول تجديد الفكر الإسلامي، استانبول، 27–29 سبتمبر 1998م، شركة سوزلر، القاهرة، ص172.

(4) –روبرت م. أغروس، جورج ن. ستانسيو: العلم في منظوره الجديد، ترجمة: كمال خلايلي، عالم المعرفة، المجلس الوطني الثقافي للفنون والآداب، الكويت، جمادى الآخرة، 1409هـ–فيفري–مارس 1989م، ص45-51.

إيقاعاتها.

هـذا،وقـد أودع سبحانه وتعالى في الإنسان فطرة الانجذاب إلى كل ما هو جميل، أليس من أسمائه الحسنى "الجميل"،وهو من قال فيه نبيه ﷺ: «إن الله جميل يحبّ الجمال»[1]؛ فكانت تجليات هـذا الأخير في عناصر الوجود، إذ أنّ صانعه له من المحاسن والجمال ما يليق به في ذاته وفي أسمائه؛ فمـنه يقتـبس العـالَم الجمال، حيث بُني وفق أنوار جماله ﷻ، ونُقش في سطوره كالكتاب المتقن البديع[2]، معبرا عن روعة جمال الخالق ﷻ؛ لذلك كان هذا الإبداع الرحماني تجليا لكمالاته وجماله.

ونظرا للعلاقة المتبادلة بين القرآن الكريم والكون؛ فإننا نتناول الإبداع الإلهي في الآفاق انطلاقا من الآيات المقروءة وصولا إلى الآيات المشهودة، بأبعد آفاق المعطى الجمالي، المتجلّي في ذلك التناسق والـتوازن والتناظر في المعمار الكوني بآياته المجلوة، أو في الآيات المتلوة، التي تصف لنا جمالا مُتفردا وإبداعـية باهـرة، إذ نجد في عرضها لعناصر الوجود من القيم الجمالية ما يعجز الإنسان عن الرقي إليها، وعن وصفها.

على أن الوقوف على مظان هذا الجمال في كتابه تعالى المتلو والمجلو، لا يسع المقام هنا للإلمام بجمـيع مظاهره؛ لذلك سنقتصر على قسم منها، ويكون الحديث عن البعد الجمالي للآيات الكونية بعـيدا عـن جمال الأسلوبيات –المعنى والبيان– بل قصدنا النبض الجمالي للصور الكونية في تجلياتها المادية، رغم أن تجليهما نجده في الوحي الإلهي مترابطا.

هـذا الجمـال الـذي ندركه من الذرة التي لا تُرى بالعين المجردة وصولا إلى أكبر الأجرام السـماوية، إذ نجـد في هذا الكون من الإبداع الجمالي والتناغم والتآلف ما يجعل عناصره المختلفة خاضعة لنظام دقيق، مصداقا لقوله تعالى: ﴿...مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾[3]، وهي وحـدة تضفي عليه جمالا متميزا، قائما على التوازن، التجاذب، التناسب والانسجام، إضافة إلى ما

(1) –رواه مسـلم في كتاب الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيانه، صحيح مسلم بشرح النووي، ج1، ص366. –ورواه أحمد بن حنبل في مسنده، مج4، ص151.

(2) –بديع الزمان النورسي: الشعاعات، ترجمة: قاسم الصالحي، سوزلر للنشر، القاهرة، ط2، 1993م، ص92.

(3) –سورة الملك، الآية: 03.

تضــفيه حركــية عناصـــره وجريانها من جمال، بل عدّت مصدر المتعة الجمالية لأنها تعدّ بالحياة. ومصـــدر قـيمة وجودية لها دلالتها ووظيفتها في الوجود؛ دليل ذلك حركة الأرض وما يتبعها من تعاقب الليل والنهار، وتعاقب الفصول، هذه الحركة المحدثة لمظاهر جمالية لا حصر لها.

كما نجد في هذا الوجود أشكال هندسية، تُظهر الصور الجمالية كأنها لوحات فنية رائعة. بل نــرى عالمــا لا نهائيا من التكوينات –بالعين المجردة أو بالمجاهر– ذات الألوان المتداخلة؛ حيث لكل شكل توجد هندسة متمايزة ظاهرة أو كامنة فيه، ونُدرك ذلك بالغوص في الأشياء، والنفاذ من خلال جزئــياتها إلى ما فيها من أسرار التناسق الموجود فيها[2]، مثال ذلك النُدَف الثلجية التي نراها عبارة عــن قطــع شــكلها غير محدد، لكن تحتوي على تنوع في أنماطها، مستندة في مجملها إلى الشكل السداســي، إذ وصــلت إلى أَلْفَــي شكل، كل واحد منها ذو جمال فائق، مما جعلها مصدر إلهام يستوحي منه مصمموا المنسوجات والفنانون أفكارهم، من خلال الفهرس الذي وُضع لتلك النُدَف. والذي هو مرجع دائم للزخرفة وتصميم الجواهر والحلي[3].

كمــا كشف المجهر عن تلك الهندسة الخفية لتركيب الخلايا في الأوراق النباتية، بل وفي ورقة العشــب الواحدة، إذ توجد في قاعات العرض والمتاحف صور لأجزاء من النباتات، أخذت جمالها الفتان[4].

وبتأملــنا في المعمــار الكوني نجده كالقصر البديع؛ القمر فيه سلطان الليل، والشمس ملكة الــنهار، وكل منهما كالمصابيح، والنجوم كالشموع؛ فمنها ما هو أزرق إلى البياض، ومنها ما هو أبيض وأصفر إلى البياض، وأخرى صُفر وحُمر[5]، إذ تختلف درجة حرارتها باختلاف ألوانها، وذلك مصداقا لقوله تعالى: ﴿... وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[6]؛

[1] –عـبد الفـتاح قلعجي: "عالم الجمال الإسلامي بحث في المنطلقات"، الثقافة الإسلامية، تصدرها المستشارية الثقافية للجمهورية الإيرانية، دمشق، ع21، ربيع الأول–ربيع الثاني 1409هـ–1988م، ص113، 116.

[2] –مصطفى عبده: أثر العقيدة في منهج الفن الإسلامي، دار الإشراق، بيروت، ط1، 1410هـ–1990م، ص186.

[3] –روبرت م. أجروس، جورج ن. ستانسيو: العلم في منظوره الجديد، ص69-71.

[4] –روبرت م. أجروس، جورج ن. ستانسيو: المرجع نفسه، ص73.

[5] –نذير حمدان: الضوء واللون في القرآن الكريم، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 1422هـ–2002م، ص17.

[6] –سورة فصلت، الآية: 12.

فالسماء القريبة من عباده زيّنها ﷻ بكواكب مضيئة مضفية ذلك البعد الجمالي على عناصر الوجود. ومـن كمـال العناية الإلهية جمع عناصر الكون لأبعاد وظيفية متعددة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾[1]. إذ يقدم جل جلاله هذه الوظيفة الوجودية للكواكب بمسحة جمالية.

وما يشدّ انتباهنا أكثر تلك الأحداث الكونية، كموت النجوم مثلا، التي رغم هولها تكون في صـورة جماليـة رائعة، وهو ما تُبينه تلك الصورة التي عرضتها وكالات الفضاء خلال رصدها –في الواحـد والثلاثين جانفي 1990م– لانفجار نجم عملاق اسمه عين القط، في شكل وردة جورية، ذات أوراق حمراء قانية، محاطة بوريقات خضراء زاهية، وفي الوسط كأس أزرق اللون[2]، بل الأهم من ذلك أن القرآن الكريم يقدم لنا صورة فناء الكون بلون من ألوان الجمال الكوني، منها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾[3]، هذا بالنسبة لنهاية أعظم عناصر الكون السـماء الـتي يكون انشقاقها مشكلا صورة جمالية منها، فتكون وردة كالدهان في نهايتها، أي أنّ الخـالق جل جلاله يظهر لنا هول نهاية الوجود في مشهد بديع؛ فتكون تلك النهاية المأساوية حاملة لصورة جمالية، وما يكون في الحسبان أنّ فناء عناصر الوجود يكون وفق مشاهد جمالية يقل نظيرها، فـ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾[4]، الذي جاء خطابـه موجّها إلى هذا الإبداع في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا. وَجَعَـلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[5]، فهذه النجوم التي يراها الإنسان متوزعة في السـماء، لامعـة متوهجة أو معتمة خافتة، وقد لا يراها بعينه، إضافة إلى كونها مصدر ضياء، فإنها تموضعات جمالية في لوحة الكون البديع، تسبح في الفلك بحركة تضيف إلى ذلك الجمال بهاء وروعة بـنورها، هذا الأخير الذي هو مادة كل شيء ومنبع لكل حياة؛ لذلك فالشعور بالنور هو أصل كل

---

(1) –سورة الملك، الآية: 05.

(2) –محمـد راتب النابلسي: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة– آيات الله في الآفاق، دار المكتبي سوريا، ط1، 1425هـ–2004م، ص71-74.

–هارون يحي: خلق الكون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1424هـ–2003م، ص60-61.

(3) –سورة الرحمن، الآية: 37.

(4) –سورة الفرقان، الآية: 61.

(5) –سورة نوح، الآيتان: 15-16.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شعور بالجمال في النفس.

أمـا إذا ارتـدّ بصـرنا إلى العالم السفلي؛ فإننا نقف أمام إبداع جمالي لا يقل عما في العالم العلوي، الزمن فيه شريط يعلّق عليه الخالق في كل سنة عالما آخر متجددا يحمل صورا منتظمة، مختلفة الأشكال والألوان متغيرة بانتظام تام وحكمة كاملة؛ فيظهر سطح الأرض كأنه مائدة نعم[1] مصداقا بقولـه تعالى: ﴿... وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[2]، مزينـة بأنواع المخلوقات مع تميز كل منها، رغم تداخلها في تناسق ألوانها وأشكالها.

وإنك لترى جمالية الأمطار وهي تسقط على الأرض بنظام متناسق، وقعها جمال، وفي سيلانها على الأرض بهاء، وفي كل ذلك جمال متناسق مع ما يخرج من نبات متشابها ومختلفا، الذي يبلغ حدّ الـروعة الظاهرة إذا أثمر وينع، مشكلا لوحة طبيعية تملك حركة الحياة وجمالية الأشكال والأنواع؛ فكانت زينتها وزُخرفها صورة رائعة لجنة الله في الأرض.

مضـافا إلـيها مـا يبرز من مظاهر الجمال في عالم الحيوانات، وهو ما أكده الوحي الإلهي: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾[3]، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[4]، الأمر الذي ينفي أحادية البعد الوظيفي لعناصر الكون؛ فما يبدو ذو مـنفعة مادية فقط، نجد الحكمة الإلهية تقدمه بصورة جمالية رائعة، فيها ربط للتسخير المادي بالبعد الروحي.

هـذا وما يزيد كلا العالمين -السفلي والعلوي- بهاء وجمالا، ويعمّق إيمان المخلوق بترغيبه في عـبادة وعشق المعبود الخالق لهذا الجمال، تلك الألوان التي جاءت اللوحات الكونية زاخرة بها، حتى تشترك أكثر من حاسة في تقدير نِعم الله على عباده، ولتكسب عناصر الكون بعدا جماليا إلى جانب

---

(1) -بديع الزمان النورسي: الكلمات، ص61.

(2) -سورة الحج، الآية: 05.

(3) -سورة النحل، الآيتان: 05-06.

(4) -سورة النحل، الآية: 08.

قيمتها المادية، إذ يتخذ القرآن الكريم من هذه الألوان برونقها مدخلا رائعا للإيمان ورسوخه تصورا وسلوكا: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ. وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[1]؛ فالكون تآلفت فيه الألوان، وتعانقت في عناصره الأصباغ؛ فالسماوات والأرض بما فيهما من عوالم تعددت ألوانها، فكان الناس ألوان، والحيوان ألوان، والنبات ألوان، بل الدنيا وما عليها ومن فيها ألوان؛ فاللون يعيش ويتحرك مع كل شيء وفي كل شيء، وقد كان ذلك ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾[2]، إذ هو جمالات تسرّ الناظرين، كما أنه بهجة وزينة في كل الآيات الكونية، وبذلك كان اللون شعرا صامتا نظمته بلاغة الكون، بل كلامه ولغته المعبرة عن حقيقته، مما جعله من وسائل الفهم والتعبير الهامة؛ لما له من تأثير في النفس تطّلع إليه دائما، فانظر حولك ترى الكون مفعما بالألوان؛ في السماء والأرض، في النبات والحيوان، في الجبال والبحار، بل إنك لا تستطيع أن تتخيل الوجود بلون واحد؛ لأنه سيكون مصدر ملل للنفس[3].

والحقيقة أن تناول البعد الجمالي للآيات الكونية، والإلمام به في هذه الجزئية أمر مستحيل، نظرا لتعدد عناصر الكون وكثرتها، مع تنوع مظاهر الجمال فيها، إذ يتجلى في القوانين التي تنظمها، والنواميس التي تضبطها، وفي مناظرها الباهرة التي يمنح لها تكوينها، حركتها، أشكالها، إيقاعها وألوانها، زينة وروعة، لذلك نكتفي بما قدمناه.

لكن ما يُلاحظ أنّ البعد الجمالي لهذه الآيات، لا ينفصل عنها سواء في الكتاب المتلو أو المنظور؛ فكل مظهر من مظاهرها مرتبط بروعة الإبداع، تتلبسه القيم الجمالية بطريقة أو بأخرى؛ لذلك ندرك بتأملنا في عناصر الوجود، أننا ننتقل من مظهر جمالي إلى آخر ضمن سياقات جمالية تتجاوز العالم السفلي إلى العالم العلوي، وعالم الشهادة إلى عالم الغيب، والدنيا إلى الآخرة، كما تتجاوز الكون المقروء إلى المنظور.

---

(1) —سورة فاطر، الآيتان: 27-28.

(2) —سورة البقرة، الآية: 138.

(3) —نذير حمدان: الضوء واللون في القرآن الكريم، ص29.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

على أن هذا الجمال مرتبط بحقيقة التسخير، التي وضحها الوحي الإلهي كعلاقة تربط الإنسان بالكون، إذ يقدم تلك المنافع المادية بوجه جميل؛ لذلك كانت كل من المنفعة والجمال في الآيات الكونية على أشدّ الالتحام، الأمر الذي يفسر العلاقة الوطيدة بين المنظور العلمي للظاهرة الكونية وبين بعدها الجمالي؛ فإذا أخذنا ضوء الشمس كمثال لذلك، لا يمكن اعتباره مجرد ظاهرة فيزيائية فحسب؛ لأنّ معطاه الجمالي يفرض نفسه للاعتراف به، نظرا لتلك الألوان التي يحملها؛ لأن حقيقتها –الألوان– كما أنها موجات ضوئية، فإنّ الضوء أطياف لونية[1].

الأمر الذي يجعل الظواهر الكونية لها دلالات علمية، وجدانية وإيمانية؛ لذلك فالعالم لا يدرس عناصر الكون لأن فيها منفعة، بل لأنه يجد متعة في ذلك، ومصدر وجود المتعة في دراستها كونها جميلة؛ لهذا لو لم تكن الآيات الكونية تحمل ذلك الإبداع الجمالي لما كانت جديرة بأن تُعرف، مما جعل النظرة الجديدة للعلم تطرح الجمال معيارا في العلوم، بل ومن وسائل اكتشاف الحقيقة العلمية؛ لأنّ الكون –أو الطبيعة– فطري الجمال؛ لذلك عُدّ في الفيزياء وجوده في معادلات العالِم أهم من جعلها تنطبق على التجربة، هذه الأخيرة التي تكون مقنعة بفضل كمالها وجمالها؛ فالعالم الذي في غفلة عن هذا الإبداع في عناصر الوجود حظه من العلم ضئيل[2].

وهذا تشترك جميع الأجناس البشرية على اختلاف قدراتها الإدراكية في وعيها للبعد الجمالي لهذا الوجود الكوني، سواء كان إدراكا بسيطا لظاهر العناصر، أو معتَمِدا على التدبر والتأمل. على أنّ تذوق هذا الجمال لا يقف الاستمتاع به عند حدّ الحواس، بل يستأذن الدخول إلى رحاب الشعور والتفكير؛ لذلك جاء الخطاب الإلهي موجِّها الإنسان إلى ما يصلح معاشه ومعاده ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾[3]، فهذا الجمال هو من نعم الله على عباده؛ لذلك كان من الأبعاد الوظيفية للآيات الكونية، والأهم من ذلك إدراك ما للجمال الكوني من أبعاد إيمانية، وما يفضي إليه ذلك من سلوك قويم، يجمع بين الانتفاع المادي والروحي في مجال تحقيق الإنسان من للاستخلاف، وهو ما يؤكده قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ

---

[1] –نذير حمدان: الضوء واللون في القرآن الكريم، ص04.

[2] – روبرت م. أغروس، جورج ن. ستانسيو: العلم في منظوره الجديد، ص46، 51.

[3] –سورة الأعراف، الآية: 32.

أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1]، إذ أنّ الجمال الكوني لم يكن لزينة الحياة الدنيا فحسب، وإنما يمتد إلى الآخرة؛ لكونه من عوامل العمل الصالح جوهر الخلافة، فإذا ما أحسن الإنسان قراءة المشاهد الكونية، وسلك السلوك السوي، سيصل إلى إدراك البعد الإيماني لذلك الجمال الكوني[2].

هذا الجمال الذي لا يفسر إلا على أن مصدره واحد؛ لذلك فإن أهم منطلق لهذا الوعي الجمالي هو التوحيد، إذ التوازن والانسجام والتناسب لعناصر الكون يردّنا إلى الكلي المطلق الجمال، الموصل إلى إدراك تجلياته تعالى في الآفاق، ويكون ذلك وفق عملية توحيدية تؤكد وحدة الفكر، ووحدة الجمال المستمدة من وحدانيته جل جلاله؛ فذلك التعدد لعناصر الوجود مصدرها الواحد يتجلى جماله في خلقه؛ لذلك «من كمال التوحيد محبة الجمال والسعي إلى إدراكه، إذ هو مطلب توحيدي مرتبط بالعقيدة»[3].

وما يمكن قوله فيما يخص البعد الجمالي للآيات الكونية، أن القرآن الكريم يربط بين عناصر الكون البديعة لذاتها، وبين دلالتها على الحقائق الإيمانية؛ فكانت هذه الآيات تأكيدا على الإبداع الإلهي، المتجلى في عناصر الوجود.

كما أنّ الوحي الإلهي يعرض هذه الآيات وفق حسّ جمالي مرتبطة بأبعادها الوظيفية المتعددة، **وبهذا يكون الكون بعناصره المختلفة قد سُخّر للإنسان معرفيا ووجدانيا، وقد كان القرآن في عرضه لهذه الآيات متميزا.**

---

(1) سورة الكهف، الآية: 07.

(2) عبد المجيد النجار: قضايا البيئة من منظور إسلامي، مركز البحوث والدراسات، قطر، ط1، 1420هـ-1999م، ص230.

(3) عبد الفتاح قلعجي: "عالم الجمال الإسلامي بحث في المنطلقات"، ص111-112.

عبد الباري محمد داود: دراسات فلسفية وإسلامية في الآيات الكونية، ص118-119.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني: خصائص القرآن الكريم في عرض الآيات الكونية

لمعرفة أهمية الآيات الكونية في القرآن الكريم، والذي يكون من خلال أساليبه في إثبات حقائق الإيمان، حريّ بنا قبل ذلك الحديث عن طبيعة القرآن الكريم، إذ سنقتصر في ذلك على تعريف له احتوى أهم الخصائص والغايات التي من أجلها أُنزل على خاتم الأنبياء، والذي بناء عليه يكون تحديدنا لخصائصه في تناول الآيات الكونية.

فهو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات، والترجمان الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية، ومفسر العالم، الكشاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السماوات والأرض، كما أنه مفتاح لحقائق الشؤون المضمرة في سطور الحادثات، ولسان الغيب في عالم الشهادة، إضافة إلى كونه المرشد الهادي إلى ما خُلق الإنسان له؛ لذلك فهو كتاب شريعة، وكتاب حكمة، كما أنه كتاب ذكر وكتاب فكر، ومن ثمة فهو كتاب واحد لكن يحتوي بداخله كتب متنوعة[1].

والملاحظ على هذا التعريف أنه تجاوز الوصف الظاهري والتحديد النوعي، إلى الغوص لكشف حقيقة وجوهر القرآن الكريم ومقاصده؛ لذلك جاء مفصّلا،شاملا،ومناسبا لعظمة الوحي الإلهي، ارتكز على قاعدة أساسية مفادها أنّ الوجود وَحدة متكاملة، جاء الوحي مفسّرا له بعالميه –الغيب والشهادة–، مما جعل الشمول أبرز خصائصه المقاصدية، فلبى بذلك كل احتياجات الإنسان –خليفة الله في الأرض– مصداقا لقوله تعالى: ﴿ ... مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[2].

هذا وقد جاء القرآن الكريم ترجمة لكتاب الكائنات؛ لذلك إن كانت آيات هذا العالم المجلوة طلسم، فإن الوحي الإلهي رسالة خاصة موجهة إلى من لا يعي ألسنة عالم الشهادة، الذي لا يُفكّ إلا بترجمانه –القرآن الكريم– بما حواه من آيات كونية، وردت كعرض للآثار الإلهية العظيمة، الدالة بغاياتها ونظمها على القدرة الإلهية.

والمتصفح لآيات الوحي الإلهي المتلوة، يدرك صدق ذلك، إذ أنه لم يقتصر على جانب معين من أمور الحياة الدنيوية والأخروية، أو عالم الشهادة دون عالم الغيب، بل شمل كل الجوانب؛ فكان

---

[1] –بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، ص428.

[2] –سورة الأنعام، الآية: 38.

خطابه مؤسسا لبنيان الفكر الإنساني على الوحي المعصوم، متمثلا في كل من كتابيه المقروء والمنظور، وبذلك وفّر للإنسان حماية من الضلال في قضايا لا يقدر على الاستقلال بها والكشف عنها كمسائل الغيب، فكان القرآن الكريم ترجمة حقيقية للكون المنظور، ومن يحسن فهمه يستطيع رؤية عالم الشهادة رؤية إيمانية شاملة[1]، وقد أشار إلى ذلك عز وجل في قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ. قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [2].

لذلك كان ذلك الارتباط بين عالم الغيب وعالم الشهادة ضمن الآيات الكونية، التي تميز القرآن الكريم في تناولها بعدة خصائص منها:

أولا: تحديد المصطلحات

إن مسألة ضبط المصطلحات من أهم ما تُعنى به الدراسات العلمية، إذ تحديد الألفاظ الرئيسة في أي دراسة، هو اللبنة الأولى المعتمد عليها في الانطلاق، وذلك نظرا لأهميتها في البناء المعرفي.

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم في هذه المسألة؛ فإننا نجده يستخدم مصطلحات معرفية لها دلالاتها الخاصة أو محددة بالإطار الوارد فيه[3]، ومن تلك الألفاظ مصطلح "الآية الكونية"، التي هي محور دراستنا في هذا البحث، حيث مرّ معنا مفهومها، ومن بين ما وقفنا عليه أنّ المصطلح أخذ أوسع تعبير في القرآن الكريم؛ فشمل العالم المادي -العلوي والسفلي- في الآفاق، أو ما يُعرف بعالم الشهادة.

وإذا تأملنا حديث القرآن الكريم عن العناصر الكونية، نجده يعبر عنها بألفاظ دقيقة واضحة، تدركها العقول على اختلاف مستويات أصحابها، حيث يدرك الإنسان البسيط التفكير ما يتطابق مع الظاهر المحسوس الذي وقفت عنده مداركه، كما يدرك من هو على درجة من العلم -من الحديث نفسه-، بالإضافة إلى ما فهمه ذاك البسيط التفكير، ما يتطابق مع بعض تلك الخفايا العلمية

---

(1) -عبد العليم عبد الرحمن خضر: الإنسان في الكون بين القرآن والعلم، عالم المعرفة، السعودية (د.ط)، 1983م، ص135-136.

(2) -سورة العنكبوت، الآيتان: 19-20.

(3) -محمد السيد الجلنيد: تأملات حول منهج القرآن لتأسيس اليقين، ص9.

التي علمها، في حين يرى العالم المتخصص، بالإضافة إلى المعاني المدرّكة سابقا، دلالة واضحة على عمق علمي لا يدركه إلا أصحاب الاختصاص في العلوم الكونية.

على أنّ دلالة الصيغة القرآنية على هذه المستويات المختلفة، تأتي واضحة متسقة، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾[1]، هذه الآية الكونية المتلوة، دون شك أن المسلم في صدر الإسلام لما سمع هذا الكلام الرباني، أدرك أنه وصف لواقع محسوس مشاهد، وهي صفة الأرض ذات الامتداد المرئي لكل من هو سليم الجهاز البصري، فكانت هذه الحقيقة مجلوة أمامه في الآفاق.

أما العلماء المتخصصون، فقد أدركوا أن هذا الامتداد هو وصف لسائر أجزائها السطحية، حيث إن سرت مع امتدادها إلى أقصى الشرق أو الغرب، فلن تجد له أي حافة، وإن سرت معه إلى أقصى كل من الشمال أو الجنوب، وقفت على الأمر نفسه، مما يعني أن الأرض ممتدة في أنحاء مستمرة إلى أن يتكون لسطحها محيط دائري[2].

وهكذا بالنسبة لباقي المصطلحات التي تعبّر عن مختلف الآيات الكونية، فهي في مستوى إدراك الناس على اختلاف قدراتهم الفكرية، وعلى مرّ العصور، دون أن يحدث تعارض بين حظوظ هذه الفئات في فهم المعاني، إذ يمكن القول أنها دلالات صحيحة مضبوطة ومتدرجة من السطح إلى العمق.

ومن ثمّة ندرك أن لألفاظ القرآن الكريم المتعلقة بالعناصر الكونية، معاني ظاهرة وأخرى دقيقة، محددة بالإطار الواردةفيه، لا تُعرف إلا بالبحث والاستقصاء. لكن يشترك جميع الناس في فهم تلك المعاني الظاهرة، في حين يتفاوتون في إدراك الدلالات الدقيقة، على حسب غزارة علمهم ومستواهم الفكري؛ لذلك لا يصل إليها إلا من أوتي حظا وافرا من العلم بأسرار الموجودات الكونية.

فإذا كان الأمر كذلك، فما هي طريقة استجلاء المعاني الدقيقة لألفاظ الآيات الكونية في القرآن الكريم والأغراض المقصودة منها؟

---

[1] –سورة الذاريات، الآية: 48.

[2] –محمد سعيد رمضان البوطي: "ظاهرتان تبعثان على الدهشة في كتاب الله عز وجل"، ص366-367.

لتوضيح ذلك نأخذ مثالا، وهو مصطلح "النجوم" كعنصر من عالم الآفاق، إذ يقول ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[1]، وقال أيضا: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[2]، ويقول في موضع آخر: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ. النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾[3].

فمما تفيده هذه الآيات،أنّ النجم كوكب يظهر في الليل مضيئا كالعلامات الثابتة ليهتدي الناس بها لدى سيرهم في ظلمات البر والبحر، وهذا المعنى يدركه الناس على اختلافهم، كما أنها تحمل معاني دلائل القدرة والحكمة الإلهية، وما ينتفع به الناس في إيمانهم بالحق جل جلاله، إضافة إلى ذلك يتميز العالِم المتخصص –في علم الفلك– بفهم وإدراك عميق لمعانيها، وذلك بجمع الآيات التي ورد فيها الحديث عن "النجوم" وبحثها، مما يمكنه من الوقوف على معاني دقيقة في صفات النجوم، باعتبارها مصدر الضياء الأصلي في السماء، وضياء باقي الكواكب مستمد منها، الأمر الذي جعل الهداية حاصلة من ذاتها، كما أنها ثاقبة لأنها مُتقدة ومضيئة بذاتها[4]، ومن ثمة يكتمل عنده المعنى بإدراك خصائصها، على أنها أجرام نارية ملتهبة ومضيئة معا.

فإذا أردنا معرفة حقيقة عنصر من عناصر الآفاق، فلا بد من تتبع وروده في القرآن الكريم بأكمله، ذلك أنه يعطي لنا وصفا شاملا لها، تارة في صورة أصول وجوامع من العلم الصحيح، وغالبا بإشارات محددة، وهذه الإشارات مرتبطة ببعضها البعض تتكامل في ورودها، إذ في كل آية نوع من المعلومات الجديدة عن ذلك العنصر الكوني، وبتتبعنا له في جميع المواضع نحصل على معرفة شاملة وواضحة وأكثر دلالة.

ثانيا: تنوع البيان القرآني للآيات الكونية

إنّ من يتدبر سور القرآن الكريم ومقاصدها، يدرك إلى جانب غناه في المضمون ذلك النسج الفريد من خلال أسلوبه المتميز في عرض الآيات الكونية، إذ يقف العقل الإنساني عاجزا أمام رحابته

---

[1] –سورة الأنعام، الآية: 97.

[2] –سورة النحل، الآية: 16.

[3] –سورة الطارق، الآيات: 1-3.

[4] –أحمد حنفي: التفسير العلمي للآيات الكونية، ص38-41.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وعمقـــه، فهو بناء ذو هندسة ونسب فنية تتحدى القدرة المبدعة لدى البشر [1]. لكن رغم ذلك قد يـــبدو للـــبعض أنه كتاب ينقصه الترتيب، وخال من التنسيق، بل ويشكل من أوله إلى آخره شذور متـــناثرة وقطع متبعثرة[2]، وهذا ما يدفع الإنسان إلى الوقوف على أسراره بالتدبر، إذ هو ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[3]، للكشف عن نظمه المعجز.

فبالنســـبة للآيات الكونية في القرآن الكريم، نجدها موزّعة على أغلب سوره، حيث لم يختص بهـــا جزء دون الآخر، كما لم يقتصر ورودها على مكيه دون مدنيه، بل استغرقت أجزاؤه بأكملها، وذلـــك بـــناء على شمول الخطاب الإلهي لكافة أفراد البشر، فهو يحمل رسالة شاملة يريد أن يؤديها بأساليب متميزة، وبطرق مختلفة؛ لهذا جاءت تلك الآيات موزعة على سوره.

ومـــن ثمة فمن لم يتسنّ له الاطلاع على كله، واكتفى بجزء منه، تمكن من الوقوف على تلك الحقائق الكونية ومقاصدها الإيمانية [4]، إضافة إلى أنّ البشر ليسوا على مرتبة واحدة من حسن الفهم والتبصر بمعاني القرآن الكريم وإدراك أبعاده؛ لذلك كانت السورة الواحدة قرآنا قصيرا تحمل ما حملته غيرها من المقاصد.

وقـــد يبدو أنّ هناك تكرارا في ذكر الآيات الكونية في القرآن الكريم، لكن الحقيقة أنه تكرار لجزئـــيات الآيات لا كلياتها، بحيث لا نجد أي تطابق بين آيتين لفظا ومعنا ومقصدا، بل الغرض من ذلك هو تقر ير الحقائق الإيمانية.

لذلـــك نجـــد الخطاب الإلهي قد ساق حقائق الآفاق بأساليب مختلفة، إذ يفصل مرة ويجمل أخـــرى، يذكر الشيء مع قرينه ثم يفرده ليذكر حكمته المستقلة بوجوده ودلالته، ثم يعود إلى قرينه،

---

(1) ـمالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، دار الفكر، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ص238.

(2) ـأبو الأعلى المودودي: مبادئ أساسية لفهم القرآن الكريم، الدار السعودية، المملكة العربية السعودية، (د.ط)، 1984 ص10.

(3) ـسورة ص، الآية: 29.

(4) ـزياد خليل محمد الدغامين: "مقاصد القرآن الكريم في فكر النورسي"، المؤتمر العالمي الرابع لبديع الزمان النورسي-نحو فهـم عصري للقرآن الكريم رسائل النور نموذجا-، استانبول، 20-22 سبتمبر 1998م، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، ص478.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فيذكره بحكمة استقلاله في القيام بحق الحجة النيرة والبرهان المستقل[1].

فنجده في عرضه للحقائق الكونية يوردها إجمالا بغرض التنبيه إلى النظر والتأمل في الخلق والإبداع، منها قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[2]، وقوله جل جلاله: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾[3]، وغيرها من الآيات التي ترشد إلى حقيقة الخلق والتقدير إجمالا دون تفصيل.

كما يقسم تلك النظرة الشاملة، ويفصِّل ذلك الإجمال في قوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[4]، فيأتي في عرضه على تعديد عناصر الآفاق دون تفصيلها، كما في قوله: ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[5]، وفي قوله أيضا: ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[6]، إذ يفصل العالم العلوي عن العالم السفلي، دون ذكر لعناصر كل منهما بغرض جعلها مجالا للتأمل والتدبر.

في حين نجد الخطاب القرآني يفصل في ذكر العناصر الكونية مع التخصص في مجال واحد، إذ تشكل وحدة موضوعية، فيعدد ذكر حقائق الآفاق منفردة بعناصرها، وذلك تنبيها لأهل الاختصاص من العلماء لينقلهم من عالم إلى آخر، لإدراك ما أودع الله فيها من آيات أجلّ وأعظم مما في أنفسهم -التي قد تُخفى عنهم-، مع تيسير السبل للعامة في النظر والتأمل المحرك للوجدان، والموقظ لإحساسهم؛ لتتوثق بذلك عرى الإيمان في قلوبهم، مصداقا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ

(1) –محمد الصادق عرجون: نحو منهج لتفسير القرآن الكريم، الدار السعودية، جدة، ط3، 1979م، ص52-53.

(2) – سورة العلق، الآية: 01.

(3) –سورة الأعراف، الآية: 185.

(4) –سورة فصلت، الآية: 53.

(5) –سورة البقرة، الآية: 117.

(6) –سورة يونس، الآية: 101.

وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]، وقوله ﷻ: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا. وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا. وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا. وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا. وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا. وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾[2]، وغيرها من آيات الله التي جاء فيها تفصيل لعناصر الآفاق، والمقام لا يتسع لاستيعابها؛ لكثرتها واختلاف سياقاتها، وهي مستغرقة لجل سور القرآن الكريم؛ فقلّما تخلو سورة من لفتة إلى حقيقة من الحقائق الكونية.

أما عن ترتيب[3]، وأهمية الحقائق الكونية في القرآن الكريم، فإننا نجدها أحيانا مرتبة من العالم العلوي إلى السفلي، أو العكس، كما يرد هذا التقدم حسب الخطاب والحاجة إلى ذلك، نأخذ مثالا عن ذلك قوله تعالى: ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا. وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾[4]، قال الرازي عن ترتيب هذه العناصر: «وإنما قدّم الحب لأنه الأصل في الغذاء، وثنى بالنبات لاحتياج سائر الحيوانات إليه، وأخّر الجنات في الذكر لأن الحاجة إلى الفواكه ليست ضرورية»[5]، ومن ثمة فالترتيب يختلف من موضع لآخر.

مع الإشارة إلى أن القرآن في عرضه للآيات الكونية، لا يعرضها منفصلة، بل تكون دائما مصحوبة بتنبيه سابق، أو بتعقيب لاحق، ومن ثمة تقدم للإنسان تبيانا معجزا لا يقارن بسواه؛ لذلك ورد البيان القرآني بصور متعددة، تشمل كافة الناس على اختلاف مداركهم؛ للاهتداء إلى الطريق المستقيم، فنجدها إما أنها مسبوقة بصيغة الأمر بالنظر نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[6].

أو بما يفيد الحث على النظر والتدبر في الآفاق، كالاستفهام بأنواعه: الانكاري في قوله تعالى:

---

(1) –سورة البقرة، الآية: 164.

(2) –سورة الشمس، الآيات: 01-06.

(3) –للوقوف على المزيد من المعلومات، راجع: –محمود بن عمر الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407هـ–1987م، ج4، ص247.

–الرازي: التفسير الكبير، ج31، ص158.

(4) –سورة النبأ، الآيتان: 15-16.

(5) –الرازي: المصدر السابق، ج31، ص9.

(6) –سورة العنكبوت، الآية: 20.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [1]، والتقرير في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ [2].

كما يأتي متبوعا بالنتائج التي تترتب على النظر، من تفكر وتدبر واعتبار، منها قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾[3].

كذلك نجد الخطاب الإلهي يعتمد في دعوته إلى النظر في الحقائق الكونية؛ ليتخذ منها حججا للاستدلال على حقائق الإيمان، على جعلها موضوع قسم ويمين؛ فإضافة إلى ما ورد في ثنايا السور نجد أن تلك التي تحمل أسماء عناصر الآفاق، افتتحت بالقسم، كالفجر، الضحى، الليل، الشمس، القمر، النجم وغيرها من السور، وهي لفتات قرآنية لإيقاظ العقول للتدبر والتأمل في هذه الآيات المحسوسة؛ لإدراك مقاصدها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[4].

ويأتي أيضا مسبوقا بالوسيلة التي هي النظر، ومتبوعا بالغاية المتوخاة من النظر في آن واحد، أي أنه يجمع بين الوسيلة والغاية، مثاله قوله تعالى: ﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [5].

إضافة إلى ما نجده من عرض تقريري للآيات الكونية، بمثابة وصف للقدرة الإلهية، وذلك بالاعتماد على المقارنة والمقابلة، إذ يعمد الخطاب القرآني إلى الأضداد تارة نحو قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ. وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ. وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ. وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا

[1] –سورة الإسراء، الآية: 99.

[2] –سورة الرعد، الآية: 16.

[3] –سورة الأعراف، الآية: 185.

[4] –سورة الواقعة، الآيتان: 75-76.

[5] –سورة الروم، الآية: 50.

الْأَمْوَاتُ﴾ [1].

وأحـيانا أخرى يوظف ما هو مختلف في نفسه من غير تضاد، وإنما اختلاف تنوع مثل قوله تعـالى: ﴿ وَفِـي الْـأَرْضِ قِطَـعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِـنْوَانٍ يُسْـقَى بِمَـاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2].

كمـا يعمـد إلى ضرب الأمثال لتسهيل الفهم، وتوضيح الأمور التي تبدو غامضة، مثل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[3]. و﴿ أَلَـمْ تَـرَ كَـيْفَ ضَـرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ. تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [4]، وقولـه أيضا: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [5].

ولا شك أن هذه البيانات المختلفة، والنداءات المعجزة، الغرض منها واحد، وهو الكشف عن خصـائص الحقـائق الكونـية بالتدبر والتأمل فيها، وفي آثارها ومنافعها؛ لاستخلاص العبرة منها والوقـوف على مقاصدها، إذ أنّ لطريقة العرض هذه أثر كبير في إثارة الانتباه، واستقطاب الاهتمام وتوجـيه العقول؛ إلى جانب إيقاظ أصحاب الفطرة الغافلة، إذ هذا التنوع في الأساليب البيانية من شأنه أن يجد فيه البشر على اختلاف وتفاوت مداركهم ما يلفتهم للتدبر في دلائل الحقائق الإيمانية.

[1] ـسورة فاطر، الآيات: 19-22.

[2] ـسورة الرعد، الآية: 04.

[3] ـسورة هود، الآية: 24.

[5] ـسورة الكهف، الآية: 32.

[4] ـسورة إبراهيم، الآيتان:24-25.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثالثا: شمولية الخطاب القرآني بالآيات الكونية

إن أهم ما يتميز به المنهج القرآني، تفرده بتلك المرونة الحركية[1]، الملائمة لأحوال الناس على اختلاف مستوياتهم وفئاتهم، الأمر الذي جعله صالح لكل زمان ومكان.

وإذا أردنا أن نقف على الشمولية في الخطاب القرآني بالآيات الكونية، فإننا نجد هذه الميزة تتجلى في جوانب عديدة، حيث أنه يخاطب كل طبقة من طبقات البشر، في كل عصر من العصور، وكأنه متوجه توجها خاصا إلى تلك الطبقة بالذات. ولما كان القرآن الكريم نزل داعيا كافة البشرية إلى الإيمان الذي هو أسمى القضايا، وإلى الأحكام الشرعية التي هي أهم المعارف وأكثرها تنوعا، فمن الألزم أن يكون ملائما لمختلف الفئات على تفاوت مداركها، وبما أنّ الدرس واحد فلابد من وجود طبقات متعددة من الفهم له[2]، إذ كل فئة تأخذ حظها من الإدراك للمشهد الكوني حسب قدراتها.

والمستقرئ للآيات الكونية في القرآن الكريم يدرك حقيقة ذلك، إذ لم يقف على درجة واحدة من الناس، بل خاطبهم بها على اختلافهم، وذلك من خلال توجيهه وتنبيهه لملكات الإنسان كافة؛ فكانت الآفاق كتاب الحق المفتوح الذي يقرأ بكل لغة، ويدرك بأي وسيلة، إذ يستطيع أن يقرأه ويفهمه الشخص العادي والمتخصص، العالم والجاهل، كل يفهمه بقدرة إدراكه واستعداده، فيقف فيه على الحق كل بطريقته الخاصة مصداقا لقوله تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[3]، مع أن هذه التبصرة قد تُطمس[4]، وهو ما يفسر تلك القطيعة بين إدراك حقائق الآيات الكونية وبين مقاصدها، فتقطع تلك الوشيجة بين القلب والكون الناطق بالحق.

لذلك شمل الخطاب الإلهي في توجيهه لكل ملكات الإنسان من حواس وعقل وفطرة –مجتمعة ومتفرقة–، إذ الناس يختلفون في وسائل إدراك الحق، الأمر الذي يفسر عدم اقتصار القرآن الكريم على

---

(1) –صالح نعمان: منهجية البحث في علم العقيدة في ضوء التطور العلمي المعاصر، رسالة دكتوراه دولة في العقيدة، كلية أصول الدين والحضارة والشريعة الإسلامية، قسم العقيدة ومقارنة الأديان، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2003-2004م، ص76.

(2) –بديع الزمان النورسي: الكلمات، ص274.

(3) –سورة ق، الآية: 8.

(4) –راجع: سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، (د.ط)، 1978م، ج6، ص3360.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مخاطبة جانب دون آخر، بل شمل كل الوسائل الموصلة إلى المعرفة، ويتجلى ذلك في العديد من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [1]. وقال أيضا: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [2].

كما تمثّل الشمول في الخطاب القرآني في دلالة الآيات الكونية على المقاصد الإيمانية دون استثناء، فكانت دليلا على وجوده تعالى ووحدانيته، وما إلى ذلك من حقيقة كل من البعث، صدق النبوة، العدل الإلهي وغيرها، وبذلك ربط بين عالم الغيب وعالم الشهادة، وبين الكتاب المقروء والكتاب المنظور.

ومن خلال هذا الشمول كشف حجج الخصوم وأبطلها، والتي تعلقت بمختلف حقائق الإيمان، وذلك بالاعتماد على الآيات الكونية، من ذلك حجة الإيمان بالحس والمشاهدة، والتي ردّ عنها الخطاب الإلهي بقوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا. ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا. وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا. وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا. لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا. وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [3].

ويتجلى شمول القرآن الكريم لمختلف العناصر الكونية، فكما وجهنا إلى تفكر وتدبر الآيات في العالم العلوي، كذلك وجهنا إلى النظر في آيات العالم السفلي، منه قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ. وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [4]، فكانت الآفاق بعالميها صنوان في منهج القرآن الكريم للوصول إلى اليقين مصداقا لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

---

(1) ـسورة الأحقاف، الآية: 26.

(2) ـسورة الإسراء، الآية: 36.

(3) ـسورة الفرقان، الآيات: 45-50.

(4) ـسورة الذاريات، الآيتان: 20-21.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [1]، فتميز بذلك خطابه بالآيات الكونية في أساسه بالشمولية.

إضـافة إلى ذلـك نجد من خلال ما تضمنته الآيات الكونية، شمول القرآن الكريم وإحاطته بالماضي والحاضر والمستقبل، إذ خاطب بها من عاصر نزوله وتحداهم به، ويبقى إعجازه قائما إلى يوم الدين، مستوعبا في كل زمان القضايا المستجدة. ومن ثمة فإنه كتاب المبادئ والكليات وليس كتاب التفاصيل والجزئيات، وهي سمة مواضيع الآيات الكونية، ففي عرضه لحقائقها صاغها في صور تلائم كل عصر، من زمن النبوة المحمدية إلى يومنا هذا، وسيظل كذلك.

رابعا: الربط بين الآيات الكونية ومقاصد القرآن الكريم

تعـدّ مقاصـد القرآن الكريم نقطة جوهرية تشد إليها الإنسان وهو يتلو آي الذكر الحكيم، حيث أجمل الخطاب الإلهي ذكرها -تقريبا- في كل سورة من سوره؛ لذلك لا تخلو سورة من مقصد أو أكثر، فكان ما عداها وسائل موصلة إليها.

والأهم في بناء يقين المسلم هو ما يتضمنه النص القرآني من دلالة على الحقائق الإيمانية، بلفظه ومعـناه، ومـا يرشدنا إليه من أدلة يقينية، إذ ما من حقيقة إيمانية ساقها الخطاب الإلهي، إلا وقرنها بدليل صدقها وبرهان يقينها القطعي في دلالته [2].

لذلـك كان اقتران الآيات الكونية بتلك المقاصد من خصائص القرآن الكريم، فجاء عرضه للآفـاق بدقة متناهية، وهو في إشارته إلى تلك الحقائق المشهودة لا يعرضها لذاتها؛ لأنه ليس كتاب عـلم ما، أو موسوعة علمية، وإن وردت فيه رموز وإشارات لذلك، فالغرض منها تعرُّف الإنسان عـلى خالقه من خلال التدبر والتأمل فيها، وما يترتب عن ذلك من إدراك للحقائق الإيمانية، إضافة إلى إدراكه لمغزى رسالته في هذا الوجود.

ومن ثمة كانت الآيات الكونية دلائل موصلة إلى الحقائق الإيمانية، الأمر الذي يفسر لنا ما جاء مـن ربط بينهما في الوحي الإلهي، حيث لا يكاد يخلو مقصد قرآني من ذكر حقيقة كونية تسبقه أو تلـيه مباشـرة، دليله -على سبيل المثال لا الحصر- قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ

---

[1] -سورة الأعراف، الآية: 185.

[2] -محمد السيد الجلنيد: تأملات حول منهج القرآن في تأسيس اليقين، ص8.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ. فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [1]، فجاءت تلك الآيات المشهودة المتمثلة في تكوّن السحاب، بداية من إرسال الرياح التي تثير سحابا من الأرض، فيبسط في السماء ويمدّ على أية حالة أرادها له الله تعالى، ثم يتحول ذلك السحاب الواسع إلى نوع آخر وهو الثخين، إلى أن يترل مطرا في شكل نقاط صغيرة متفرقة لكي لا تُفسد ما تصيبه [2]، وكل هذا دليل على القدرة الإلهية التي لا ينكرها من تدبر هذه الحقائق المحسوسة إلا الجاحد، ثم أُتبعت بتوجيه إلى آية أخرى في الأرض، وهي إحياء الأرض بعد موتها كدليل على القدرة الإلهية، وتأكيدا لحقيقة البعث. فنلاحظ أن الآيات الكونية في هذا المثال سُبقت بمقصد قرآني في قوله: ﴿الله الذي يرسل... ﴾، ثم سيقت تلك الدلائل المحسوسة لتليها حقيقة إيمانية أخرى هي القدرة الإلهية على كل شيء، وفي مقدمتها البعث والنشور.

أما عن صلة دليل الآفاق بحقيقة القدر فتتجلى في قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [3]، فهو الذي بيده تقدير الأشياء، ويكفي الإنسان أن يتأمل الأقدار الواقعة عليه بغير إرادة منه، فإنها دون شك طريق إلى شهود المشيئة الإلهية المهيمنة والحاكمة في هذا الوجود [4]، فتلك الأقدار هي آيات للناس يريها الله سبحانه وتعالى في الآفاق، ليبين أن ما توعّد به حق، وأنّ مشيئته محيطة بالجميع، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[5].

ومن ثمة –وكنتيجة لهذا الربط– إما أن تكون معرفة الآفاق طريقا موصلا إلى الحق، أو يكون الإيمان طريق إلى معرفة تلك الآيات المشهودة، حيث أن الكتابين المقروء والمنظور صورتان لحقيقة واحدة، وكلاهما من عنده جل جلاله؛ لذلك فالآيات الكونية والحقائق الإيمانية مرتبطة ببعضها

---

(1) –سورة الروم، الآيات: 48-50.

(2) –عبد الرحمن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص618.

(3) –سورة الحديد، الآية: 22.

(4) –محمد عز الدين توفيق: دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث، ص411-413.

(5) –سورة يس، الآية: 82.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كالمقدمات بالنسبة للنتائج، فمن أيّهما انطلق طالب اليقين وصل إلى الحق، إذ أن القرآن الكريم يعرض الآيات المجلوة بدقة كبيرة، كما أنّ العالم المشهود بآياته المتعددة يفسر لنا الوحي الإلهي بوضوح، بل ويؤكد حقائقه؛ لذلك كانت الآيات الكونية دلائل يقينية على الحقائق الإيمانية.

هذا وما يبين لنا هذا الاقتران والتجاوب بينهما، أن الآيات الكونية قد لا تقتصر دلالتها على مقصد واحد، بل تكون أحيانا آية واحدة دليل على العديد منها، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [1]، فهي تؤكد أنّ خالق هذا الوجود هو الله سبحانه وتعالى، كما تؤكد قدرته على إحياء الموتى.

كذلك نجد الأمر نفسه في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [2]، وغيرها من الآيات التي كانت دليلا على أكثر من مقصد قرآني، وحقيقة إيمانية.

والملاحظ أن هذا الربط يؤكد أهمية الآيات الكونية، إذ هي حاضرة في إثبات الحقائق الإيمانية لفظا أو معنا، لفظا كما رأينا في الآية السابقة ذكر عناصر الآفاق، من سماء وأرض وماء وغيرها، كما يأتي ذكرها بالمعنى أو بالوصف، مثل قوله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا. وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا. وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ [3].

لذلك يمكن القول أن القرآن الكريم له منهجية في غاية الدقة والوضوح، للدلالة على ما يريد تأكيده من خلال الربط بين الآيات الكونية والحقائق الإيمانية، هاديا إلى الله جل جلاله، المقصد الأعظم الذي جاء الوحي لإثباته، وما يستتبعه من مقاصد، والتي لا تقل أهمية الإيمان بها في حياة الإنسان عن الإيمان به تعالى؛ فكان بذلك الربط بين الحقائق الإيمانية والآيات الكونية، رابطا لعالم الشهادة وعالم الغيب، مما أدى إلى اقتران المسائل الإيمانية بأدلتها، كخاصية للقرآن في تناول الآيات الكونية.

---

(1) –سورة فصلت، الآية: 39.

(2) –سورة الشورى، الآية: 29.

(3) –سورة النبأ، الآيات: 12-14.

المبحث الثالث: الآيات الكونية وأساليب إثبات الحقائق الإيمانية

لقد اعتنى القرآن الكريم بالدعوة إلى النظر في الآفاق، فكانت المجال الذي خاطب به الإنسان للاستفادة منها بتدبرها؛ لذلك نتطرق إلى مسالك إثبات الحقائق الإيمانية، ومدى توظيفها للآيات الكونية لتحقيق المقاصد القرآنية، إذ من خلالها -الأساليب- تتجلى لنا مدى أهمية هذه الآيات، التي مثلت جزء كبيرا من الخطاب القرآني.

المطلب الأول: مخاطبة الوجدان

من طرق معرفة المقاصد القرآنية نجد المسلك الوجداني المخاطب للفطرة الإنسانية، فما من إنسان إلا ويطرح على نفسه الأسئلة الفطرية ليعرف مبتدأه ومنتهاه، والغاية من وجوده، وقبل ذلك مَن سلطان هذا الوجود المسيّر بأمره؟

لقد فصّل القرآن الكريم في الإجابة عن هذه الأسئلة في مقاصده، وأثبتها في تلك الحقائق الإيمانية بما لا مزيد عليه، فكان خطابه تعالى لفطرة الإنسان التي فطره عليها من أساليب المنهج القرآني في تبليغ مقاصده وإثباتها، والآيات الكونية الأساس الذي اعتمد عليه في ذلك، حيث يعُزّ على الإنسان الالتفات إلى حقيقتها لسبب من الأسباب، بالرغم من أنّ الله قد «خلقه على فطرة منسجمة مع طبيعة الكون العام، فلو تُركت على سجيتها من غير تشويش لاستقامت على طريق الحق»[(1)]، الذي هو معرفته سبحانه وتعالى.

وبما أنّ هذه الفطرة عرضة للانحراف والغفلة عن تلك الحقائق، جاء تنبيه الحق ﷻ لها وتوجيهها، وذلك نظرا لأهميتها، إذ يعدّ تحقيقها غاية وجود الإنسان المتمثلة في توحيده وعبوديته تعالى، مصداقا لقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[(2)]، ولا تكون العبادة إلا بعد معرفته تعالى، «فالإنسان تحصل له الإنسانية بقدر ما تحصل له من العبادة التي لأجلها خُلق، فمن قام بالعبادة حق القيام فقد استكمل الإنسانية، ومن رفضها فقد انسلخ من الإنسانية، فصار حيوانا ودون

---

(1) -طه الدسوقي: عقيدتنا وصلتها بالكون والإنسان والحياة، دار الهدى للطباعة، (د.م)، (د.ط)، 1405هـ-1984م، ص114.

(2) -سورة الذاريات، الآية: 56.

الحيوان»[1].

ومــن ثمــة فتحقيق الإنسانية مرتبط بالجهد المبذول من طرف الإنسان لتحصيل العبادة غاية وجوده، فمتى كانت عبادته لله على أكمل وجه، كان مستكملا لها، وبقدر إغفاله لواجبه الوجودي بقدر ما يزداد ابتعادا عن تحقيقها، فيكون بذلك تحقيق الفطرة متوقف على قدرة الإنسان ورغبته في ذلك، واعتمادا على مدى توظيفه لما زُوّد به من نعم -الحواس والعقل- في التأمل والتدبر في ملكوته تعـالى؛ لإزالة ما لحق بها من الران الحاجب عنها الحقيقة، باعتبار أن مصدر انحرافها هو الضلال الناتج عن الجهل، الذي مصدره عدم التأمل والنظر والتدبر السليم.

ولما كانت الفطرة هي المسؤولة عن مدى تحقيق الإنسان للغاية من وجوده، وما سيكون عليه حالــه في الآخرة، جاء تنبيهها إلى النظر في آياته تعالى في الآفاق، ذلك لتثبيت السليمة منها، وتذكير الغافلة وتصحيح تلك المنحرفة.

هـــذا وقـــد جاء الخطاب القرآني للفطرة بالآيات الكونية اعتمادا على التذكير لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[2]، وقوله أيضا: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[3]، فورد التذكير بأساليب مختلفة ومسالك متنوعة، تمثلت في:

-الــتذكير بـــالدعوة إلى النظر في خلق الله للآفاق: والغرض منه لفت انتباه الإنسان إلى خالقه وخالق ما حوله من موجودات، ومما جاء في هذا الصدد قوله تعالى: **﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾**[4]، وقوله أيضا: **﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾**[5]، كما قال سبحانه: **﴿أَفَلَا**

---

(1) -الراغب الأصفهاني: تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، تحقيق: عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1408هـ-1988م، ص150.

(2) -سورة القمر، الآية: 22.

(3) -سورة القمر، الآية: 15.

(4) -سورة يونس، الآية: 03.

(5) -سورة النحل، الآية: 13.

يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ. فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [1]، وورود في موضع آخر قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ. وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ . وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [2].

والملاحظ أن هذه الآيات المتعلقة بالآفاق، أول ما تذكِّر به الفطرة هو معرفة الله جل جلاله وتوحيده انطلاقا من التأمل في حقائق مشهودة لا مراء فيها، ذلك أنّ معرفة الحق متأصّلة في الإنسان، لكن يحتاج إلى تنبيه للفطرة لتكون مهيأة لقبول التفصيلات.

وبما أن أدوات التلقي زُوّد بها الإنسان –السمع، البصر، الفؤاد– فإنّ الآيات جاءت بعرض لتلك التفصيلات، من خلق السماوات والأرض وغيرها من الآيات المشهودة، مع التنبيه المستمر بأنها فروع لذاك الأصل المركوز في الفطرة، وبذلك تجد هذه الأخيرة نفسها منقادة لما ذُكّرت به أكثر مما هي منقادة لما يخالفه.

–**التذكير بالاستفهام**: يختلف موقف الفطرة من التذكير؛ فتكون السليمة متيقظة مستجيبة للذكر، أما المنحرفة فيكون لها موقف الغافل اللاهي؛ لذلك نوّع الخطاب القرآني في أسلوب التذكير بالآيات الكونية، وأكثر من ذاك المبني على الاستفهام، بهدف زعزعة الفطرة الغافلة ليُحدث لها استجابة لتلقي الجواب[3].

ويُبنى أسلوب التذكير بالاستفهام على توجيه الأسئلة للمخاطبين؛ لإثارة انتباههم، واستقطاب اهتمامهم، ذلك للتركيز بغية الفهم، فتستيقظ الفطرة لتصغي وتتفكر، وتتهيأ النفس لسماع جواب الاستفهام، مما يؤدي إلى الإقرار والالتزام به.

على أن الآيات الكونية الرابطة بين الكتابين المقروء والمنظور، هي مضمونه والسبيل المعتمد في ذلك، ومنها ما جاء في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ

(1) –سورة الغاشية، الآيات: 17-21

(2) –سورة الذاريات، الآيات: 47-49

(3) –محمد عز الدين توفيق: دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث، ص26-27.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[1]، وفي قوله أيضا: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2]. كما جاء في قوله جل جلاله: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ. أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[3].

فالآية الأولى الخطاب فيها موجه لمن يعترف بموجب فطرته بوجود رب رازق، خالق،ولكن غافل عن عبادته؛ لذلك كان تذكيره بالاستفهام عن أمور مشهودة من الآفاق، والتي تدل على عظمة موجدها، الموجبة لعبادته.

وفي الآية الثانية جاء التذكير بربوبيته تعالى، وما تستلزمه من صفات وتنبيه للمنحرفين عن فطرهم، باتخاذهم الشفعاء والشركاء وسائط بينهم وبين الله؛ لتكون العبادة خالصة له عز وجل.

كما جاءت الآيات الأخيرة تذكيرا للمنحرفين عن فطرة التوحيد، وذلك بلفت انتباههم إلى آيات في الآفاق الدالة على عظمة خالقها وربوبيته، بعدها وُجِّهَ لهم سؤال مزدوج، الغرض منه إيقاضهم من غفلتهم.

فكان السؤال الأول عمن هو أحق بالربوبية في صيغة الاستفهام الاستنكاري عن تلك المساواة، أي أنه لا يستوي من يخلق ومن لا يخلق، فالله الخالق أولى بالعبادة مما يشركون، في حين كان السؤال الثاني استفهام إنكاري على من أعرض عن التذكر، فجاء تذكيرهم مرة أخرى للإقلاع عن الشرك، وإفراده سبحانه بالعبادة، فهو المستحق لذلك لا غيره[4].

والملاحظ أن تلك الأسئلة الاستنكارية الهدف منها شدّ انتباه الغافلين لفهم ما تحمله، لأن أجوبتها يعرفونها بحكم فطرهم، لكن انحرفوا عنها غافلين إياها. وجاء ربطها بآياته تعالى في الآفاق، ذلك لأنها حقائق مشهودة أمام أعينهم.

---

(1) –سورة يونس، الآية: 31.

(2) –سورة يونس، الآية: 18.

(3) –سورة النحل، الآيات: 15-17.

(4) –محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج14، ص120-122.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-ضرب الأمثال: والذي يُعدّ من بين الأساليب المعتمَدَة في مخاطبة الوجدان من خلال الآيات الكونـية، إذ من شأن هذه الأمثال المساعدة على فهم ما هو مجرد من المعاني، التي قد يصعب فهمها، وبذلك تكون سبيلا إلى تذكير أصحاب الفطرة الغافلة، وإرشاد المنحرفة.

وقـد مثلت آياته تعالى في الآفاق مضمون تلك الأمثال، منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ. تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾[1].

وهو تمثيل لشيء معنوي -الكلمة الطيبة والخبيثة- بشيء محسوس -الشجرة الطيبة والخبيثة-، وذلـك للتفريق بـين التوحيد والشرك، ومضمون هذا المثل هو آياته تعالى في الآفاق، جاء بصيغة الاستفهام، فكـان وصف التوحيد ومقتضياته بالكلمة الطيبة، إذ شُبّهت بالشجرة الطيبة، في حين وُصـف الشرك بالكلمة الخبيثة وشُبّهت بالشجرة الخبيثة؛ لما تدلّ عليه من الصفات المخالفة للإيمان الصحيح[2]، فيكون بذلك طمس الفطرة السليمة ناتج عن اضطراب في إيمان الشخص، الأمر المؤدي إلى خلل في التفكير.

وإذا كـان ضـرب الأمثال من الوسائل الوجدانية، الشديدة التأثير على النفس البشرية، فإنّ اعـتمادها في الخطـاب على الآيات الكونية زاد من ذلك الوقع في تذكير أصحاب الفطرة السليمة وتثبيـتها، مـع تنبيه وإيقاظ الغافلة، وإصلاح المنحرفة منها؛ ذلك أنه جل جلاله خلق الإنسان على فطرة منسجمة مع طبيعة الكون، فكان أفضل طريق لمخاطبتها هو الانطلاق من تلك الحقائق المبثوثة في الآفاق.

وبذلك كان المسلك الوجداني طريق القرآن في مخاطبة الفطرة الإنسانية، إذ ينفذ إلى القلوب، ويسـتحوذ على النفوس، مما يؤدي إلى تحريك المشاعر وإيقاظ الضمائر، فتستجيب العواطف الخيرة وبواعث الرغبة في الحق[3]، وكانت آيات الآفاق مجال التذكير بأساليبه المختلفة.

---

(1) -سورة إبراهيم، الآيات: 24-26.

(2) -محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج13، ص224-225.

(3) -صالح نعمان: منهج البحث في علم العقيدة في ضوء التطور العلمي المعاصر، ص83، 92.

ومن ثمة مثلت الآيات الكونية الحقائق التي اعتمد عليها منهج القرآن الكريم في مخاطبة الفطرة الإنسانية، وتوجيهها إلى تلك الحقائق الإيمانية، فماذا عن مخاطبته للحواس؟

المطلب الثاني: مخاطبة الحواس

إذا كان القرآن الكريم قد ركز في أساليب إثباته للحقائق الإيمانية على مخاطبة الفطرة -كونها عرضة للانحراف-، لضرورتها في بناء معارف الإنسان، فإنّ مخاطبة الحواس لا يقل أهمية في الخطاب الإلهي، إذ أنّ الأساس الطبيعي والعام والدائم للمعرفة المطروحة في القرآن الكريم، هو عبارة عما يصل إلينا عن طريق الحواس، بوصفه نقطة الأساس والبداية، بل حتى الأمور التي نعجز عن الاطلاع عليها مباشرة -عن طريق الحواس- يجب أن ندركها ونستنتجها مما تقدمه لنا من معلومات[1].

لذلك تُعدّ مخاطبة الحواس من مسالك القرآن في إثبات حقائق الإيمان، إذ حمل تنبيها على ضرورة تأسيس المعرفة اليقينية بعالمي الغيب والشهادة في بناء العقيدة، وذلك بربط القضايا الغيبية بالآيات المشهودة؛ لتقريب المعنى وإدراكه.

وقد كانت الآيات الكونية المجال الذي وجّه إليه ومن خلاله الخطاب القرآني الحواس، ذلك أنها دليل محسوس يمكن للإنسان إدراكه بالوسائل المعرفية التي زُوّد بها، ومن ثمة عُدّت أدوات المعرفة الحسية من أهم وسائل معرفة عالم الشهادة، فالحواس هي الطريقة الأولى إلى المعرفة والتزوّد بالخبرة، عن طريقها يُتدرّج من المعرفة الحسية إلى المعرفة العقلية، التي تُبنى عن طريق العقل والتفكير، حيث تقوم المعرفة الحسية بإيصال القضايا المشاهَدَة كصور ذهنية للعقل، وذلك عبر الحواس التي هي منافذ للمعرفة العقلية.

لهذا جاءت العديد من الآيات القرآنية حاثة الإنسان على قراءة كتابه تعالى المشهود، بعد أن عرضته في كتابه المقروء؛ ليكون دليلا على حقائقه الإيمانية، منها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾[2]. وقوله: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا

---

(1) محمد الحسيني البهشتي: المعرفة في نظر القرآن الكريم، ص101.

(2) سورة الأعراف، الآية: 185.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1]، وقوله أيضا: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[2].

فالملاحظ أن هذه الآيات تُوجّه في خطابها الإنسان إلى إدراك معرفة يقينية، أساسها المعرفة الحسية المستمدة من النظر في الحقائق الكونية المبثوثة في هذا الوجود، هذا النظر القائم على الرؤية كوسيلة للملاحظة والاستنتاج؛ لأنّ الله جل جلاله يأمر بالنظر ليس لأجل الرؤية البديهية العادية، إنما يقصد النظر المصاحب للاستنتاج، المنطلق من حقيقة حسية وبمساعدة التفكير يصل إلى إدراك ما هو غير حسي، ويكون بذلك الانتقال من النظر البديهي إلى ذلك الاستنتاجي[3]، الموَجَّه لبلوغ نتيجة ما، مصداقا لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[4]، وقوله أيضا: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ. وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[5].

فهذه الآيات الموجودة في الآفاق هي المنطلق لإدراك ومعرفة الحقيقة الإلهية، وما يتعلق بها من حقائق الغيب، وما على الإنسان إلا النظر فيها وتدبرها بما زُوّد من أدوات المعرفة والإدراك، لبلوغ معرفة يقينية مبنية على الملاحظة المقصودة والمُوَجَّهة، التي عبّر عنها سبحانه وتعالى بالنظر.

وأهم الحواس التي ركز عليها القرآن الكريم في خطابه كوسائل للمعرفة وطرقا للتصديق بالحقائق الإيمانية "السمع والبصر"، نظرا لوظيفتهما في حياة الإنسان، وذلك ما نقف عليه في محكم تنزيله، منه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[6]، وقوله أيضا: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ

---

(1) –سورة يونس، الآية: 101.

(2) –سورة الغاشية، الآيات: 17-20.

(3) –محمد الحسيني البهشتي: المعرفة في نظر القرآن، ص87، 89.

(4) –سورة فصلت، الآية: 53.

(5) –سورة الذاريات، الآيتان: 20-21.

(6) –سورة النحل، الآية: 78.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وَالْأَفْـئِدَةَ قَلِـيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾[1]، كما قال جل جلاله: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّـمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾[2]. إضافة إلى ما جاء في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾[3].

فهــذه الآيــات أفردت السمع والبصر كوسائل للمعرفة، حيث نفىسبحانه وتعالى العلم عن الإنســان حــين يولد، ثم أثبت تلك الوسائل كمصدر لتحصيله، وهو ما أكدته الآية الأخيرة –من ســورة الســجدة–، إذ التسوية تقتضي تمام الخلقة، لكن أفرد الحواس بالذكر لبيان أهميتها في حياة الإنسان ودورها في تحصيل المعرفة، نظرا لقدرتهما على تحصيل العلم –الأولي–، إذ تتجه هذه الحواس إلى عــالم الشهادة «فتُحَصِّل منه صورًا، ويكون ذلك هو القاعدة اللازمة، والأساس الضروري لكل معــرفة تالية»[4]؛ لذلك جعل القرآن الكريم أساس اليقين الحواس المدرِكة، حيث وإن لم تكن الأدلة على قضية ما حسية مباشرة، فهي تتصل بها بطريق غير مباشر.

وســبب تركيز القرآن الكريم هذا، مردّه إلى مقدار المدركات التي يتلقاها الإنسان عن طريق الأذن والعــين، مقارنة بما يتلقاه عن طريق بقية الحواس الظاهرة؛ لذلك فتأثيرها في مجال المعرفة واسع جدا[5].

أما عن أهميتها، فبناء على أهمية المعرفة الحسية في بناء اليقين، أبرز القرآن الكريم قيمة الحواس الإدراكــية ودورهــا المعرفي انطلاقا من قراءة كتاب الله المشهود، وهو ما تؤكده العديد من الآيات مــنها: -**﴿وَاللَّــهُ أَنـزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾**[6].

-**﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**

---

(1) –سورة المؤمنون، الآية: 78.

(2) –سورة الملك، الآية: 23.

(3) –سورة السجدة، الآية: 9.

(4) –محمد الحسيني البهشتي: المعرفة في نظر القرآن الكريم، ص121-122.

(5) –عبد المجيد النجار: العقل والسلوك في البنية الإسلامية، منشورات مطبعة الجنوب، مدنين، (د.ط)، (د.ت)، ص137.

(6) –سورة النحل، الآية: 65.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [1].

-﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [2].

-﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[3].

-﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [4].

-﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [5].

فهذه الآيات تبين العلاقة الوطيدة بين عالم الشهادة كمصدر للمعرفة، وبين الحواس كأداة لها، إذ ربط الوحي الإلهي بينهما بتوجهه في تثبيت مقاصده إلى تنبيه الحواس إلى ما في الوجود من آيات كونية، التي هي دلائل القدرة الإلهية.

ذلك أن حقيقة عالم الشهادة تشمل حالتين[6]، يمكن توجيه التفكير والبحث فيهما، أحدهما: وجود ذلك الواقع المادي الذي تقع عليه الحواس المدركة من عالم الآفاق، إذ تكون معرفته مباشرة، كالسماء المرفوعة والأرض المسطحة، وغيرها من الآيات المجلوة. أما الثانية، فتتمثل في وجود أثر محسوس لواقع يمكن أن يقع عليه الحس المُدرِك، حيث لا يمكن معرفة ذلك الواقع –الغيبي– مباشرة

(1) –سورة النمل، الآية: 88.

(2) –سورة فصلت، الآية: 39.

(3) –سورة الملك، الآيتان: 03-04.

(4) –سورة الأحقاف، الآية: 33.

(5) –سورة العنكبوت، الآية: 20.

(6) –حامد عوض الله: الألوهية وفكر العصر "أهناك إله؟"، المركز الثقافي الجامعي، القاهرة، (د.ط)، 1977م، ص62.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كعـــالم الشهادة، إنما يكون إدراكه عن طريق التدبر في آيات الآفاق المشهودة، وما تتضمنه من آثار محسوسة دالة على تلك الحقائق الغيبية، والمقاصد القرآنية، كحقيقة وجوده تعالى ووحدانيته، وحقيقة اليوم الآخر.

ومن ثمة تُدرَك المعرفة اليقينية لعالم الغيب من خلال قضايا عالم الشهادة، فقد وجهنا الخطاب الإلهي إلى التعرف على ما في العالم المحسوس من قوانين وخصائص، لأنّ عناصر هذا العالم محسوسة، ولم يطلب منا أن نتعرف على حقائق ما وراء العالم المحسوس إلا من خلال عالم الشهادة، لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها، ولا يكلفها إلا ما أتاها.

فممـــا نبّه إليه القرآن الكريم –على سبيل المثال– في منهجه في الاستدلال على وجوده تعالى، اعتبار الآيات الكونية المجلوة دليلا على موجود متعين في الخارج، والتلازم بينهما يكون ضروريا، لأن الآية المعينة باعتبارها أثرا محسوسا يلزم عنها بالضرورة أن يكون لها مؤثرا متعينا في الخارج، ولهذا فإن مـــا يوجـــد في الآفاق يعدّ آية دالة على خالقها باعتبارها أثرا له، فهي علامة دالة على موجدها[1]. فجاءت بذلك الآيات المتلوة لافتة نظر الإنسان إلى التأمل في الآيات المشهودة في الآفاق، إذ هي في مجملها دلائل على خالقها.

كما جاءت الآيات القرآنية محددة لمجال استعمال الحواس، وهو عالم الشهادة، وبينت وظيفة كـــل مـــنها، فالسمع للإخبار، والبصر للمعاينة، فالأول وظيفته أشمل لأنه ملازم للإنسان في اليقظة والنوم، ليلا ونهارا، أما الثاني فأقوى في اليقين، إذ «ليس الخبر كالمعاينة»[2]، أي ليس السمع كالبصر في القوة، وليس البصر كالسمع في الشمول، وهكذا تتفاضل وسائل الإدراك فيما بينها[3]، وحتى في القـــرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَـــنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا

---

(1) –محمد السيد الجلنيد: تأملات حول منهج القرآن في تأسيس اليقين، ص30، 51.

(2) –رواه الإمـــام أحمد بن حنبل في مسنده، كتاب الأخلاق، الباب الأول في الأخلاق والأفعال المحمودة، الفصل الثاني في تعديد الأخلاق المحدودة، مج1، ص215، 271.

(3) –ابن تيمية: الرد على المنطقيين، مطبعة شرف الدين الكتبي، (د.م)، (د.ط)، 1368هـ–1949م، ص90.
–محمد السيد الجلنيد: تأملات حول منهج القرآن في تأسيس اليقين، ص89.
–محمد الحسيني البهشتي: المعرفة في نظر القرآن الكريم، ص114-125.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[1]، إذ البصر أقوى وأكمل، والسمع أعمّ وأشمل، فالأول في مقام الإدراك أفضل، والثاني يحصل به من العلم أكثر مما يحصل بالبصر، لأن الذين يسمعون عن وجود الشيء أكثر من الذين يشاهدون، والبصر أقوى في إدراك اليقين إذا سلُمَت، ويؤكد هذه الأهمية قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ. لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ. ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ. ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[2].

ونظرا لأهمية المشاهدة الحسية –بصرية أو سمعية– في تأسيس اليقين، فإن القرآن الكريم أكّد على ضرورتها كمصدر للمعرفة اليقينية في قوله تعالى: ﴿...مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[3]، فهو حث على عدم الاكتفاء في تحصيل المعرفة بالمشاهدة الأولى، التي قد تكون خاطئة أو غير سليمة، وإنما دعا إلى تكرارها لأن ذلك يحقق اليقين، نتيجة إثارته للاهتمام والجد في النظر إلى آياته تعالى في الآفاق. كما أن تكراره للمشاهدة من شأنه كسر حاجز التقليد المورث للمعارف، وبلادة الأُلف المميت للحواس[4]، فننتقل بذلك من المشاهدة العادية إلى المشاهدة الاستنتاجية، إذ النظر إلى آيات الرحمن وتدبرها يؤكد بديع صنعه، الدال على عظمة خالقها.

كما أكّد على هذه الأهمية في مسالكه البرهانية مع الذين جعلوا الملائكة إناثا ونسبوها له ﷻ فاستخدم البراهين اليقينية المستمدة من الواقع المشاهد للإنسان، فقال: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَانِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾[5]، إذ كذّب هذه الدعوة لأنها لا تستند إلى مشاهدة هؤلاء لخلق الملائكة، فانتفاء المشاهدة الحسية أدّى إلى نفي المعرفة اليقينية، فمن لم يشهد خلقهم لا يوثق بعلمه، لأنه غير مستمد من مصدر المعرفة اليقينية، ومن لم يشاهد ببصره –أو سمعه– الأمر فإنّ الشهادة عليه أو له لا ترقي إلى اليقين.

والأهم من ذلك أنه مسؤول عنها يوم القيامة، ذلك نظرا لأهميتها في حياة الإنسان بناء على

(1) –سورة القصص، الآيتان: 71-72.

(2) –سورة التكاثر، الآيات: 5-8.

(3) –سورة الملك، الآيتان: 3-4.

(4) –صالح نعمان: منهج البحث في علم العقيدة في ضوء التطور العلمي المعاصر، ص98.

(5) –سورة الزخرف، الآية: 19.

الوظيفة التي أوكلت له كنعم دينية ودنيوية، فالله سبحانه وتعالى لما زوّد الإنسان بنعمة الحواس، وكانت الغاية من ذلك استعمالها كأداة لبلوغ المعرفة اليقينية، وإدراك الحقائق الإيمانية مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا. إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[1]، أي أنّ الله ابتلى عبده بخلقه من ماء مهين، وهي آية في حدّ ذاتها تحتاج إلى تدبر للاعتبار، ثم أنشأه،ثم خلق له القوى التي منها حاستي السمع والبصر، فأتمّ خلقته وجعل حواسه سليمة حتى يتمكن بها من تحصيل المقاصد[2]، التي جاء لإقرارها الوحي الإلهي، فالله هداه السبيل بتزويده بنعم الحواس، وبثه لتلك الآيات الكونية، فإن أحسن توظيف تلك النعم كان شاكرا، وإن أساء كان كفورا، لأنه لن يبلغ المعرفة اليقينية؛ لذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[3]، فلقيمة ما تؤديه هذه الحواس من العلم، تكون يوم الحساب شاهدة على الإنسان بأنها أدت إليه ما يستطيع به أن يصل إلى اليقين، وإلى إدراك الحق؛ لذلك أمرنا ﷻ أن لا نتبع ما ليس لنا به علم، بل لابد من التثبت من معارفنا، لأنها لن تذهب سدى، فهي إما لنا أو علينا، فحقيق بنا أن نستعملها فيما يوصلنا إلى عبادته تعالى عبادة حقا، بإدراك مقاصد الوحي المكتوب من خلال دلالة الكتاب المنظور.

ونظرا لجسامة هذه المسؤولية، فإنه سبحانه وتعالى ندّد بمعطليها –الحواس–، لأن ذلك يؤدي إلى تعطيل العقل الذي هو مناط التكليف، وحذّر من عاقبة من يفعل ذلك فقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[4]، وقال أيضا: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[5].

---

[1] سورة الإنسان، الآيتان: 2-3.
[2] عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص475.
[3] سورة الإسراء، الآية: 36.
[4] سورة الأعراف، الآية: 179.
[5] سورة الأحقاف، الآية: 26.

فغفلتهم عن توظيف حواسهم لبلوغ اليقين وتعطيلهم إياها جعلهم كالأنعام، بل أكثر منها ضلالا، وإعراضهم عن آيات الله -المتلوة والمجلوة- جعل حواسهم لا فائدة منها، لأنها لم تؤدّ الغاية التي من أجلها خُلقت.

ولتحقيق هذه الغاية جاء الخطاب القرآني موجها الحواس إلى النظر في الآيات الكونية، لإدراك ما حملته من دلائل إيمانية، وذلك بأساليب مختلفة منها:

-الاستفهام؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ. أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾[1]، فسبحانه وتعالى لا يطرح هذه الأسئلة كأمور نظرية، يمكن أن يماري في الإجابة عنها أحد، أو يشك فيها منكر، وإنما طرحها ليلفت النظر إلى حقيقة توظيف الحواس، ومصدر معارفهم، كما جاء النفي عنهم صفة السمع والبصر، ذلك لأنهم عطلوها، بل ألغوها كلية مصرّين على موقفهم وضلالهم.

ونتيجة لعدم استفادة هؤلاء من المعرفة الحسية، جاء فيهم قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2]، وقوله أيضا: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[3]، كما جاء في موضع آخر قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾[4].

ومعنى أنه ختم على حواسهم، ليس بإفقادهم الوظيفة العادية لتلك الأعضاء، بل عيونهم سليمة ولكنها عاجزة وعقيمة عن العمل الواقعي[5]، وعن إدراك الحقائق،لقوله﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا

[1] -سورة السجدة، الآيتان: 26-27.
[2] -سورة البقرة، الآية: 07.
[3] -سورة النحل، الآية: 108.
[4] -سورة محمد، الآية: 23.
[5] -محمد الحسين البهشتي: المعرفة في نظر القرآن الكريم، ص117.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [1]، أي أنّ حواسهم لم تصبها آفـة، فهـي تـرى كل شيء إلا الحق، فإنها لا تدركه، فكان حالهم كما وصفهم سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [2]، وقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [3]، وهو موقف ناتج عن عقم الحواس، وعجزها عن الوصول إلى الحق.

-القسم: إذ اعتمد الخطاب القرآني في توجيه الحواس إلى الآيات الكونية على هذا النوع من الأسلوب،من ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [4]، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ. النَّجْمُ الثَّاقِبُ. إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [5]، وفي قوله أيضا: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا. وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا. وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا. وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا. وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا. وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا. وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [6].

فـالملاحظ أن العناصـر الكونـية كانت مضمون هذا القسم، إذ اتخذ منها الخطاب القرآني حججـا لإثـبات حقائق الإيمان، والغرض منه شدّ انتباه الحواس إلى تلك الحقائق المبثوثة في الآفاق. **ومن ثمة كان القسم بالظواهر الكونية لما فيها من دلائل القدرة، إذ «أنّ هذه الأشياء التي أقسم الله بها لابـد وأن يكـون فيها إما فائدة دينية مثل كونها دلائل باهرة على التوحيد، أو فائدة دنيوية، حيث توجب بعثا على الشكر[7].**

إذن، لقد كانت الآيات الكونية موضوع المعرفة، التي جاء القرآن الكريم مخاطبا للحواس من خلالهـا -كمسـلك لبناء معرفة يقينية-؛ لذلك إذا تأملنا الموقف المعرفي كما يرشدنا إليه الخطاب

---

[1] -سورة الأعراف، الآية: 179.

[2] -سورة الكهف، الآية: 101.

[3] -سورة لقمان، الآية: 07.

[4] -سورة الواقعة، الآيتان: 75-76.

[5] -سورة الطارق، الآيات: 01-04.

[6] -سورة الشمس، الآيات: 01-07.

[7] - الرازي: التفسير الكبير، ج31، ص161.

القرآني نجده متضمنا لنوع من الثنائية[1] الكامنة في العديد من مراحله، وفي مقدمتها أدوات تحصيلها، فهناك أدوات الحس الظاهرة -كالسمع والبصر-، وهناك أدوات الحس الباطنة -العقل-.

ومع كون ما تُحصّله لنا الحواس من معرفة، ضروريا إلا أنه ليس كافيا، لأن المعرفة اليقينية لا تتم بالحواس فحسب، إذ إدراكها وحده غير مبلغ -على ضرورته- إلى الإيمان، الذي هو الغاية القصوى من المعرفة؛ لذلك كلما وجّه الوحي الإلهي الإنسان إلى استعمال الحواس، عقّب على ذلك باستعمال العقل، كما يرد هذا الأخير ملازما لها، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾[2]، وقوله أيضا: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[3].

لذلك عُدّ هذا الترتيب للسمع والأبصار والأفئدة على مقتضى الحكمة، لأن الإنسان يسمع أولا أمورا فيفهمها، ثم يحصل له بسبب ذلك بصيرة، فيبصر الأمور، وبعدها يحصل له بسبب ذلك إدراك تام، فيستخرج الأشياء من قبله، ويعطي لنا الرازي مثالا على ذلك، بالشخص الذي يسمع من أستاذه شيئا ثم تصير أهلية تحصيل المعرفة بنفسه بالمطالعة والفهم، فيمتلك بعدها أهلية التصنيف ليكتب ما يشاء من قِبله، كذلك الإنسان يسمع، ثم يطالع صحائف الموجودات؛ ليدرك من خلال ذلك ويعلم الأمور الخفية[4].

وبما أنّ المعرفة الحسية لا تكون بمعزل عن العقل، كان توجيه الخطاب القرآني لهذا الأخير لإدراك المعرفة اليقينية التي موضوعها الآيات الكونية.

(1) -محمد السيد الجلنيد: تأملات حول منهج القرآن في تأسيس اليقين، ص15-17.

-عبد المجيد النجار: العقل والسلوك في البنية الإسلامية، ص136-139.

(2) -سورة المؤمنون، الآية: 78.

(3) -سورة الحج، الآية: 46.

(4) -الرازي: التفسير الكبير، ج25، ص174.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثالث: مخاطبة العقل

لقد اعتنى القرآن الكريم بالدعوة إلى النظر في الآيات الكونية؛ فكانت المجال الذي خاطب به العقل الإنساني، الذي أولى له أهمية كبيرة، وأعطاه مكانة هامة في خطابه، دليل ذلك الآيات العديدة التي وردت منوهة بفضله، حاثة على استعماله.

هذا وإن كان العقل غريزة في الإنسان، وملكة زوّده الله بها ليتمكن من إدراك صور المعارف، وفهم حقائق الأشياء، المسؤول عن معرفة الأدلة الموصلة إلى الحقيقة؛ فإن الصيغ[1] التي ورد بها في القرآن الكريم تدل على أنه صفة من الأوصاف أو الأفعال، أو سلوك من السلوكات التي يطلع بها الإنسان على الأشياء في نفسه وفي أفقه، مثل البصر في المبصرات، مما يجعله ليس جوهرا مستقلا بذاته[2]، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[3]، فكما أنّ البصر فعل للعين، كذلك العقل فعل للقلب، لا جوهرا قائما بذاته، لأن هذا الأخير من خصائصه أنه يفعل ولا ينفعل، والعقل ليس كذلك.

والمقصود هنا من القلب هي تلك اللطيفة المدركة، أو ما يُعرف بباطن الإنسان لا ذلك الجهاز المادي[4]، المسؤول عن وظائف تتعلق بالبدن.

---

(1) –لفظ العقل ومشتقاته من الألفاظ التي ذكرت في القرآن الكريم بكثرة، وذلك في تسعة وأربعين موضعا، إذ لم يرد بصيغة الاسم وإنما جاء بالصيغة الفعلية، وأكثرها بصيغة الفعل المضارع: (أفلا تعقلون– لعلكم تعقلون– نعقل– لقوم يعقلون– لا يعقلون)، فتنوعت أساليبها بين الاستفهام الإنكاري، الترجي، النفي والتقرير. في حين وردت مرة واحدة بصيغة الفعل الماضي (عقلوا)، وهذه الصيغ هي ذكر لوظيفة وعملية التعقل.

–محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر، ط2، 1401هـ–1981م، ص468-469.

–والمثبت من صيغة (يعقلون) جاء في مقام التأمل لآيات الله المبثوثة في الآفاق والأنفس.

–يوسف القرضاوي: العقل والعلم في القرآن الكريم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1421هـ–2001م، ص20.

(2) –طه عبد الرحمن: العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء–بيروت، ط3، 2000م، ص18.

(3) –سورة الحج، الآية: 46.

(4) –ابن تيمية: مجموع الفتاوى، إعداد عبد الرحمن النجدي، (د.د)، (د.م)، (د.ط)، (د.ت)، ج9، ص303.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فـالله جـل جلاله خلق الإنسان في أحسن تقويم، وزوده بنعم الحواس، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1]، كما جعل سبحانه وتعالى الآيات الكونية مجالا لممارسة العقل لوظائفه، إذ يقول العزيز الحكيم: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[2]، فكانت بذلك آيات الآفاق من مجالات النظر والاعتبار لإدراك الحق، لقوله تعالى: ﴿... كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[3]، ويكون ذلك –التعقل- بما زُوّد به الإنسان من إمكانات خَلقية، إذ أمره خالقه وتعبده بالنظر إلى ما خلق، ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[4].

ومن هنا يتجلى المجال الذي جاء الخطاب الإلهي موجها العقل إليه، وهو عالم الآفاق، فكان ذلك أهم مظاهر رفعة العقل وقيمته في القرآن الكريم، وسمو وظائفه، حيث ارتبطت هذه الأخيرة بغاية الإنسان في هذا الوجود، وبمهمته الاستخلافية، كونه الكائن الوحيد المؤهّل للإدراك والتعقّل، وعلى أساسه كُلّف بحمل الأمانة، فكان العقل من مقومات إنسانية الإنسان وتكريمه؛ لذلك عُدّ حفظه وتحريم كل ما يؤده إلى تعطيله عن أداء وظائفه، من أهم مقاصد الشريعة الإسلامية.

ولأجل ذلك ساق القرآن الكريم الآيات الكونية وربطها بوظائف العقل، إذ جعله وسيلة فهمها وإدراك مقاصدها، فبعد أن أمدّ جلّ جلاله الإنسان بهذه الملَكة دعاه إلى تدبر وتأمل الآفاق للكشف عن أسرار هذا الوجود، ومعرفة خالقه وعظيم قدرته في إتقان خلقه، وحكمته في بديع صنعه، ورحمته في لطيف تدبيره، وبذلك يكون قد وجهه إلى العمل في أوسع نطاق –عالم الشهادة-، ولم يغلق له الأبواب ويحد من حركيته، وكان ذلك ممزوجا بالهدي الرباني للوصول إلى الحق، والعمل بمقتضاه، إذ العقول لا تستقل بإدراك مصالحها دون الوحي الموجه والمسدد لها[5].

(1) –سورة النحل، الآية: 78.

(2) –سورة فصلت، الآية: 53.

(3) –سورة النور، الآية: 61.

(4) –سورة يونس، الآية: 101.

(5) –إبراهيم بن موسى الشاطبي: الاعتصام، مكتبة الرياض، (د.ط)، (د.ت)، ج1، ص46.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومن ثمة جاء الخطاب القرآني مؤسسا لبنيان الفكر الإنساني، وتوجيهات العقل البشري على الوحي الإلهي، المعصوم بشقيه المقروء والمنظور؛ فحمى العقل من الضلال والحيرة في قضايا لا يقدر على الاستقلال بها في الكشف عنها -كمسائل الغيب-، وكانت تبعة العقل للوحي قد أكسبته أهم ميزة، إذ جعلته عقلا مسددا.

هذا وقد جاءت الآيات الكونية لتوقظ العقل الإنساني، ولتقوده إلى آفاق الهداية الإلهية، التي حفظ لنا الله أصولها في كتابه المتلو والمجلو؛ فكانت الغاية من ذلك التوجيه، تثبيت الإيمان في نفوس المؤمنين وترقيته، وإثبات حقائقه للمعرضين عنها، وهو من أهم أسباب اهتمام القرآن بالحديث عن الآيات الكونية، حتى عُرفت بآيات القدرة، منها -على سبيل المثال لا الحصر- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]. وقوله أيضا: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2].

ففي هذه الآيات ينطلق الخطاب القرآني في توجيه العقل من آيات مشهودة في الآفاق؛ ليصل إلى حقائق معقولة، وهي تلك القدرة الدالة على عظمة خالقها؛ فهي دعوة موجهة العقل للنظر في هذه الآيات المجلوة في كل من الأرض والسماء؛ ليتبين أن هذا الوجود المتغير ما هو إلا مجرد حادث آيل إلى الفناء والزوال، وأنه لابد له من خالق.

والملاحظ أن الإشارة إلى العقل في القرآن الكريم لم تأت عارضة، ولا مقتضبة في سياق الآيات الكريمة، بل وردت مؤكّدة باللفظ والدلالة، في كافة الآيات الداعية إلى إعمال العقل بالنظر فيما يوجد في الآفاق من دلائل عظيمة، التي هي موجهة إلى أصحاب العقول السليمة والأفكار المستقيمة، وكذلك إلى تلك المنحرفة.

ونظرا لما للآيات الكونية من أثر في إدراك مقاصد الوحي، من وحدانيته تعالى وما يتبعها

[1] -سورة البقرة، الآية: 164.

[2] -سورة الرعد، الآية: 04.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من أصول الدين، كان عالم الشهادة مجالا للتعقل ولإدراك حقائق الغيب، منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1]. وقوله أيضا: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ. أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾[2]، إذ نلاحظ في هذه الآيات كيف كانت دلائل الآفاق منطلق الخطاب الإلهي لإثبات حقيقة البعث ووحدانيته تعالى، وذلك استنادا إلى آيات مشهودة دالة على قدرته ووحدانيته ﷻ، بداية بتكون السحب، ونزول الماء، وما ينتج عنه من الخيرات، وما على الإنسان إلا استغلالها، والتي هي قبل ان تكون نعم دنيوية، فهي نعم دينية باعتبارها موصلة لإدراك الحق بالتدبر فيها.

ومن ثمة تكون من غايات التوجيه القرآني للعقل، بالنظر في الآفاق لإدراك نعمه تعالى على عباده –التي لا تُحصى ولا تُعد–، وهي كلها مسخرة له لتحقيقه الاستخلاف، وذلك بالتأمل فيها؛ وكشف سننها بمعرفة أسرارها، مما يسهل عليه الاستفادة منها في تحقيق العمارة –أحد أركان الخلافة–، وبذلك يكون الكون مسخّرا له ماديا ومعرفيا، وما عليه إلا استثماره وفق ما يرضي الله جل جلاله، إذ بمعرفة حقيقة الكون يسهل على الإنسان إدراك كيفية أداء العبادة لله، وكيف يكون استغلال ذلك في تحقيق غايته الوجودية في إطار ما سُخّر له؛ لتجنب الضلال في متاهات الشرك والكفر. ودون شك أن التدبر في آيات الآفاق، انطلاقا من عناصرها والغاية من وجودها، وما ستؤول إليه، من شأنه أن يوقظ في كل نفس وعيا ذاتيا بالشعور بكيانها، فيدرك الإنسان بذلك أنه قد سما في تقويم خلقه على كل مخلوق سواه، مما يدفعه للإيمان بالتكريم في هذا الوجود.

ومن الآيات التي جاءت بهذا الصدد قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ

---

[1] –سورة الأعراف، الآية: 57.

[2] –سورة الرعد، الآيتان: 16-17.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]. وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2]، وغيرها من الآيات التي تضمنت ما سخره الله لعباده في الآفاق، هذا عن الكون، أما عن الإنسان المستخلف، فإن الله سخر له من نفسه ما ميزه به، وحباه به من عقل وبصيرة وإرادة، إذ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[3]، ففي سبيل تحقيق غاية وجوده التي شرِّف وكلّف بها، اقتضت الحكمة الإلهية توفيرشروط القيام بأعباء الاستخلاف، وكان ذلك على مستوى الآفاق بتسخير كل المخلوقات وما وجد فيها لخدمة الإنسان، وعلى مستوى الأنفس بتزويد هذا المستخلف بوسائل المعرفة –من سمع وبصر وعقل–، ومن ثمة إذا أحسن استغلال وتوظيف ما سُخِّر له على أحسن وجه، تمكّن من تحقيق الغاية من وجوده، وإلا ضل في الحياة الدنيا، وكان من الخاسرين في الآخرة.

ولما كان أساس التعقل أن يورث الإيمان، وإلا فهو تعقل ناقص، فيكون بذلك العقل عاجزا عن أداء وظيفته، مما يسأل عليه الإنسان يوم القيامة، فإن القرآن الكريم نعى في آيات عديدة كل من يعطله باعتباره من وسائل المعرفة، أو من يجعل دونه حجاب من الكبر والاستهزاء أو العجب والهوى، فلا يصل إلى نور الحق واليقين لقوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[4]، وقوله أيضا: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[5]، وجاء أيضا قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[6]، ووصفهم بقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ

(1) –سورة الجاثية، الآيتان: 12-13.

(2) –سورة النحل، الآية: 12.

(3) –سورة الإسراء، الآية: 70.

(4) –سورة الفرقان، الآية: 44.

(5) –سورة الفرقان، الآية: 43.

(6) –سورة الحج، الآية: 46.

لَا يَعْقِلُونَ﴾[1].

فـالملاحظ من خلال هذه الآيات أنه ولو أدت الحواس واجبها، إلا أن العقل هو الأساس في بلوغ اليقين، فإن لم يورّث التأمل والنظر إيمانا، معناه أن العقل تعطل عن أداء مهمته لسبب أو لآخر؛ لذلـك فـالذين ضلوا الطريق إلى الله، ولم يتعرفوا على الحق، أو عرفوه وجحدوه، فقد حُرموا نعمة العقل ونور القلب.

والحقيقة أن الحواجز المؤدية إلى تعطيل العقل، تنمّ عن موقف هؤلاء من الآيات الكونية، وهي علل التفاعل السلبي مع آياته تعالى في الآفاق، الدالة على بديع صنعه وقدرته الناطقة بالحقائق الإيمانية، وهـو موقف ناتج عن الكفر والتكذيب والإعراض والاستهزاء، المؤدي إلى هلاك المجتمعات وتحطيم الإنسان في الحياة الدنيا، ناهيك عن مصيره في الآخرة.

مقـابل ذلك نجد التفاعل الإيجابي مع الآيات الكونية، المتمثل في الاعتبار بها وتدبرها، فتثبت المؤمـن وتزيده يقينا، وتهدي الغافل إلى الحق؛ لهذا قيل: «بأنه لن يكون لهذا الدين موضع قدم يحتله ويعمـل مـنه، إذا اخـتفى الإنسـان السوي، وتعطلت مشاعره، وتعطل أسمى ما فيه وهو تفكيره وضميره»[2].

وحـتى لا يختفي ذلك الإنسان السوي ويقوم بأداء واجبه على أكمل وجه، ولا يبقى العقل معطـلا، تنوعت الأساليب التي خاطبه بها الوحي الإلهي؛ للفت انتباهه إلى مواطن الهداية والعبرة في الآفاق، بتعدد وظائف العقل في مجال الآيات الكونية؛ لذلك ترتبط هذه الأخيرة في القرآن الكريم بما يُعـدّ مظاهر عملية للعقل ووظائفه، والمتمثلة في كل من النظر، التدبر، التفكر والتذكر، منها ما جاء في قولـه تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِـالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾[3]، وقوله: ﴿ فَانظُرْ إِلَى آثَـارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

---

[1] —سورة الأنفال، الآية: 22.

[2] —محمد الغزالي: تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، دار المعرفة-دار ريحانة، الجزائر، (د.ط)، (د.ت)، ص24.

[3] —سورة الروم، الآية: 8.

قَدِيرٌ﴾[1]، وجاء قوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2].

فالقـــرآن الكريم من خلال هذه العمليات الإدراكية التي عبر بها عن وظائف العقل، يؤكد لنا أنــه يقيم لهذا الأخير وزنه، ويحسب له حسابا في التوصل إلى معرفة الحقيقة عن طريق الإيمان القائم عــلى التفكير والبرهان، فحث على ذلك في آياته الكريمة. تلك الآيات الدالة على أنه تعالى جعلها نبراســا يهتدي بها الناس في كل زمان ومكان، وهو بذلك يريد من الإنسان الوصول إلى الإيمان عن طريق النظر والتدبر في مخلوقاته، وفي مقدمتها عناصر الآفاق ، وذلك لإيقاظ العقل من غفلته وتنبيهه إلى مواطن الهداية والعبرة، أليس النظر يقلب علوم الأكوان معارف إلهية[3]، إذ هي -الآفاق- كــتاب مفــتوح للقــراءة، ونتيجة لقراءته الصحيحة، وفهم معانيه نقف على أعمدة الإيمان: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[4].

وبهذا يكون الوحي الإلهي بعد أن بثّ بين دفتيه دلائل القدرة الإلهية ووحدانيته تعالى، وسائر حقــائق الإيمان، وضع العقل بهذه الصورة أمام الحق، فما عليه إلا أن يقرر إما أن يعترف بما هو حق وإما أن يجحد ويكابر، فتأمل قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُــوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ. أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ﴾[5]، فهو يستفهم ليستثير عقولهم عن حقيقة وجودهم، ووجود ما حولهم من الآفاق، وهي حقيقة قائمة لا مفرّ منها ولا تحتاج إلى الكثير من البراهين والأدلة، فكان العقــل هــو المعني الأول في الكشف عن حقيقة آيات الله في الآفاق، والقرآن موجه له ومرشده في ذلك، إذ يدفعه إلى النظر والبحث فيها.

وهكذا كانت الآيات الكونية مجالا لعمل العقل، فمن لم يستخدم عقله في تدبر الآفاق، كان خليقا به أن لا يهتدي إلى الحق؛ لذلك جاء الخطاب الإلهي موجها العقل إليها لإثبات حقائق الإيمان.

---

(1) ـسورة الروم، الآية: 50.

(2) ـسورة الذاريات، الآية: 49.

(3) ـبديــع الزمان النورسي: المثنوي العربي النوري، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، القاهرة، ط1، 1415 هــ-1995م، ص105.

(4) ـسورة يونس، الآية: 101.

(5) ـسورة الطور، الآيتان: 35-36.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فكانت طرق بناء اليقين لدى الإنسان ليست قاصرة على برهان بعينه، ولا على وسيلة معينة، إذ لم يركز القرآن الكريم على جانب بعينه في الإنسان، بل دعانا إلى اعتبار جميع الملكات الإنسانية، وعدم إهمال أيّ منها لإدراك الحقيقة[1]؛ فكان منهجه في تناول الآيات الكونية التي خاطب بها الإنسان بمسالك متعددة متكاملا؛ إذ يوجه العقل والحس والفطرة إلى تدبر ما في الآفاق من حقائق.

ومن ثم يمكن القول بأنّ الخطاب الإلهي سلك في استدلاله بالآيات الكونية مسلكا قويما، جمع بين ما فُطرت عليه النفوس من الإيمان، بما تشاهد وتحس، وبين ما تقرره العقول السليمة، والتي لا تتنافى مع الفطرة المستقيمة، وذلك أسلوب تفرّد به الوحي الإلهي، وهو يعدّد طرق بسط الأدلة وأساليب عرضها لدعوة الناس إلى الحق وتبليغهم مقاصده، انطلاقا من التأمل في الآفاق كأدلة يقينية على الحقائق الإيمانية.

فكانت الآيات الكونية بذلك أعظم باعث للإيمان، وأكبر مرشد إلى مقاصد القرآن الكريم، إذ كلما ازداد الإنسان علما بها ازداد يقينا بموجد هذا الخلق، وما ذكرها في القرآن الكريم إلا بيان، وإثبات لحقائقه؛ لذلك كان منهجه شهودي قائم على إزاحة مستمرة لستائر الغفلة على الإنسان، شكلت فيه آيات الآفاق المعطيات الواقعية لمداركه، فعُدّت هذه المنهجية القرآنية منهجية الوجود[2].

هكذا نكون قد تعرضنا –ولو بإيجاز– لحديث القرآن الكريم عن الكون، والذي منه تتجلى الأهمية التي أولاها للآيات الكونية، التي كانت من مضامين خطابه لكافة الناس على اختلاف أصنافهم، وتباين مداركهم، وهو في تناوله لهذه الآيات وما تحمله من حقائق هذا الوجود، غرضه في ذلك ليس بجرد العرض، إنما مقصده الأساسي هو تلك الأبعاد المتعددة، وفي مقدمتها إثبات الحقائق الإيمانية.

وهو ما كان له أثر كبير في الفكر الإسلامي عبر مختلف الأزمنة، فكانت الآيات الكونية من بين ما تسلح به علماء الإسلام في الدفاع عن دينه، وإثبات حقائقها على ضوء ما توفر لديهم من معارف، جسد هذا العمل أحد أقطاب الفكر العقدي في القرن السادس للهجرة، وهو فخر الدين

---

(1) محمد السيد الجلنيد: تأملات حول منهج القرآن في تأسيس اليقين، ص20.

(2) طه جابر العلواني: الجمع بين القراءتين، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط1، 1417هـ-1996م، ص18.

الــــرازي في "تفســـيره الكبير"، لذلك في محاولتنا للوقوف على منهجه في الاستدلال بآيات الآفاق، وكيفية توظيفه لها لإثبات الحقائق الإيمانية، نرى من الضروري التعريف بمفكرنا ومُؤَلَّفَهُ، فكيف كان واقع العصر الذي عاش فيه؟ وما مدى تأثيره في تكوين شخصيته؟ خاصة منه الجانب الفكري الذي كان قمة إنتاجه تفسيره؟ وما حقيقة هذا الكتاب؟

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثاني :

التعريف بالرازي وتفسيره

المبحث الأول: الرازي وعصره

المبحث الثاني : دراسة حول "مفاتيح الغيب"

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمهـــــيد:

للعصر الذي يعيش فيه الإنسان أثر فعال في حياته، لذلك لا يمكن تناول دراسة حول شخصية علمية دون تقديم لمحة عن الفترة التي عاشت فيها، كتمهيد لعرض حياتها.

ذلــك أن دراسة الحياة بجوانبها المختلفة، تمكن من معرفة مميزات تلك المرحلة، ومدى تأثيرها في صقل شخصية الفرد.

والحديــث عــن عصر فخر الدين الرازي، هو حديث عن القرن السادس الهجري في العالم الإسلامي، خصوصا في بلاد المشرق منه، وما ميّز واقعه من ظروف في مختلف الجوانب، التي يأتي في مقدمــتها الجانب الفكري؛ لما له من أثر في تكوين مفكرنا، الذي يمثل "تفسيره الكبير" قمة من قمم ذلك العصر.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول: الرازي وعصره

المطلب الأول: عصر الرازي:

استمرت الخلافة العباسية تحكم العالم الإسلامي أكثر من خمسة قرون، إذ قُسِّمَ تاريخها إلى العصر العباسي الأول (132هـ-232هـ)، والعصر العباسي الثاني (232هـ-656هـ)[1]. هذا الأخير الذي يهمنا في هذه الدراسة، وتحديدا الفترة التي عاش فيها مفكرنا، بل الأهم فيه ما ميز أوضاع المسلمين من الناحية السياسية، الاجتماعية والفكرية، لمعرفة الظروف التي قضى في كنفها الرازي حياته، وهو ما يقتضي تقديم نبذة عن ذلك دون إيغال في التفاصيل.

أولا: الوضع السياسي

بعد أن شهدت الخلافة العباسية قوتها في عصرها الأول، أخذ الضعف يدبّ في هيكلها، وبدت معالم ذلك واضحة في عصرها الثاني نظرا لما عرفته من حوادث على الصعيدين الداخلي والخارجي.

فأهم ما ميز هذه العهود على المستوى الداخلي،تعدد السلالات الحاكمة وتعاقب الحكام على السلطة، إذ كانت الخلافة تعيش أيام ضعفها بل تمثل سلطة روحية أكثر منها زمنية، الأمر الذي أدّى إلى استمرار انسياق الأوضاع نحو الصراعات الداخلية، خصوصا بين الخلفاء وحكام الأقاليم، مما قضى على وَحدة الأمة، وتسبب في ظهور إمارات ودول مستقلة وشبه مستقلة، تتنازع النفوذ السياسي، والتي تقاسمت العالم الإسلامي في ظل خلافة مترامية الأطراف، لا تتعدى سلطة الخليفة عاصمتها[2].

ومن أهم الدويلات التي كانت في هذه الفترة بالمشرق الإسلامي، نجد كل من الدولة

---

[1] حسن أحمد محمود، إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ط)، 1995 م، ص73.

[2] عبد المنعم محمد حسنين: إيران والعراق في العهد السلجوقي، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط1، 1982م، ص179-180.

-محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، دار الفكر، بيروت، ط11، 1979م، ج9، ص369.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الغزنوية[1]، الدولة السلجوقية[2]، الدولة الخوارزمية[3]، والدولة الغورية[4].

ومهما قيل عنها، الأكيد أنها نهضت في كثير من الأحيان بالمسؤوليات التي عجزت عن أدائها الخلافة العباسية، كصدّ أعداء الإسلام وفتح بلاد المقدس، إضافة إلى الفتوحات التي حققتها في بلاد الهند، رغم ذلك التناحر الذي كان محتدما على أشده فيما بينها، إذ الفتن لا تهدأ حتى تنشب من جديد[5]، ولا هدف مشترك بين الجميع إلا سياسة التوسع التي عُرف بها سلاطينها من أجل الاستحواذ على السلطة والصراع على الأقاليم.

لذلك أهم ما يوصف به المشرق الإسلامي في هذه الفترة،أنه كانت تضمه مناطق تسودها الاضطرابات، عليها حكام متنازعون متباغضون، آثروا مصالحهم الخاصة على مصالح الأمة[6].

كل ذلك كان كافيا لخلق أوضاع سياسية مضطربة؛ فالدولة السلجوقية التي عُدّت أهم تلك الدويلات رغم ما شهدته من قوة، وبعد قضائها على الدولة الغزنوية عرفت أكبر الفتن وأشد الصراعات، سواء بين الحكام على السلطة أو بين سلاطينها والخلفاء العباسيين.

---

(1) -(351هـ-582هـ/ 962م-1186م)، سميت كذلك نسبة إلى عاصمتها غزنة، الواقعة في الجنوب الشرقي من مدينة كابل، عاصمة أفغانستان حاليا.

- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط5، 1405هـ-1985م، ج7، ص86.

(2) -(429هـ-591هـ/1077م-1194م)، تنسب إلى القائد الذي وحد قبائلها وجمع شملها وهو سلجوق ابن دقاق، وأبرز سلاطينها ملكشاه (465هـ-485هـ)، وأشهر شخصياتها نظام الملك (ت485هـ).

-حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل، بيروت، 1991م، ج4، ص1-58.

(3) -(445هـ-629هـ/1150م-1231م)، نسبة إلى خوارزم التي ترجع نسبة ملوكها إلى عبد تركي "أنوشتاكين"، اشتراه أحد أمراء السلاجقة بترقى ليكون واليا على خوارزم، وخلفه بعده ابنه مؤسس الدولة.

- حسن إبراهيم حسن: المرجع نفسه، ج4، ص95.

(4) -(543هـ-612هـ/1148م-1215م)، تنسب إلى مكان نشأتها "الغور" وهي عبارة عن جبال بين هراة وغزنة.

- ابن الأثير: المرجع السابق، ج10، ص99، 100.

(5) -منها ما حدث بنيسابور عام 597هـ، وفي غزنة وهراة عام 595هـ، وفي العراق والموصل عام 602هـ، وفي بغداد عام 601هـ، وبالموصل عام 581هـ.

-ابن الأثير، المرجع نفسه، ج9، ص953، 247، 237، 270، 268، 17.

(6) -فؤاد عبد المعطي الصياد: المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ط)، 1970م، ج1، ص61.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الأمر الذي أدّى إلى ضعفها واستيلاء الدولة الخوارزمية على ممتلكاتها وأقاليمها. هذه الأخيرة –الدولة– التي عملت على تثبيت وجودها وإحكام سيطرتها بسياسة التوسع التي عُرفت بها أكثر من غيرها لكن دون جدوى، إذ لم تسلم من منافستها العنيدة الدولة الغورية التي كانت مصدر قلق لآل سلجوق من قبل.

على أن دولة الغوريين التي كان لها تأثيرا كبيرا في توجيه الكثير من الأحداث، لم يكن حالها أحسن من سابقاتها؛ فكما حققت انتصارات عرفت انهزامات[1].

هذا الوضع الداخلي المتأزم للأمة الإسلامية، الناتج عن اهتمام سلاطين تلك الدول بالصراع فيما بينها، مما أضعف قواها وفكك وحدتها، كان على حساب إغفال المسلمين لما يحصل على الصعيد الخارجي من تآمر عليهم، ومحاولة توحيد بعض الدول قواها للقضاء على العالم الإسلامي.

هذا الخطر الخارجي، الذي كان يستوجب عليهم الوحدة بدل الفرقة لِصدّ أعداء الدين، الذين شجعهم الوضع الداخلي للمسلمين على انتهاز الفرصة للإغارة عليهم؛ فكانت تلك الحروب الصليبية[2] المستمرّة في أرجاء متعددة من العالم الإسلامي-مشرقه ومغربه- بكل ما حملته من مظاهر سلبية، وما أدت إليه من خصومات ومنازعات داخلية، وما استتبعها من متاعب على جميع المستويات.

إضافة إلى الخطر الذي كانت تشكله طلائع التتار والمغول، وتهديدها لأمن المسلمين في المشرق، إذ عُدّت الحادث العظيم في بلاد المسلمين، بل من أكبر الحوادث في التاريخ الإسلامي.

ثانيا: الوضع الاجتماعي

لقد كان لاضطراب الحياة السياسية في المشرق الإسلامي خلال هذه العهود، انعكاس سلبي على الوضع الاجتماعي، إذ أدّت كثرة الصراعات على كل من الحكم والأقاليم إلى انعدام الأمن في

---

(1) –حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج4، ص161-163.

(2) –حيث كانت أول حملة صليبية سنة 1097م، واستمرت الحملات بعدها مائتي عام.

– أنتوني بردج: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: أحمد غسان سبانو ونبيل الجيرودي، دار قتيبة، دمشق، (د.ط)، 1985م، ص7.

المجتمع، وفقدان الاطمئنان في قلوب الناس، فطرأ اختلال كبير في الحياة الاجتماعية؛ لانعدام الاستقرار الداخلي نتيجة تلك الفتن التي لا تعرف طريقها إلى الهدوء.

علاوة على ذلك، فقد أدى اتساع رقعة الدولة الإسلامية إلى تعدّد عناصر السكان بتعدّد الدويلات، وامتزاج شعوب مختلفة الأجناس والديانات، فعاش إلى جانب المسلمين كل من اليهود، النصارى والمجوس، إذ تمتع أصحاب هذه الديانات في حياتهم بكثير من ضروب التسامح المستمدة من مبادئ الإسلام، فلم يكن للحكام تدخل في إقامة شعائرهم الدينية، بل مارسوها بكل حرية، كما اندمجوا في المجتمع وعملوا في مجالات مختلفة من تجارة، طب[1] وغيرها.

هذا وقد التقت في بلاد المشرق الإسلامي عناصر جنسية متنوعة؛ فوُجد إلى جانب العرب والفرس الأتراك، حيث عرفت الأقاليم الإسلامي تعاقب تلك الأجناس عليها؛ فكان لهذا التنوع أثره في الحياة الاجتماعية، ذلك أن كل جنس يطبع البلاد الخاضعة له بطابعه المميز.

على أن ذلك التباين أفرز اختلافات في العادات والتقاليد، مما كان له أثر على نظام المجتمع، إذ كل جنس حافظ على أمور كان يمارسها، ولم يتخلص منها بالدخول في الإسلام، كعيد النوروز – رأس السنة الفارسية– الذي بقي الاحتفال به وبكل مراسمه الخاصة،بل لتثبيت ذلك في المجتمع حُدّد موعده بما يتناسب مع وقت جمع الخراج ونضج المحصول، من طرف كبار الفلكيين آنذاك[2].

كما كان من آثار ذلك وجود اضطراب شبه دائم داخل المجتمع، وقلة الأمن والاطمئنان[3]، بل إلى جانب نمو روح العصبية عند مختلف الأقوام، وما تلك الاستقلالات في الأقاليم إلا دليل ذلك. إذ كل جنس انفرد بإقليم لِيُكَوِّن بعدها دولة مستقلة عن الخلافة.

ومن أهم مظاهر الحياة الاجتماعية المُمَيِّزة للمشرق الإسلامي في هذه الفترة، انغماس بعض السلاطين وكبار رجال الدولة في الترف. تجلى ذلك في قصورهم الفاخرة، التي كانت تُشبه المدن

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج3، ص424.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج8، ص121.

– إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي السياسي والحضاري، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط1، 1989م، ص193.

(3) لمعرفة المزيد عن آثار ذلك التباين راجع: حمدي حافظ أحمد: الدولة الخوارزمية والمغول، دار الفكر العربي، مصر، (د.ط)، 1949م، ص74، 75.

الكبرى لاتساعها وما احتوت عليه، إذ بالرغم مما كانت تعاني منه الأمة الإسلامية، لم يتخلّ حكامها عن إحاطة أنفسهم بالأبّهة والعظمة على أنواعها المختلفة، حيث مالوا إلى مسرّات الحياة، وانشغلوا بذلك عن النظر في أمور الدولة بأنفسهم، تاركين شؤونها لأعوانهم من كبار الموظفين. هؤلاء الذين لم يكونوا بمنأى عن تقليد أسيادهم[1]، الأمر الذي دفع في كثير من الأحيان بأمراء بعض الأقاليم إلى الامتناع عن دفع الأموال إلى خزائن الدولة، وهو ما كان له أثر سلبي على الوضع الاجتماعي.

كما عرفت مجالس الطرب والغناء والشرب، انتشار واسع في المجتمع، و لم يقتصر ذلك على وسط معين أو فئة محددة، بل وُجدت حتى في قصور بعض السلاطين والأمراء والوزراء، حيث ساعد على كثرتها وجود الجواري المدربات على الغناء، مما جعل كثير من الحكام يولعون بذلك؛ فكانت لهن علاقة بالسلطة، إذ صار كثير منهن زوجات للسلاطين ولرجال الدولة، وأمهات لبعض حكام الأقاليم[2]، وهو ما كان له أثر في المجتمع،وفي توجيه سياسة الدولة أحيانا.

هذا، وقد نتج عن تلك الأوضاع اختلال في التوازن الاجتماعي، الذي تجلى في التمايز بين طبقات المجتمع؛ فمثل الطبقة الأولى السلاطين والأمراء ورجال الدولة، وهم عدد قليل، في حين شملت الطبقة الثانية كل من العلماء، التجار، الصناع والمزارعين، حيث كانت الطبقة الأولى محطّ أنظار هؤلاء؛ فمن العلماء من لا يجد المال إلا بخدمة السلطة، ومن الشعراء من لا يتيسر لهم العيش إلا بمدح السلطان إلى غير ذلك. أما الطبقة الثالثة فيمثلها عامة الناس[3].

كما تميزت بلاد فارس بالمشرق الإسلامي بكثرة عدد الرقيق في المجتمع –خاصة في عهد السلاجقة– إذ انتشرت ظاهر اتخاذ الرقيق، وكانت "سمرقند" من أكبر أسواقه[4]. مما جعل بروزه في المجتمع ظاهرة ملموسة.

ومهما يكن في ذلك العصر من أوضاع اجتماعية بمظاهرها المختلفة، فالملاحظ أنّ سلطة

---

(1) محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج8، ص156، 167، 190.

(2) عبد المنعم محمد حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي، ص179، 180.

(3) محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، ص187-188.

-أحمد أمين: ظهر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط4، 1966م، ج1، ص114، 115.

(4) أحمد أمين: المرجع نفسه، ج1، ص35.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

العلماء كان لها أثر في المجتمع، ومكانة عند السلاطين وإن اختلف الأمر من وقت لآخر ومن مكان إلى غيره،دليله العناية التي أولوها للعلم وأهله -وهو ما سنراه في الوضع الفكري لاحقا-.

كما أن العلماء لم يغفلوا تلك الأوضاع التي كان يعاني منها المجتمع، إذ حملوا لواء الإصلاح والدعوة بقدر المستطاع، يتجلى ذلك في مجالس الوعظ التي كانت منتشرة بكثرة، بهدف محاربة البدع والمناكر، التي تكون قد شاعت آنذاك، وتصحيح معتقدات الناس. مثاله ما حصل مع فخر الدين الرازي الذي كان يستغل الفرص المتاحة له في أي بلاد يدخلها بإقامة مجلس للوعظ[1]. ذلك أن انتشار البدع واختفاء الأخلاق الرفيعة، وانحراف السلوك يؤدي إلى الشعور بالحاجة إلى الإصلاح عن طريق هذه المجالس التي يحضرها الناس على اختلاف فئاتهم ومستوياتهم.

هذا ما يمكن قوله عن الأوضاع الاجتماعية التي أثرت فيها الانقلابات السياسية، وذلك لعدم استقرار بيت الحكم، وانشغال الناس بالفتن والحروب، فماذا عن الوضع الفكري؟ وهل خضعت الحياة الفكرية للظروف السياسية أم تميزت عنها؟

ثالثا: الوضع الفكري

رغم الظروف التي كانت تعيشها الأمة الإسلامية في القرن السادس للهجرة، فقد استفاضت المعرفة وتشعبت فروعها، ذلك أن الحياة الفكرية لم تخضع للأوضاع السياسية والاجتماعية في تغيراتها كليا.

فكانت بلاد المشرق الإسلامي -البيئة التي عاش فيها الرازي- تزخر بألوان الحياة الفكرية، بفضل العلماء الناشئين بها أو الراحلين إليها، الذين أرسوا أسس الحياة العلمية بجل الأقاليم الإسلامية، إضافة إلى اهتمام الحكام بالعلم وأهله، وعُدّ ذلك سمة العصر، «إذ جرى الحكام المسلمون جميعهم بل صغار الملوك أنفسهم على سنة الخلفاء العباسيين في مناصرة الآداب والفنون»[2].

---

[1] -صلاح الدين خليل الصفدي: الوافي بالوفيات، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، ط1، 1420هـ-1999م، ج4، ص250.

- ابن الساعي: الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، المطبعة السريانية الكاثوليكية، بغداد، (د.ط)، 1353 هـ، ج4، ص171.

[2] -ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل، بيروت، ج13، ص221.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومن مظاهر ذلك كثرة المدارس وانتشارها، والفضل في ذلك راجع إلى حكام أرسوا قواعدها كنظام لمؤسسات متخصصة في النشاط العلمي، إذ رغم الفتن والحروب لم يهملوا الجانب الفكري؛ لأنه عنوان جاههم وسلطانهم، مما جعلهم يتنافسون في إقامة مراكز للعلم، وجلب العلماء إلى قصورهم والأدباء إلى بلاطاتهم. مع تشجيعهم على الإبداع والتكفل بهم ماديا، فأدّى ذلك إلى الحدّ من تنقلات طلاّب العلم، بانتقال الشيوخ إلى مراكز المعرفة.

وبذلك استطاعت تلك الدويلات المستقلة أن توطن العلوم في أقطارها، بل نافست عاصمة العلم والخلافة -بغداد-، فاشتهرت مراكز عدة[1] منها: إصبهان، الري، مرو، بخارى، طبرستان، خوارزم، غزنة وغيرها، حيث كانت مدارسها ومجالس أمرائها محاطة بالنخب العلمية في شتى المعارف، وأصبحت حواضر خراسان وبلاد ما وراء النهر قبلة للطلبة والعلماء.

كما دُعمت المدارس بإلحاق خزائن الكتب بها[2]، وإخضاعها لنظم علمية على وجه دقيق، حيث عُزّزت المكتبات بأنفس الكتب، ووجدت إلى جانبها الأربطة وحوانيت الوراقين والمساجد، التي كانت أبوابها مفتوحة لطلبة العلم، ومنتدى للعلماء، مما ساعد على رفع مستوى الثقافة، وإيجاد طبقة على درجة من النضج الفكري.

على أنّ عناية الحكام بالعلم وأهله تجاوزت الرعاية والتشجيع، إلى اشتغالهم بطلب العلم، فمنهم من برز في الحديث والفقه وغيرها من العلوم، ومنهم من استعان بالعلماء في إدارة شؤون الدولة[3].

كما عرف هذا العصر ظاهرة انتشار مجالس المناظرة، التي كانت مفتوحة للعلماء لإيراد الأدلة وعرض الحج بهدف الإقناع ودحض الشبهات حول مسألة معينة، والملاحظ عليها تنوع موضوعاتها؛ لتشمل المسائل العقدية والفقهية[4] وغيرها. يتجلى ذلك من خلال المناظرات التي سجلها لنا الرازي

---

(1) محمد جلال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، ص7.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص91، 229.

(3) عبد المنعم حسنين: إيران والعراق في العهد السلجوقي، ص185.

-حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج4، ص403.

(4) الرازي: المناظرات، تحقيق: عارف تامر، مؤسسة عز الدين، (د.ط)، 1992م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خلال تنقلاته، ولو أن غالبيتها حول أمور العقيدة، إذ الجدل فيها كان له صداه وعمقه في حركة الفكر الإسلامي، خاصة في المناطق التي تموج بمختلف الآراء والمعتقدات مع اشتداد التعصب المذهبي.

وكانت تُعقد في كل من المدارس، المساجد، الأربطة، منازل العلماء، وفي بلاط الحكام، الذين لم يغفلوا عن الاهتمام بها، بل كانوا يحضرونها إلى جانب العلماء وعامة الناس[1]. مع مشاركة الجميع فيها بطرح الأسئلة، مما يدل على أن المجتمع كان على مستوى علمي، وهو ما يتطلب من المناظر أن يكون على قدر عال من المعرفة بشتى العلوم؛ لذلك صُنّفت فيها العديد من الكتب، باعتبارها مظهر من مظاهر التعليم آنذاك، ووسيلة لإيضاح بعض المشكلات الفكرية والمواضيع المختلف فيها. كما كان لذلك أثر في الفكر الإسلامي بظهور العلماء الموسوعيون وما خلفوه من تراث مكتوب.

هذا النقاش الذي يعطينا نظرة عن الحركة الفكرية التي كانت سائدة في أوساط العلماء، ويَنِمُّ عن الصبغة التي ميزت حكام هذه الفترة، وهي روح التسامح مع أهل العلم على اختلاف آرائهم ومعتقداتهم، مما جعل الحياة الفكرية تتميز عن باقي الأوضاع، ويؤكد هذا واقع العلوم «إذ كانت بلاد الإسلام حتى هذه الفترة من عهود الاضمحلال تتزعم العالم كله في الشعر والعلم والفلسفة»[2].

ولكي نتبين صورة ذلك الوضع، نتناول أهم سمات العلوم في هذا العصر، وذلك من جهات مختلفة:

ففي الفقه نجد استقرار المذاهب الأربعة –المالكي، الشافعي، الحنبلي والحنفي–، إذ غلبت روح التبعية والتقليد لها، وذلك باتجاه الشيوخ إلى تدوين ما كانوا يلقونه من دروس ومناقشات وتلخيصها، فابتعدوا عن روح الاجتهاد، لكن هذا لا ينفي وجود محاولات للتخلص من سيادة تلك المذاهب، وكان ذلك مع العز بن عبد السلام بتأليفه "المدخل في الرد إلى الأمر الأول"، الذي نبه فيه إلى عدم ضرورة التقيد بآراء الأئمة الأربعة في الفتيا، مما عرضه إلى تهمة القول بمذهب خامس[3]، فدافع عن نفسه باعتبار أن أولئك الأئمة ليسوا رسلا حتى لا تجوز مخالفتهم أو الزيادة عليهم.

---

(1) ابن الساعي: الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، ج9، ص171.

(2) ول ديورانت: قصة الحضارة، ج13، ص221.

(3) محمود شلبي: حياة سلطان العلماء العز بن عبد السلام، دار الجيل، بيروت، ط1، 1412هـ-1992م، ص160-161.

على أنّ كل دولة كانت تعمل على نشر المذهب الذي تتبناه، مع عدم التعصب له باضطهاد غـيره، لأن التعصـب المذهبي من الملك القبيح -على حد قول السلطان غياث الدين الغوري- وإن اختلف ذلك من فترة لأخرى.

وعـن الحـياة الروحـية، نجد أنّ أهم ما ميز هذه الفترة في المشرق الإسلامي، نشاط الفكر الصوفي، يتجلى ذلك في انتشاره بين مختلف أوساط المجتمع بما فيهم العلماء، الأمر الذي يعد استمرارا لمـا أحدثـه الغـزالي أبي حـامد في القرن الخامس للهجرة، ومما ساعد على ذلك اضطراب الحياة السياسـية، وعـدم اسـتقرار الأوضاع الاجتماعية، وما نتج عنه من الانهماك في الملذّات والميل إلى مسـرّات الدنـيا، إضافة إلى التعصب والتراع بين المذاهب الفكرية التي كان سلاحها العلم لفرض آرائهـا، ممـا أدّى إلى ردّ الفعل عند الورعين بالابتعاد عن هذا الجو والزهد في الحياة[1]، ومن الذين مثلوا هذا المنحى أعلام مازالت آثارهم باقية إلى اليوم، منهم: محي الدين بن عربي[2]، السهروردي[3]، عبد القادر الجيلاني[4] وغيرهم.

أمـا التفسـير، فما تميز به كان نتيجة للمرحلة السابقة لهذه الفترة، إذ تدرج بتدرج الحياة،

---

(1) -لمعرفة المزيد عن الحياة الروحية راجع: عبد المنعم محمد حسنين: إيران والعراق في العهد السلجوقي، ص172، 173 - علي سامي النجار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ط9، (د.ت)، ج1، ص53.

(2) -محـيي الديـن محمـد بـن عربي بن محمد الطائي، الفيلسوف، المتصوف، عاش ما بين (560هـ و638هـ) له "الفتوحات المكية"، "التجليات". خير الدين الزركلي: الأعلام، مج7، ص170-171.

(3) -أبو الفتوح شهاب الدين بن يحي بن حبش بن أميرك السهروردي، اختلف في أمره بين كونه عابدا زاهدا وبين زندقته واسـتخفافه بالدين، حُكم عليه بالموت، فكان ذلك بحلب سنة (587هـ-1191م)، وفيها كانت ولادته سنة (549هـــ-1154م)، مـن الذين تتلمذوا مع فخر الدين الرازي على مجد الدين الجيلي، له "التلويحات"، "الألواح العمدية"، "هياكل النور". -خير الدين الزركلي، المرجع السابق، مج5، ص140.

(4) -عـبد القـادر بن موسى بن عبد الله بن حنبكي أبو محمد محي الدين الجيلاني أو الكيلاني أو الجيلي، من كبار الزهاد والمتصوفة، ولد في جيلان -وراء طبرستان- سنة (471هـ-1078م)، وعاش في بغداد، برع في الأدب والفقه والوعظ، وهـو مؤسس الطريقة القادرية، توفي سنة (561هـ-1166م)، له "الغنية لطالب طريق الحق"، "الفتح الرباني"، "فتوح الغيـب". -عـبد الحي بن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ج4، ص198.

- جمـال الديـن يوسـف: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق: إبراهيم علي طرخان، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، (د.ت)، ج5، ص371.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وكان لتعدّد المذاهب الفكرية أثر في توجيهه، حيث تتخذ النص القرآني سندا لمبادئها؛ لذلك تعددت مناهجه بتعدد أنواعه[1]، فكانت تلك القائمة من العلماء الذين فسروا كتاب الله، ودونوا إياه في مؤلفات لا تزال إلى يومنا شاهدة على ذلك، منهم: ابن جزي[2]، الكبري[3]، النعماني[4]، ابن الجوزي[5] وغيرهم.

وفي هذا العصر نجد التفسير العقلي -أو بالرأي- قد بلغ ذروته مع المعتزلة، وكان تفسير الزمخشري "الكشاف عن حقائق التتريل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" النموذج الأمثل لهذا النوع؛ لذلك عرف إقبالا آنذاك نظرا لبراعة صاحبه في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان، وقدرته على استخدامهما في معرفة أسرار بلاغة القرآن ودلائل إعجازه. لكن هذا اللون ذهب في تأويل الآيات المتشابهات وجوها أثارت حفيظة الفقهاء والمحدثين لعدم تماشيها الحكمة القرآنية[6]، الأمر الذي استوجب تفسيرا من نوع جديد يتناول النواحي الحكمية والعلمية، الدافعة إلى

---

(1) -جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص190.

(2) -أبو أحمد بن جزي الكلبي، فقيها ومفسرا، توفي سنة (620هـ-1223م)، له "تفسير القرآن العزيز".
-عادل نويهض: معجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، ط1، 1404هـ-1984م، مج1، ص32.
- محمد بن علي الداودي: طبقات المفسرين، تحقيق: محمد علي عمر، مكتبة وهبة، مصر، ط1، 1392هـ-1972م، ج1، ص101.

(3) -أحمد بن عمر بن محمد بن عبد الله نجم الدين أبو الجناب الكبري الخيوقي، عاش ما بين (545-618هـ/1145-1221م) محدث ومفسر، من فقهاء الشافعية، استشهد في غزوة التتار ببلاد فارس، له "تفسير القرآن" في إثني عشرة مجلدا.
-عبد الحي بن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج5، ص79.
- عادل نويهض: المرجع السابق، مج1، ص53.

(4) -الحسن بن الخطير بن أبي الحسن علي الفارسي ظهير الدين أبو علي النعماني، عاش ما بين (547-598هـ/1152-1202م)، عالم في اللغة والتفسير، إضافة إلى براعته في المنطق والحساب والطب، من فقهاء الحنفية، له "تفسير القرآن"، يعرف بـ"تفسير النعماني". -عادل نويهض: المرجع نفسه، مج1، ص139.
-إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين، وكالة المعارف، استانبول، (د.ط)، 1955م، ج1، ص280.

(5) -عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي القرشي التيمي البكري جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي، عاش ما بين (508-597هـ/1114-1201م) ببغداد، مفسر، مؤرخ ومحدّث، من علماء الحنابلة، له "أسباب الترول"، "تفسير البيان في تفسير القرآن". -عادل نويهض: المرجع السابق، مج1، ص268، 269.

(6) -محمد الفاضل بن عاشور: التفسير ورجاله، دار الكتب الشرقية، تونس، (د.ط)، 1972م، ص108.
-محمد العربي بوعزيز: نظرية المعرفة عند الرازي من خلال تفسيره، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1999م، ص66.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإقرار بوحدانيته تعالى وحكمته، التي تمكن الناس من الانتفاع بما خلق تعالى في هذا الكون.

لذلك تحول مسار التفسير إلى اعتناء أهله بالنظر في خلق الله والغوص فيما في القرآن من لطائف ودلالات علمية، لكن بداية الاهتمام بالأمر كانت مع أبي حامد الغزالي في كتابه "إحياء علوم الدين" و"جواهر القرآن"، الذي يقرّ بأنّ القرآن يشتمل على جميع العلوم، وكل ما أُشكل فهمه على النظّار واختلفت فيه الخلائق، في القرآن إليه رموز ودلالات عليه، يختص أهل الفهم بإدراكها[1]، وإن كان هو أول من نبه إلى ضرورة الاستعانة بالعلم بتفسير القرآن الكريم، ومن الداعين إلى التفسير العلمي، بل من واضعي أسسه النظرية، إلا أنه يبقى قوله نظريا إلى حدّ بعيد، ذلك أنّ تطبيقه يتجلى أكثر في القرن السادس الهجري مع فخر الدين الرازي، إذ طبّق ذلك عمليا[2]، في تفسيره "الكبير" مع حرصه على تفوق الحكمة القرآنية على سائر الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، مستفيدا من العلوم المتوفرة في بيئته؛ فعُدّ أول من استحدث التفسير الكوني[3]، وهو ما تميز به التفسير في هذا العصر، إذ امتزجت العلوم الكونية والإنسانية بالتفسير.

تلك العلوم -الكونية والإنسانية- التي حظيت هي الأخرى بالرعاية والتشجيع، حيث وصل المسلمون تقدمهم في كثير من العلوم كالطب والكيمياء والرياضيات وغيرها[4]، وذلك باستفادتهم من تراثهم، مع ما وجدوه في حضارة كل من الفرس والهنود والإغريق؛ إذ بعد أن استوعبوها عملوا على استنباط ما هم بحاجة إليه، مما مكنهم من توجيه ما أخرجوه مصبوغا بالصبغة الإسلامية؛ ليكون العلم عاملا على تقوية الإيمان بالله خالق الكون، والذي بيده ملكوت كل شيء.

فمثّل واقع هذه العلوم بروز أعلام كبار في شتى المعارف[5]، كانوا شاهدين على التطور العلمي لذلك العصر، بما تركوه من مؤلفات باللغتين العربية والفارسية، من هؤلاء نجد كل من

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) -أبو حامد الغزالي: جواهر القرآن، تحقيق: محمد رشيد رضا القباني، دار إحياء العلوم، بيروت، ط2، 1406هـ-1986م، ص44-47.

(2) -أحمد عمر أبو حجر: التفسير العلمي للقرآن الكريم في الميزان، ص145.

(3) -أحمد محمود صبحي: في علم الكلام، دار النهضة العربية، بيروت، ط5، 1405هـ-1985م، ج2، ص278.

(4) -قدري حافظ طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (د.م)، ط2، 1374هـ-1954م، ص314-349.

(5) -مؤسسة سلطان بن عبد العزيز: الموسوعة العربية العالمية: ج16، ص422-424، 443، 455، 544، 545.

الاسطرلابي [1]، ابن الياسمين[2]، السموءل[3]، ابن الأثير[4]، الحافظ السمعاني[5]، ياقوت الحموي[6]، ابن الصلاح[7]، فخر الدين الرازي، وقبلهم البيروني[8] والخيام[9].

وفـيما يتعلق بالفكر العقدي في هذه الفترة، نجده قد ظلّ محافظا على نشاطه نظرا لتوفر عدة

(1) ـهبة الله بـن الحسـين بن يوسف: من كبار علماء الطب والفلك، فيلسوف عصره في بغداد، مخترع الآلة الفلكية الأسـطرلاب، تـوفي سنة (534هـ-1139م)، له "زيج"، "المغرب المحمودي". -خير الدين الزركلي: الأعلام، مج8، ص71.

- جمال الدين بن يوسف: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج5، ص275.

(2) ـعبد الله بـن محمد بن حجاج أبو محمد، عالم بالحساب، من المغرب الأقصى، توفي سنة (601هـ-1204م)، له "أرجوزة في الجبر والمقابلة"، "أرجوزة في الجذور". -خير الدين الزركلي: المرجع السابق، مج4، ص124.

(3) ـالسموءل بن يحي بن عباس المغربي، رياضي، مهندس، وعالم في الطب والحكمة، توفي سنة (570هـ-1175م).

-خير الدين الزركلي: المرجع نفسه، مج3، ص140.

- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1401هـ-1981م، ج2، ص30.

(4) ـعلي بن محمد بن عبد الكريم الواحد الشيباني أبو الحسن، المؤرخ والأديب، من علماء الموصل، عاش ما بين (555-630هـ/1160-1233م)، له "الكامل"، "اللباب"، "الجامع الكبير". - شمس الدين بن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، مج1، ص347.

(5) ـعـبد الكـريم بن محمد بن منصور التميمي، مؤرخ، من حفاظ الحديث، عاش ما بين (506-562هـ/1113-1167م)، له "الأنسـاب"، "أدب الإمـلاء والاستملاء"، "تبيين معادن المعاني". -أحمد بن مصطفى طاش كبرى زاده: مفـتاح السـعادة ومصـباح السيادة في موضوعات العلوم، ط1، مكة المكرمة، دار الباز، 1405هـ-1985م، ج1، ص211.

(6) ـياقوت بن عبد الله الرومي الحموي شهاب الدين، مؤرخ وجغرافي، أصله من الروم، عاش متنقلا في بلاد فارس ما بين (574-626هـ/1178-1229م) له "معم البلدان"، "معجم الأدباء"، "المبدأ والمآل". -ابن خلكان: المرجع السابق، مج2، ص210.

-خير الدين الزركلي: المرجع السابق، مج8، ص131.

(7) ـنجم الدين أبو الفتوح أحمد بن محمد السري، طبيب وعالم في الحكمة، أصله من همذان، توفي بدمشق بعد 540هـ، له "مقالة في الشكل الرابع من أشكال القياس الحملي"، "الفوز الأصغر في الحكمة". -ابن أبي أصيبعة: المرجع السابق، ج3، ص270-273.

(8) ـمحمد بن أحمد أبو الريحان، رياضي وفيلسوف ومؤرخ، تنقل بين بلاد فارس والهند، عاش ما بين (332-440هـ/973-1048م)، له "القـانون المسعودي"، "الاستيعاب في صنعة الاسطرلاب". -خير الدين الزركلي: المرجع السابق، مج5، ص314.

(9) ـعمـر بن إبراهيم أبو الفتوح، عالم، حكيم وشاعر، رياضي وفلكي، ارتاد فيهما اكتشافاته، فهو أول من حل المعادلة التكعيبـية وأنشـأ الرصد لاستطلاع حركات أجرام السماء، وبذلك جمع بين علوم الدين والعلوم الكونية على اختلاف فـروعها، له "الجـبر والمقابلة"، "ميزان الحكمة"، توفي سنة (517هـ-1123م). -عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، (1414هـ-1993م)، ج2، ص549.

عوامل ساعدت على ذلك، وفي مقدمتها أن تلك المنطقة كانت أرضية للعديد من المذاهب، التي أدى احتكاكها ببعضها إلى جدل فكري دائم مسّ أمور العقيدة. كما شهدت تحديات وُجِّهت إلى أصول الدين بالدرجة الأولى،نتيجة مجاورة المسلمين لمختلف أهل الملل والنحل.

على أنّ ما ميز هذه الفترة كثرة الفرق الإسلامية، إذ الاتجاه السني للحكام آنذاك لم يمنع من انتشارها[1]؛ فوُجدت إلى جانب الأشاعرة كل من المعتزلة، الشيعة والكرامية، وغيرها، وذلك راجع إلى التأثير السياسي على المذاهب الفكرية، المتمثل خصوصا في فرق غلاة الشيعة كالإسماعيلية التي كانت مصدر خطر داخلي هدد أمن المجتمع لفترة طويلة[2]، نظرا لما كانت تقوم به اتجاه الخلافة، إذ رغم ضعفها –مع مرور الزمن– بقيت تبرهن على وجودها بانتفاضاتها السرية، وهو ما يؤكده الرازي بقوله: «وإن كانت شجرة ملوك مصر قد انقطعت في زماننا، إلا أن فتنة الحسن بن صباح قائمة بعد»[3]، أي أنّ زوال الدولة الفاطمية لم يقض على فرقة الشيعة التي بقت تمثلها الإسماعيلية ببلاد فارس، أين عرفت انتشارا كبيرا بقيادة بن صباح في قلعة "الموت"[4].

إضافة إلى ذلك نلمس روح التسامح لدى الحكام، جسده تعظيمهم للعلماء مهما كان اتجاههم، وتلك المناظرات التي كانت تُعقد في المجالس بين أصحاب مختلف المذاهب، لكن هذا لم يمنع وجود صراع بينها[5]، بل كانت هناك صولات وجولات يُضطر فيها أحيانا الحكام إلى إخمادها بالقوة. ويختلف هذا الوضع باختلاف المكان والزمان.

---

(1) –حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج3، ص109.
–حسن أحمد محمود وإبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص450.
–ابن الساعي: الجامع المختصر في عنوان تواريخ السير ، ج9، ص4.

(2) –حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج4، ص256-258.
–ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص116.
–جلال الدين السيوطي: تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ص 284.

(3) –الرازي اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد ومصطفى الهواري، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، (د.ط)، 1978م، ص120.

(4) –محمد سعيد جمال الدين: دولة الإسماعيلية في إيران، الدار الثقافية، القاهرة، (د.ط)، 1999م، ص101-102.

(5) –ذلك الصراع الذي اصطلى بناره الرازي وغيره. –ابن الأثير: المرجع السابق، ج12، ص114، 115.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لكـــن الملاحظ على المذاهب العقدية هو الاتجاه السني لحكام تلك الدول التي تقاسمت المشرق الإسلامي حينها، إذ كانت على مذهب أهل السنة مع نزعة أشعرية، مما جعل هذه الأخيرة تبرز أكثر مـــن غيرهـــا، ذلك لطبيعة ذلك المذهب في هذه الفترة، المتوسط بين مبالغة المعتزلة في التتريه ونزوع الحشوية إلى التجسيم(1).

بينما ضعفت المذاهب الأخرى واختفى بعضها، من ذلك مثلا أن الرازي في حديثه عن الفرق الموجـــودة في عهده، يقول عن المعتزلة: «ولم يبق في زماننا من سائر فرق المعتزلة إلا هاتان الفرقتان، أصحاب أبي هاشم وأصحاب أبي الحسين البصري»(2)، ويقصد بهما الفرقة الخياطية والفرقة الحسينية.

مقـــابل ذلك كانت فرق الشيعة الغالية تضمحل وتتخلى عن مسارها، كالإسماعيلية التي نجد مـــن أتـــباعها من تخلوا عن مذهبهم –حتى في عاصمة الفاطميين–، إذ بعثوا إلى خليفة بغداد آنذاك يخـــبرونه بتبرئهم من باطنيتهم؛ فبنوا المساجد وأقاموا التراويح والجمعات، وأنشأوا المدارس لدراسة السنة النبوية(3).

ولعـــل أهـــم مـــيزة لوضـــع الفـــرق الإســـلامي ذلـــك التقارب فيما بينها، الذي كان مـــن مظاهـــره دخـــول الاعـــتزال في بطـــن التشـــيع(4)، مـــثّله كـــل مـــن ابن أبي الحديد(5)،

(1) –علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج1، ص229.

(2) –الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص48.

(3) –جمال الدين يوسف: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج6، ص203.

(4) –ابن سينا: الإشارات والتنبيهات مع شرح الطوسي، تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، (د.ط)، 1960م، ج 1، ص119، (مقدمة المحقق).

–عائشـــة يوسف مناعي: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية، دار الثقافة، الدوحة، ط1، 1412هـــ-1992م، ص449.

–ابـــن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، (د.م)، ط3، 1399هـــ-1979م، مج1، ص13-15.

(5) – هو عز الدين أبو حامد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد المدائني، عاش في العصر العباسي الثاني ما بين (586-656هـــ) فقيها وأصوليا، مؤرخا ومن جهابذة الأدب، بعد أن كان شيعيا أصبح معتزليا، له "شرح المحصل للإمام =

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والطوسي[1]، واحتواء المذهب الأشعري أحد مقومات الفكر الاعتزالي، وهو مبدأ التنزيه للذات الإلهية، والمواءمة بينه وبين نزعة الإثبات، وإن كانت موجودة فيه من قبل، فإن بروز هذا الاتجاه والإيغال فيه كان عند المتأخرين من الأشاعرة كالرازي والآمدي[2]، مع اختلاط أبحاث المذهب بتراث المدرسة المشائية عند المسلمين[3].

ومع هذا التقارب نجد ذلك الخلاف الذي كان بين الأشاعرة والكرامية في المشرق والحنابلة وبعض السلفية في بغداد والشام[4]، والذي عانى منه الآمدي والعز بن عبد السلام. على أن وجود هذه الفرق المختلفة في الفكر العقدي ساعدعلى تنشيط الحياة الفكرية والإنتاج العلمي، ذلك لأنها اتخذت العلم وسيلة لترويج أفكارها، والإقناع بصحتها، سواء عن طريق التأليف أو التعليم ومجالس المناضرة.

إلى جانب ذلك نجد أن أهم ما ميز علم الكلام هو امتزاج موضوعاته بموضوعات الفلسفة حتى التبس على المتأخرين على حد تعبير ابن خلدون[5] شأن الموضوعين في العلمين فحسبوه واحدا

=الرازي"، "انتقاد المستصفى"، "شرح نهج البلاغة". -شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق: بشار عواد ومي هلال السرحان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1405هـ-1985م، ج13، ص316.

(1) -هو محمد بن محمد الحسن نصير الدين الطوسي العجمي، الفيلسوف صاحب العلوم الرياضية والرصد، أستاذه المعين بن بدران المصري المعتزل الرافضي، من الشيعة الإمامية الإثنا عشرية، التحق بالقرامطة الإسماعيليين. له "تجريد الاعتقاد"، "شرح الإشارات لابن سينا"، "التذكرة في علم الهيئة"، عاش ما بين (597-672هـ).

-عبد الحي بن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج5، ص339-340.

-عبد الله نعمة: فلاسفة الشيعة حياتهم وآراؤهم، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ص422-503.

-إيلي ألفا روني: موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1992م، ج2، ص66-67.

(2) -علي بن أبي علي محمد بن سالم يلقب بسيف الدين، وبالآمدي، الحنبلي ثم الشافعي المذهب، من علماء الأشاعرة، عاش ما بين (550هـ-631هـ) بفارس، له "غاية المرام في علم الكلام"، "دقائق الحقائق". -ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج2، ص174.

(3) -وهو ما لاحظه ابن تيمية من تطور على المذهب الأشعري. -انظر: مجموع الفتاوى، ج5، ص72، 156، 240، 288.

-محمد صالح الزركان: الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية، دار الفكر، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، ص610-629.

(4) -ابن تيمية: المرجع السابق، ج5، ص287-289.

(5) -عبد الرحمن بن خلدون:ا لمقدمة، موفم، الجزائر، (د.ط)، 1991م، ص465، 466.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من اشتباه المسائل فيهما، وكان ذلك بداية من القرن السادس للهجرة مع الرازي، وبعده الإيجي، فكانا نموذجا للكلام الجديد الذي عُرف بكلام المتأخرين.

وإن كانت الفلسفة في هذه الفترة قد عرفت نوع من الاضمحلال، إذ وُجدت عوامل ساعدت على ركود الدراسات الفلسفية، منها استمرار الصرع بين الفلاسفة من جهة، والمتكلمين من جهة أخرى، وذلك انطلاقا من القرن الخامس الهجري حتى عهد الرازي، والذي انتهى بتقاربهما -نتيجة آثار حملة أبي حامد الغزالي على الفلاسفة وتشدد الحكام-، لكن وإن مالت الدولة إلى مراقبة حركة الفكر الفلسفي والتضييق عليها، إلا أن سماحة الحكام -إلى حدّ ما- حالت دون تورطهم في الحد من نشاطها، مما لم يقض على الدراسات الفلسفية[1]، حيث عاصر الرازي فلاسفة أفذاذ منهم ابن رشد[2]، ابن ميمون[3] وغيرهما؛ فكانت فترة حافلة بعدد كبير من العلماء لا زالوا يحتفظون بمكانة هامة في أوساط الفكر الفلسفي[4].

ويمكن القول أن الفلسفة اختلطت بعلم الكلام حتى تكتسب حق البقاء، كما نجده مع الرازي والآمدي، لكن هذه المحاولة واجهت بعض الصعوبات، وهو ما يُستفاد من كلام الرازي في ختام كتابه "اعتقادات فرق المسلمين والمشركين" الذي جاء فيه: «إذ ظلت النظرة إلى علوم الأوائل والمشتغلين بها نظرة عدائية طوال هذا العصر من طرف الكثيرين»[5].

---

(1) -وقد يكون أقصى ما حدث هو قتل السهروردي بحلب سنة 588هـ. -جمال الدين يوسف: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج6، ص114-115.

(2) -هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي المالكي، الفيلسوف والفقيه، السياسي والقاضي، عالم في الطب، وُلد بالأندلس سنة 520هـ، توفي بمراكش سنة 598هـ، له "الكليات"، "الضروري في المنطق"، "مقالة في العقل". -ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج3، ص122-127.

(3) -هو موسى بن ميمون بن يوسف بن إسحاق، ولد في قرطبة سنة (529هـ-1135م)، توفي في فلسطين سنة (601هـ-1204م)، طبيب وفيلسوف يهودي، تظاهر بالإسلام، لكن عاد يهوديته، تفقه بالمالكية، له العديد من المؤلفات بالعربية والعبرية، منها: "المقدمات الخمس والعشرون"، "الفصول"، "أدلة الحائرين". -خير الدين الزركلي: الأعلام، ج7، ص329-330.

-إيلي ألفا روني: موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب، ص40-41.

(4) -محمد صالح الزركان: فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية، ص9-10.

(5) -الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص129.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تلـــك هي أهم مميزات الجانب الفكري للفترة التي عاش فيها مفكرنا، حيث بلغت فيه العلوم أوجهـــا على يد علماء مسلمين، فشمل التراث العلمي كل ميادين المعرفة، وكانت غزارة في الإنتاج في العلـــوم الإنســـانية والكونـــية، ممـــا جعل هذا الجانب خلافا لما كانت عليه الأوضاع السياسية والاجتماعـــية، الـــتي حملت ميزة الضعف وعدم الاستقرار. ويمكن القول أن هذا العصر كان عصر اضمحلال بآفاق مشرقة مشرّفة، وفي ظل ظروفه كانت حياة الرازي.

المطلب الثاني: حياة فخر الدين الرازي

أولا: مولده ونشأته

يـــتفق الذين ترجموا له؛ فيذكرون لنا اسمه ونسبه وكنيته دون خلاف فيما أوردوه، فهو محمد بـــن ضياء الدين عمر بن الحسين بن علي، يكنى بأبي عبد الله[1]، القرشي[2]، التيمي[3]، البكري[4]، الطبرستاني[5] الأصل، الرازي[6] المولد، المعروف بابن الخطيب؛ لأن والده كان خطيبا بمسقط رأسه.

---

(1) ـعـبد الرحيم الأسنوي: طبقات الشافعية، تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1407 هـ-1987م، ج2، ص123.

ـابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مج4، ص248.

ـعبد الحي بن عماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج5، ص21.

(2) ـإسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين، ج1، ص211.

(3) ـنســبة إلى قبــيلة "تيم". ـالحافظ بن كثير: البداية والنهاية، منشورات مكتبة المعارف، بيروت، ط6، 1406هـ-1985م، ج13، ص55.

ـسلطان طريخم المذهن السرحاني: أنساب قبائل العرب، دار الثقافة، قطر، (د.ط)، (د.ت)، ص37.

(4) ـنسبة إلى ذرية أبي بكر الصديق رضي الله عنه. ـمحمد بن علي الداودي: طبقات المفسرين، ج2، ص214.

(5) ـأصله من "طبرستان" وهي منطقة مجاورة للري في إيران، كانت بها عائلته، ثم انتقلت إلى الري، وتقع طبرستان جنوب بحـــر قزوين، خرج منها من لا يُحصى كثرة من أهل العلم والأدب والفقه. ـياقوت الحموي: معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1410هـ-1990م، ج4، ص14-15.

(6) ـنســبة إلى مســقط رأســه بلدة "الري"، على غير قياس، تقع في الجنوب الغربي من طهران عاصمة إيران، وهي من أمهـــات البلاد وأعلام المدن، فُتحت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حوالي سنة 20هـ، أنجبت العديد من العلماء، لذلك فإن النسبة إليها لم تعد تخص علم معين، وإنما يُعرف من ينتسب إليها بالاسم واللقب. ـياقوت الحموي: المرجع نفسه، ج 4، ص255.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أمـــا ولادتـــه فكانت في مدينة "الري"، بتاريخ ميلاد كان محل اختلاف بين المترجمين له، إذ هـــناك مـــن أثبـــت ســـنة ثلاث وأربعين وخمسمائة[1]، وأقرّ البعض سنة أربع وأربعين وخمسمائة للهجرة[2].

ولكي يكون تحديد تاريخ ميلاده أقرب إلى الحقيقة، نرجح التاريخ الثاني آخذين بعين الاعتبار مـــا جاء في تفسير الرازي قوله: «هذا الوقت الذي بلغت فيه إلى السابع والخمسين»[3]، حيث كان ذلك في شعبان سنة إحدى وستمائة للهجرة أو بعدها بقليل.

كما اختُلف أيضا في تحديد يوم ولادته بين الخامس عشر[4]، والعشرين[5] من شهر رمضان. هـــذا وقد أُتبع ذلك باختلاف المصادر في التقويم الميلادي[6] لتاريخ ميلاده، وإن اتفقت الأغلبية على سنة مائة وتسع وأربعين بعد الألف.

ومن ثمة يكون الرازي قد عاش معظم حياته في القرن السادس الهجري- الثاني عشر للميلاد- وشهد نهايته، كما استقبل سنين من القرن السابع للهجرة.

لقـــد كانت نشأته منذ صغره على مائدة الدين والعلم، إذ تربى في بيت زهد وأخلاق، والده أحـــد عـــلماء الأشاعرة، وفقهاء الشافعية، عُرف بعلمه وزهده، حيث تفقه واشتغل بعلم الخلاف والأصول حتى تميز تميزا كبيرا. كان يُدرِّس بـــ"الري" ويخطب في أوقات معلومة فيها، ونظرا لحسن ما يورده وبلاغته اشتهر بين العام والخاص في تلك النواحي، وأصبح يجتمع عنده خلق كثير. له عدة تصانيف متنوعة منها: "غاية المرام في علم الكلام"، الذي يعدّ من أنفس الكتب.

كما كانت من ثمار الرجل كل من فخر الدين وأخوه الأكبر منه سنا، الأقل منه شهرة الملقب

---

(1) ـابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج1، ص59.

(2) ـعبد الحي بن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج5، ص21.

(3) ـالرازي: التفسير الكبير، ج18، ص145.

(4) ـعبد الرحيم الأسنوي: طبقات الشافعية، ج2، ص124.

(5) ـابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج4، ص252.

(6) ـمحمد صالح الزركان: فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية، ص16. (فإنه حقق في هذه المسألة).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بـــ"ركن الدين"[1].

على يد هذا الأب الأصولي، المتكلم والصوفي تتلمذ الرازي، إذ لازم والده في تلقي العلم إلى أن وافـــته المنـــية –ســـنة 559هـــ-؛ لذلك نجد الابن يذكر أباه على أنه شيخه وأستاذه، ويلقبه بـــ"الإمام السعيد"، بل يستشهد به كلما وجد فرصة فيها سندا علميا لآرائه[2].

وبعـــد وفـــاة الوالـــد، بـــدأ الرازي رحلاته لطلب العلم، وجهته الأولى كانت إلى الكمال السمناني[3]، فأخذ عنه الفقه، ثم عاد إلى "الري"، حيث التحق بمجد الجيلي[4]، فلازمه في تلقي العلم حتى بعد خروج هذا الأخير إلى "مراغة"[5]، ليكون بذلك أستاذه لمدة طويلة في كل من علم الكلام والفلسفة.

هـــذا، ولم تقتصر دراسة الرازي على تلك العلوم التي كان يتلقاها من الشيوخ فحسب، إنما درس أيضا النحو واللغة والطب وغيرها من العلوم، التي أتقنها وبرز فيها فيما بعد، لكن المصادر التي ترجمت له[6]، وتناولت حياته لم تذكر لنا شيوخه في هذه المعارف، مما يمكننا من القول أنه قد يكون اعـــتمد عـــلى نفسه في تحصيل بعض المعارف من مصادرها، والأمر ليس بالمستحيل في حقه نظرا لما كان يتميز به، وهو ما سنقف عليه في عرض جوانب من شخصيته.

---

(1) –ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج3، ص37.

(2) –راجع على سبيل المثال: التفسير الكبير، ج13، ص201. –ج27، ص48.

(3) –هو كمال الدين أبو نصر أحمد بن زيد السمناني، تفقه على محمد بن يحي، توفي بنيسابور سنة 575هـــ، له "التعليقة المشهورة في الخلاف والجدل". –عبد الرحيم الأسنوي: طبقات الشافعية، ج1، ص338.

(4) –هو أبو علي يحي بن الربيع بن سليمان الواسطي، مدرس النظامية، ولقبه مجد الدين، ولد بـــ"واسط" سنة 528هـــ، رحل إلى نيسابور وعاد إلى بغداد، اشتهر بالتفسير والأصولين، له تفسير في أربع مجلدات، كانت وفاته سنة 607هـــ.
– عبد الرحمن أبو شامة المقدسي: تراجم رجال القرنين السادس والسابع، دار الجيل، بيروت، ط2، 1974م، ص69.

(5) –هـــي مـــن المدن الإيرانية، تقع شرقي بحيرة "أرمية" عاصمة "أذربجين"، وعاصمة "هولاكو" قديما، عرفت واشتهرت بذلك المرصد والمكتبة الكبيرة اللذان يعود الفضل في وجودهما إلى نصير الدين الطوسي. –ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص109-110.

(6) –منها: –ابن أبي أصيبعة: ، المرجع السابق، ج3، ص37.
–عبد الحي بن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج5، ص21.
–عبد الرحيم الأسنوي: المرجع السابق، ج2، ص124.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانيا: جوانب من شخصيته

لنشأة الرازي أثر فعال في حياته، إذ تحققت له شخصية علمية متميزة؛ فكان المتكلم، الفقيه، المفسر، العالم بالطب والفلك، وهو ما يؤكد مدى إفادته من الإطار الفكري لعصره، باطلاعه على مختلف الثقافات واستيعابه للعديد من العلوم، وانعكاس ذلك على شخصيته العلمية، مما جعل قاعدته الثقافية واسعة ومتعددة الأبعاد.

تلك الثقافة الموسوعية التي تميز بها لم يكتسبها من تكوين شذّ به عن غيره من علماء عصره، إنما كانت نتيجة حبه للعلم والدأب على طلبه، حيث يقول: «إنني أتأسف في الفوات عن الاشتغال بالعلم في وقت الأكل، فإن الوقت والزمان عزيز»[1]، فاستغلال الوقت هو الذي مكّنه من استيعاب المعارف الإنسانية التي توفرت في زمنه، والدأب على طلبه جعله يتوسع في حقل مختلف العلوم، كما ورد في وصيته: «فاعلموا أني كنت رجلا محبا للعلم، فكنت أكتب في كل شيء»[2]، والكتابة لا تكون إلا عن علم ودراية، وهو ما تؤكده رحلاته العلمية سواء الخاصة بطلب العلم في مرحلة تكوينه، أو تلك التي كانت بعد نضجه الفكري. كما تتجلى موسوعيته في تصانيفه التي كانت متنوعة المعارف.

إضافة إلى ما وُهب من صفات ميزته عن غيره، إذ اجتمع له خمسة أشياء ما جمعها الله لغيره فيما علمته من أمثاله -يقول الصفدي- «وهي سعة العبارة في القدرة على الكلام، وصحة الذهن، والاطلاع الذي ما عليه مزيد، والحافظة المستوعبة، والذاكرة التي تعينه على ما يريد في تقرير الأدلة والبراهين، وكان فيه قوة جدلية ونظر دقيق»[3].

هذه الخصائص التي نلمسها أكثر في مؤلفاته، والتي جعلت حظه وافرا في الإفادة من الموروث الفكري الإنساني، ومن الاتجاهات الفكرية المتعددة في عصره، حيث لم يكتف بالاطلاع على فكر من تقدمه من علماء وفلاسفة المسلمين، بل سبر أغوار الثقافات الأخرى، واطلع على ما جاء في كتب اليهود والنصارى وغيرهم من الملل والنحل، وهو ما نجده في ثنايا كتبه التي تؤكد سعة اطلاعه

---

(1) -ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج3، ص24.

(2) -الرازي: التفسير الكبير، ج1، ص-ل.

(3) -صلاح الدين الصفدي: الوافي بالوفيات، ج4، ص248.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وغزارة علمه وكثافة نشاطه، كما تنمّ عن مدى قدرته على الحفظ وقوة ذاكرته، مما مكنه من حفظ "الشامل في أصول الدين" للجويني و"المستصفى في أصول الفقه" لأبي حامد الغزالي، و"المعتمد في أصول الفقه" لأبي الحسين البصري. إذ لم يُؤذن له بتدريس علم الكلام حتى حفظ اثنى عشرة ألف ورقة[1].

كما تميزت شخصيته العلمية بالعمق والتحدي في تناول القضايا، ويتجلى ذلك في مناظراته، مما جعله يلاقي متاعب كثيرة مع خصومه؛ فكانت تلك المناظرات التي كثيرا ما تتسبب في فتن تنتهي بتدخل السلطان لإسكاتها عن طريق القوة، مما يضطر الرازي إلى الخروج من تلك البلدة التي وُجد فيها، مثاله ما حدث له مع الكرامية[2] في سنة خمس وتسعين وخمسمائة للهجرة بـ"هراة".

وبالرغم مما كان بينه وبين هؤلاء من جراء الخصومات الكلامية، إلا أنّ عزيمته لم تفتر، إذ جاب أكثر مدن ما وراء النهر مناظرا لهم؛ فكان له الفضل الكبير على كثير من أتباع الكرامية بالرجوع إلى مذهب أهل السنة[3].

هذا ولم تقتصر مناظراته على أصحاب الفرق الإسلامية من معتزلة وحنابلة وكرامين وغيرهم، بل شملت أيضا أهل الملل الأخرى من نصارى ويهود، وهو ما يؤكد سعة اطلاعه ودرايته بحقيقة شرائعهم، مما جعله يفرد كتاب لاختلاف الناس في الشرائع والأديان، إذ يقول: «واعلم أنه لا سبيل إلى استقصاء مذاهب العالم في هذا الموضع، ومن أراد ذلك فليطالع كابنا الذي سميناه "الرياض المونقة"»[4].

والمتتبع لسيرة الرجل يدرك ما كان يتمتع به من مكانة علمية، إذ عُدّ فريد عصره، فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات وعلم الأوائل[5]، هذه المكانة التي يندر على غيره في زمانه بلوغها، فقد ذاع سيطه بانتشار مؤلفاته وإقبال الناس عليها، وهو ما يؤكده قول القفطي: «كان أفضل أهل

(1) ـمحمد صالح الزركان: فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية، ص37.

(2) ـالحافظ بن كثير: البداية والنهاية، منشورات مكتبة المعارف، بيروت، ط6، 1406هـ-1985م، ج13، ص19-20.

(3) ـابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج4، ص250.

(4) ـالرازي: التفسير الكبير، ج18، ص76-77.

(5) ـابن خلكان: المرجع السابق، ج4، ص249.

زمانــه، بـذ القدماء في الفقه وعلم الأصول والكلام والحكمة، وردّ على ابن سينا واستدرك عليه، وكان عظيم الشأن بخراسان، وسارت مصنفاته في الأقطار، واشتغل بها الفقهاء»[1].

كمـا تتجـلى مكانـته العلمية أيضا من خلال مجالسه، التي كان يحضرها أرباب المذاهب والمقـالات، بل يقصدها العلماء من كل حدّ وصوب، مناظرين إياه أينما حلّ، وبحضور العامة من الناس والحكام.

وإذا كان هناك من عدّ الرازي مجدد القرن السادس للهجرة[2]، نظرا لمكانته العلمية فإن هناك من اعتبره شيخا مسكينا متحيّرا في مذاهب الجاهلية التي تخبط فيها خبط عشواء.

لذلـك ما يمكن قوله حول تباين الناس فيه[3]، ما ذكره المقدسي في قوله: «وقد رأيت جماعة مـن أصحابه قدموا علينا من دمشق، وكلهم يعظمونه تعظيما كبيرا، ولا يمكن أن يُسمع فيمن ثبتت فضـيلته كـلام يستشنع، لعله من صاحب غرض من حسد أو مخالفة في مذهب أو عقيدة»[4]، مع الإشارة إلى أن الرازي كان من فقهاء الشافعية وعلماء الأشاعرة.

أمـا عن الجانب الاجتماعي لشخصية الرازي فإن تبحره في مختلف العلوم وإتقانه للعديد من الفنون، مما أدّى إلى غزارة علمه مع قوة شخصيته، جعلته معظما عند السلاطين والحكام في أي أرض يترل بها، ويتجلى ذلك من خلال رحلاته التي أكسبته شهرة وثراء.

فقـد لازم الرازي الأسفار والتنقل -إذ لم يستقر في مسقط رأسه بعد رحلاته لطلب العلم- بـين كل من إيران وتركستان وأفغانستان، حيث يصف لنا رحلاته بعد خروجه من خوارزم التي لم يطـل بها مقامه، نظرا لما كان بينه وبين المعتزلة من مناظرات تسببت في اتجاهه إلى بلاد ما وراء النهر الـتي يقـول عنها: «لما دخلت بلاد ما وراء النهر وصلت أولا إلى بلدة بوخارى، ثم إلى سمرقند، ثم انتقلـت منها إلى خجند، ثم إلى البلدة المسماة بناكت، ثم إلى غزنة وبلاد الهند، واتفقت لي في كل

---

(1) -القفطي: أخبار العلماء بتاريخ الحكماء. في: www. Alwaraq. com

(2) -طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، ج2، ص200.

(3) -لمعـرفة المـزيد عن ذلك، راجع: فتح الله خليف: فخر الدين الرازي، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، (د.ط)، 1979م، ص1-4.

(4) -أبو شامة المقدسي: تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ص68.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

واحدة من هذه البلاد مناظرات ومجادلات مع من كان فيها من الأفاضل والأعيان»[1].

هــذه التنقلات مكنته من الاتصال بسلاطين بعض الدول، منها ما كان له بعد خروجه من بخــارى إلى بــلاد الغور، حيث اتصل فيها بالملك شهاب الدين الغوري[2]، فأكرم وفادته، وحظر مجالســه، كما كان له اتصال بالسلطان علاء الدين بن تكش[3] في خراسان، فلم يبخل عنه بالإكرام والتبجيل هو الآخر، بل كانوا يحضرون مجالسه مع عامة الناس، وهو ما يبين مكانته الاجتماعية.

ومــن ثمة يكون مفكرنا قد أمضى سنوات من حياته متنقلا من بلاد إلى أخرى، فنال التكريم لعلاقاته الحسنة مع السلاطين والحكام، كما لحقته متاعب كثيرة نتيجة خصوماته مع أصحاب الفرق الإسلامية. فماذا قدم الرازي للمجتمع من خلال رحلاته؟

لقد أدرك الرجل ما كان يعاني منه الناس في بلاد المسلمين من مجالس الطرب والغناء، ومجالس القصاص المنحرفة؛ فكان يستغل الفرصة في إقامة مجالس الوعظ، إذ كانت له اليد البيضاء في مجالس الوعــظ باللسانين العربي والفارسي[4]، حيث لم يكن يهاب أحد في مجالسه، إنما ركّز في عمله على إرشاد النفوس إلى معرفة الحق دون تمييز منه بين الناس في ذلك.

هــذا وقد وقف على ما تعاني منه الأمة الإسلامية من انتشار لأفكار المذاهب المختلفة، فعمل عــلى تخليص الدين من البدع التي علقت به،والتي كانت مثارا للشك في عقيدة المسلم؛ لذلك نجده جــادل وناظــر العديــد من أصحاب الفرق الإسلامية وأهل الملل والمحل الأخرى، مفندا مزاعمهم بالحجج. فقضى بذلك معظم حياته في مجال الوعظ والمناظرة.

لذلك لم يقتصر عمل الرازي على مجال المناظرة فحسب، بل كان واعظا بالمساجد ومدرسا، إذ بعد أن أُدركت حقيقة ما يقوم به من نشاط، ونظرا لأهمية دروسه، فتح له السلطان "غياث الدين

---

(1) –الرازي: المناظرات، ص7.

(2) –هو السلطان شهاب الدين محمد بن بسام الغوري، توفي سنة (602هـ–1205م)، أمير فاتح وقائد شجاع، حسن السيرة، ذُكر أنه قُتل من طرف الإسماعيلية. –ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج12، ص77.

(3) –هــو السلطان علاء الدين محمد بن السلطان خوارزم شاه تكش ابن خوارزم شاه أرسلان، من السلاطين الشداد، له أعمال ومآثر وأخباره مشهورة. –شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج22، ص326.

(4) –ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج3، ص35.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الغــوري" مدرســة في قصره، كما كانت تصانيفه تُدرّس في مختلف المدارس ومراكز العلم بالبلاد الإسلامية، بل وبنيت له مدارس كثيرة في بلدان شتى[1].

تلك المكانة العلمية والاجتماعية سمحت له بأن يكون صاحب ثروة كبيرة، ففضلا عن الهدايا والمنح التي أكرمه بها السلاطين، يذكر أنه عندما رجع إلى "الري" قادما من "خوارزم"، التقى بطبيب غــني له بنتان، فزوجهما ابني الرازي –ضياء الدين وشمس الدين–، وبوفاة هذا الطبيب أخذ الرازي ثروته[2].

ومهمــا قــيل عن مدى مشروعية تحصله عن تلك الثروة، فإن المنح التي كانت تتلقاها من الحكام كافية لأن يكون صاحب ثروة، إذ مُنح المساكن التي تُعدّ بمثابة القصور، زيادة على الرواتب. وخير دليل على ذلك أنه انتهى به المقام بــ"هراة" في دار السلطان التي أهداها إياه خوارزم شاه[3].

وقــد كانــت لمكانته الاجتماعية انعكاس على حياة أبنائه بعد وفاته، إذ بقت صلتهم طيبة بالحكــام، فلما استولى التتار على بلاد العجم، وفي ظل ما انجرّ عنه من خراب وقتل، بقى أبناءه في أمان[4]، و لم يعرف مصيرهم بعد أخذهم من "هراة" إلى "سمرقند".

لذلــك يمكن القول أن الجانب العلمي والاجتماعي لشخصية مفكرنا، التي أعطته مكانة مميزة في عصره كان لها أثر في حياة أبنائه بتميزهم حتى أثناء الغزو.

هــذا وباعتبار النشأة هي أهم موجه للمراحل التالية من حياة الإنسان، فإن تواجد الرازي في بيــئة عُرفــت بالزهد والتصوف يعدّ أهم معلم مميز لشخصيته، إذ وُصف بأنه كان صادق الإيمان، صــاحب رياضة روحية، له أوراد لا ينقطع عن أدائها في أوقاتها المخصصة لها يوميا[5]، كثير الدعاء والاستغفار والاستغاثة بحالته، إضافة إلى ما اشتهر به من ورع، إذ كان كثيرا ما يذكر الموت فيقول: «إنــي حصّــلت من العلوم ما يمكن تحصيله بحسب الطاقة البشرية وما بقيت أؤثر إلا لقاء الله تعالى

(1) –الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص35.
(2) –ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج4، ص250.
(3) –ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج3، ص39.
(4) –ابن أبي أصيبعة: المرجع نفسه، ج3، ص39-40.
(5) –ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان، المؤسسات الإعلامية، بيروت، ط2، 1971م، ج4، ص428.

والنظر إلى وجهه»[1].

فإلى جانب تنشئته العلمية، فقد عاش حياة ورعة عابدة عصمته من الانحراف، وقادته أحسن قيادة، وليس أدل على ذلك من مجالس الوعظ التي كانت له فيها مشاركة فعالة، حيث يذكر أنه كان له مجلس كبير يحضره الخاص والعام، ويلحقه فيه أحيانا حال ووجد فيبكي، من ذلك ما حدث له بحضور السلطان الغوري شهاب الدين، فاستغاث بقوله: «يا سلطان العالم لا سلطانك يبقى ولا تلبيس الرازي يبقى»[2].

على أن هذا المنحى الصوفي يتجلى أكثر في "تفسيره الكبير"، الذي جاء فيه حول التمسك بأسرار الحقيقة ومكارم الشريعة قوله: «ومن كان له ذوق في مقام العبودية، وشرب من مشرب التوحيد عرف أن الأمر كما ذكرنا»[3]، وغيرها من المواضع التي نلمس فيها سلوكه طريق العارفين وآثار تجربته الروحية، إذ يقول في تفسيره عن قولنا "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم": «(أعوذ بالله): اعتراف بعجز النفس وقدرة الرب، وهذا يدل على أنه لا وسيلة إلى القرب من حضرة الله إلا بالعجز والانكسار... ومن عرف نفسه باختلال الحال عرف ربه بالكمال والجلال»[4].

والمتتبع لمراحل حياة الرازي يجد أن هذا الجانب من شخصيته، برز في مرحلة متأخرة في حياته كمنحى فكري، فبعد اشتغاله بمختلف العلوم وتبحره فيها، وبعد اختباره للطرق الكلامية والفلسفية، وقف على عجزها، مدركا بذلك أن القرآن الكريم أفضل طريق للوصول إلى الحق، وجاءت وصيته كشهادة على ذلك، حيث ورد فيها: «ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية كما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال لله، ويمنع عن التعمق في إيراد المعارضات، وما ذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى في تلك المضائق العميقة الخفية»[5].

---

(1) –الرازي: التفسير الكبير، ج1، ص–ي، ج17، ص184.

(2) –طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، ج2، ص106.

(3) –الرازي: التفسير الكبير، ج18، ص145.

(4) –الرازي: المصدر نفسه، ج1، ص91.

(5) –وردت وصيته في تفسيره الكبير، ج1، ص–ل وما بعدها.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هذا القول الذي لا يصدر إلا عن سالك لطريق العارفين، أليس هو من اعتبر قول الصوفية بأن الطريق لمعرفة الله تعالى هو التصفية والتجرد من العلائق البدنية، طريق حسن[1].

لكـــن هذه الحقيقة التي وقف عليها بعد تبحره في مختلف العلوم، لا تنفي الجانب الروحي من زهد وورع في حياته من قبل، مما كان له أثر في بروزه كمنحى فكري في أخريات حياته.

كما يؤكد هذا الجانب من شخصيته تلك الاتصالات التي كانت له مع بعض متصوفة عصره، مـــنها الرســـالة التي بعث بها إليه محيي الدين بن عربي، إذ دعاه فيهاإلى الابتعاد عن الاشتغال بعلم الكـــلام، والاهتمام بعلوم الحقيقة، ومما جاء فيها «ولقد أخبرني من أثق به من اخوانك وممن له فيك نـــية حسنة جميلة أنه رآك يوما قد بكيت وسأل هو ومن حضر عن بكائك فقلت مسألة اعتقدتها من مـــنذ ثلاثين سنة تبين لي الساعة بدليل لاح لي أنّ الأمر على خلاف ما كان عندي، فبكيت وقلت: ولعل هذا الذي لاح لي أيضا أن يكون مثل الأول، فهذا قولك.

ومـــن المحـــال على العارف بمرتبة العقل والفكر أن يسكن أو يستريح ولا سيما في معرفة الله تعالى، إذ من المحال أن يعرف ماهيته بطريق النظر.

فمـــالك يا أخي تبقى في هذه الورطة ولا تدخل طريق الرياضات والمجاهدات والخلوات التي شـــرعها رســـول الله ﷺ، فتنال ما نال من قال فيه سبحانه وتعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾[2]»[3].

ويـــبدو أن هـــذه الرســـالة كان لها أثر على الرازي، فكانت «سببا لاعتزاله وتبديل أقواله بأحواله، وأثرت فيه غاية التأثير وأفاضت عليه كل خير»[4]، حتى قال[5]:

نهـــاية إقـــدام العقـــول عقال   وأكثر سعـــي العـــاملين ضلال

---

[1] ـ الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص115.

[2] ـ سورة الكهف، الآية: 65.

[3] ـ حقـــق هـــذه الرسالة هند شلبي في دراسة حول: "مشاكل الألوهية من خلال تفسير الرازي"، النشرة العلمية للكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين، الجامعة التونسية، تونس، ع8، 1985م، ص86-99.

[4] ـ عبد العزيز مجدوب: الرازي من خلال تفسيره، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، 1976م، ص181.

[5] ـ الرازي: التفسير الكبير، ج1، ص-ي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وأرواحنا في وحشة من جسومنا   وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا   سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وتعدّ هذه الأبيات إقرارا منه بعدم رضاه عما قدّم، إذ توجه إلى القرآن لإرواء غليله، فرغم ما توفر لمفكرنا من جاه ومال، فإن ذلك لم يمنعه من أن يكون صاحب ورع وتقوى وزهد، كما أن تبحره في مختلف العلوم لم يجعله بمنأى عن الفكر الصوفي؛ لذلك يمكن القول أنه كان من الصوفية الأتقياء أصحاب الترعة العملية الذين أخذوا جادين بالواجبات المفروضة عليهم، فعاش حياته متنقلا بين مجالس الوعظ، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، مبلّغا شرع الله سبحانه وتعالى؛ لتكون وفاته عن عمر يناهز الثاني والستين، وذلك في أول شوال سنة ست وستمائة للهجرة الموافق للتاسع بعد الألف ومائتان[1]، بعد أن ترك وراءه آثارا جليلة، منها ما تمثل في مصنفاته التي بقت كزاد لطلاب العلم في كثير من المعارف.

ومنها تلاميذه الذين يعدون أثرا من آثاره؛ لذلك يستدل بكثرتهم على مترلة العالم العلمية والاجتماعية، لكن ذكرهم يعتبر ضربا من المستحيل نظرا لكثرتهم، لأنه كان «إذا ركب مشى معه ثلاث مائة مشتغل على اختلاف مطالبهم في التفسير والفقه والكلام والأصول والطب وغير ذلك»[2].

ونقتصر على ذكر بعضهم: أبو بكر إبراهيم بن أبي بكر الأصفهاني ، الذي أملى عليه وصيته قبل وفاته، فضل الدين الخوجي[4]، قطب الدين المصري[5]، شمس الدين الخسرو [3]

[1] -ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج4، ص252.

[2] -عبد الحي ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج5، ص21.

[3] -ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج3، ص40-42.

[4] -هو محمد بن ناماور بن عبد الملك، عاش ما بين (590هـ-646هـ)، تلقى الفلسفة والمنطق على يد الرازي، له "الموجز في المنطق وكشف الأسرار"، وَلّي القضاء بمصر بعد أن قدم إليها من بلاد فارس. -عبد الحي بن العماد: المرجع السابق، ج3، ص35.

[5] -هو إبراهيم بن علي بن محمد السلمي، طبيب مغربي الأصل، أقام بمصر مدة، ثم رحل إلى خراسان، فتتلمذ على الرازي، حيث صنف كتبا في الطب والفلسفة منها شرحه "الكليات" من كتاب "القانون" لابن سينا، قتل بنيسابور بعد غزو التتار لها سنة 618هـ - 1221م. -خير الدين الزركلي: الأعلام، ج1، ص50-51

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شاهي[1] وشمس الدين الخيوبي[2].

والملاحـــظ أنـــه كان يقصده طلاب العلم من جميع أنحاء البلاد، كما تشد إليه الرحال من مخـــتلف الأقطار، هذا عن ذلك الغرس من ثمره الذي عمل على إحياء ذكره ونشر علمه، فماذا عن النوع الآخر من آثاره العلمية؟

ثالثا: مؤلفـــاته

لم يكـــن الرازي بمنأى عما يحدث في عصره، بالرغم من ذلك نجده قد اقتحم ميادين المعرفة التي أتيحت له، فكتب في مختلف المعارف كما جاء في وصيته: «فاعلموا أني كنت رجلا محبا للعلم، فكنـــت أكتـــب في كـــل شيء، لا أقف على كميته وكيفيته»[3]؛ لذلك جاءت مصنفاته عديدة ومتـــنوعة، ذكـــرت في كتب التراجم[4] مع اختلاف في حصرها. حاول بعض الباحثين[5] حصرها وتبويبها لكن اختلفوا هم أيضا في إحصائها، وكانت لكل منهم منهجية في عمله.

---

[1] –هو عبد الحميد بن عيسى، ينسب إلى مسقط رأسه قرية خسروشاه في تبريز، أين ولد سنة 580هـــ من اجل تلامذة الرازي، تميز بالعلوم الحكمية والطب، كما أتقن العلوم الشرعية، انتقل إلى الشام ثم إلى دمشق التي توفي بها في شوال 652 هـــ، له "مختصر الشفاء" لابن سينا، "المهذب في الفقه"، "تتمة كتاب الآيات البينات" لأستاذه الرازي. –ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ج3، ص283-285.

–عبد الحي بن العماد: شذرات الذهب، ج5، ص225.

[2] –هو أحمد بن خليل بن سعادة أبو العباس، ينسب إلى مدينة خوي بأذربجان، برع في العلوم الحكمية والشرعية، تميز في الطـــب، صاحب الرازي مدة، فكان فقيها خبيرا بعلم الكلام، تولى القضاء في دمشق، وهو الذي تنسب إليه بعض الكتب تـــتمة تفســـير الـــرازي. عاش ما بين (583هـــ-637هـــ). –ابن أبي أصيبعة، المـــرجع السابق، ج3، ص280-281.

[3] –الرازي: التفسير الكبير، ج1، ص-ل.

[4] –ابن خلكان: وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان، ج3، ص380.

–ابن أبي أصيبعة: المرجع السابق، ج2، 29.

–صلاح الدين الصفدي: الوافي بالوفيات، ج4، ص255.

[5] –محمد العربي: المنطلقات الفكرية عند الإمام الرازي، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1992م، ص100-121.

–محمد العربي بوعزيز: نظرية المعرفة عند الرازي من خلال تفسيره، ص52-55.

–فتح الله خليف: فخر الدين الرازي، ص100-124.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

في حين نجد في رسالة الزركان التي عُدّت أدق ما كُتب حول تراث الرازي[1] -حسب علمنا- قد أفرد لها بحثا مفصلا، أحصى فيه كتبه الثابتة والمشكوك فيها والمنحول، حيث راعى في عمله الدقة مع الإشارة إلى المصادر التي ورد فيها ذكر لهذه المصنفات، وأرقام المخطوطات ومكان تواجدها، فوصل عددها إلى ثلاث وتسعين ومائة كتاب، ولم يصح منها عنده إلا ثلاثة وتسعين، والباقية متوزعة بين منحول ومشكوك فيه[2].

أما ما سيأتي من ذكر لهذه المؤلفات فسنقتصر على ذكر الكتب الثابتة المطبوعة أو المخطوطة، والثابتة المجهولة، مع ترتيبها حسب الموضوعات[3].

المجموعة الأولى: الكتب الثابتة الموجودة

1-في التفسير: -أسرار التنزيل وأنوار التأويل

-التفسير الكبير المعروف بمفاتيح الغيب

-تفسير سورة الفاتحة (م[4])

-تفسير سورة الإخلاص (م)

-رسالة في التنبيه على بعض الأسرار المودعة في بعض آيات القرآن الكريم (م)

2-في علم الكلام: -الأربعين في أصول الدين

-أساس التقديس

-عصمة الأنبياء

-الخمسين في أصول الدين

-جوامع البينات في شرح أسماء الله الحسنى والصفات

-المعالم في أصول الدين

-حدوث العالم (م)

-الخلق والبعث (م)

---

(1) -محمد العربي بوعزيز: نظرية المعرفة عند الرازي من خلال تفسيره، ص53.

(2) -محمد صالح الزركان: فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية، ص56-153.

(3) -اعتمدنا في ذلك على كتب التراجم والدراسات الحديثة السابقة الذكر في هامش رقم (4) و (5)، ص 116.

(4) -يرمز بالحرف (م) إلى أن الكتاب مخطوطة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-الإشارة في علم الكلام (م)

-نهاية العقول في دراية الأصول (م)، ذكر في "مفاتيح الغيب"، ج14، ص132، وفي "اعتقادات فرق المسلمين والمشركين"، ص146.

-اعتقادات فرق المسلمين والمشركين.

3-في المنطق والفلسفة والأخلاق: -المباحث المشرقية

-أقسام اللذات (م)

-رسالة في زيارة القبور (م)

-شرح الإشارات والتنبيهات لابن سينا (م)، ذكر في "اعتقادات فرق المسلمين والمشركين"، ص146.

-شرح عيون الحكمة لابن سينا (م)

-لباب الإشارات (م)، جاء ذكره في "مفاتيح الغيب"، ج31، ص178.

-الملخص في الحكمة والمنطق (م)، ذكر في "اعتقادات فرق المسلمين والمشركين"، ص146.

-المنطق الكبير (م)

-في النفس والروح (م)

4-في علم الكلام والفلسفة: -محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين.

-المطالب العالية من العلم الإلهي

5-في الجدل والمناظرة:-المناظرات

-الجدل (م)

6-في الفقه وأصول الفقه: -المحصول

-المعالم (م)

-منتخب المحصول -هو مختصر من المحصول- (م)

7-في آداب اللغة العربية وعلومها: -شرح سقط الزند لأبي العلاء المعري (م)

-نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

8-في التاريخ أو السير:مناقب الإمام الشافعي

9-في الفلك: رسالة في علم الهيئة (م)، ذكرت في "مفاتيح الغيب"، ج26، ص119.

10-في الطب والفراسة: -شرح القانون لابن سينا (م)، ذكر في "المباحث المشرقية"، ج2، ص160.

-رسالة في علم الفراسة

11-في السحر والتنجيم: -الأحكام العلائية في الأعلام السماوية (م)

-السر المكتوم

12-دوائر **المعارف**: -جامع العلوم -موسوعة علمية- (م)

-حدائق الأنوار (م)

المجموعة الثانية: الكتب الثابتة المفقودة

1-في التفسير: -تفسير سورة البقرة

2-في علم الكلام: -جوابات المسائل النجارية، ذكر في "اعتقادات فرق المسلمين والمشركين"، ص146.

-إرشاد النظّار إلى لطائف الأسرار، ذكر في المرجع نفسه، ص146.

-البيان والبرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان، ذكر في المرجع نفسه، ص146.

-تحصيل الحق

-الجبر والقدر، ذكر في "التفسير الكبير"، ج13، ص122.

-الجوهر الفرد، ذكر في "الأربعين في أصول الدين"، ص263، وفي "المطالب العالية"، ج2، ص85.

-الزبدة في علم الكلام

-الرسالة الكمالية في الحقائق الإلهية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-المباحث العمادية في المطالب المعادية، ذكر في "اعتقادات فرق المسلمين والمشركين"، ص146.

-رسالة المعاد

-الرياض المونقة، ذكر في "مفاتيح الغيب"، ج18، ص77.

3-في المنطق والفلسفة والأخلاق: -الأخلاق

-تعجيز الفلاسفة

-مباحث الحدود

-مباحث الوجود والعدم

-الهدى

4-في الجدل: -شفاء العي والخلاف

-الطريقة العلائية في الخلاف

-الطريقة في الخلاف والجدال

5-في الفقه وأصول الفقه: -إحكام الأحكام

-البراهين البهائية

-شرح الوجيز للغزالي

-النهاية البهائية في المباحث القياسية

6-في أدب اللغة العربية وعلومها: -شرح نهج البلاغة

-المحرر الوجيز في حقائق أو دقائق النحو

7-في التاريخ: -فضائل الأصحاب أو الصحابة الراشدين

8-في علم الفلك: -الهندسة

9-في الطب: -الأشربة

-التشريح من الرأس إلى الحلق

-الطب الكبير، ذكر في "مفاتيح الغيب"، ج20، ص75.

-مسائل في الطب

-النبض

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

10-في السحر والتنجيم: -كتاب في الرمل

-منتخب درج تنكلوشا

11-في المتفرقات: -اللطائف الغياثية

المجموعة الثالثة: الكتب المجهولة الموضوع: -تهذيب الدلائل وعيون المسائل

-جواب الغيلاني

-الرعاية

-رسالة في السؤال

-الرسالة الصاحبية

-نفثة الصدور

من خلال قائمة المصنفات هذه، يمكن القول أن الرازي قدم للفكر الإسلامي وللتراث الإنساني إرثا ساهم في إثرائهما، هذه المؤلفات التي هي شهادة على الثقافة الموسوعية لمفكرنا، غير أن العديد من مؤلفاته لم تصل بعد إلينا، كما أن بعضها لم ير النور بعد ولم يبرح عالم المخطوطات.

إضافة إلى هذا، فهي شاهدة على الثقافة الموسوعية للرجل ومدى قدرته على استيعاب المعارف الإنسانية التي وجدت في عصره، ونظرا لأهميتها -المؤلفات- عرفت انتشارا واسعا في الآفاق، إذ رُزق فيها سعادة عظيمة، حيث اهتم الناس واشتغلوا بها وعُدّ أول من اخترع ذلك الترتيب في كتبه فأتى فيها بما لم يسبق إليه[1].

---

[1] -ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج4، ص250.

المبحث الثاني: دراسة حول "مفاتيح الغيب"

المطلب الأول: التعريف بـــ "مفاتيح الغيب"

أولا: تسميته

يعـــرف تفسير الرازي بـــ"التفسير الكبير" تمييزا له عن كتابه "أسرار التتريل وأنوار التأويل" الذي عُرف بـــ"التفسير الصغير"[1].

كمـــا اشـــتهر تفسيره الكبير باسم "مفاتيح الغيب"، ولا شك أن لهذه التسمية علاقة بقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّـا يَعْلَمُهَـا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[2]، إذا لم تكن مستلهمة منها.

وبالرجوع إلى تفسيره للآية[3] نجده يقرر أنها تحمل معنى العلم الإلهي بالغيب دون سواه، كما تحمـــل معـــنى قدرته تعالى على كل الممكنات، مثلما جاء في قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾[4]، فتكون بذلك "مفاتح الغيب" بمعنى الخزائن.

هذا ومن الدقائق التي استخرجها من قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ أن القضـــايا العقلـــية يصعب تحصيل العلم بها على سبيل التمام والكمال إلا للعقلاء الكاملين، الذين تعـــوّدوا الإعـــراض عـــن قضـــايا الحس والخيال، وألفوا استحضار المعقولات المجردة، ومثل هؤلاء

---

(1) ـــصلاح الدين الصفدي: الوافي بالوفيات، ج4، ص255.

ـــإسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين، ج2، ص107.

ـــمصـــطفى عبد الله حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تحقيق: محمد شرف الدين ورفعت بليكة، وكالة المعارف، (د.م)، (د.ط)، 1360هـــ-1941م، ج1، ص83.

(2) ـــسورة الأنعام، الآية: 59.

(3) ـــذلـــك بـــناء عـــلى أن "مفـــاتح" إذا كان جمع "مِفتح" أدت معنى العلم، وإذا كان جمع "مَفتح" أدت معنى الخزائن.

- الرازي: التفسير الكبير، ج13، ص8-9.

ـــوهو يتفق فيما ذهب إليه مع غيره من المفسرين منهم: الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج7، ص271.

ـــمحمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن ج7، ص127.

(4) ـــسورة الحجر، الآية: 21.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الأشخاص نادرين جدا.

لذلـك لفهـم هذه القضية العقلية المجردة، لابد من طريق لإيصالها إلى عقل كل واحد، لأن القـرآن أُنزل لينتفع به الخلق رحمة للعالمين، وقد تمثل ذلك السبيل في ذكر الأمور المحسوسة في قوله تعـالى: ﴿...وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[1]، كأمثلة داخلة تحت القضية العقلية الكلية -علم الله بمفاتح الغيب-؛ ليصبح ذلك المعقول إلى جانب هذا المحسوس مفهوما للجميع[2].

وفي هذا السياق والاعتبار وردت هذه الآية، إذ أُكّد المعقول الكلي المجرد، المتمثل في مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا الله، بجزء محسوس الذي ورد في قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، إذ ذُكـر هذا المحسوس باعتباره أحد أقسام معلومات الله المدركة من طرف عباده، وما له من عظمة يكشف عن حقيقة ذلك المعقول وعظمته، الذي لا يعلمه إلا الخالق جل جلاله -مفاتح الغيب-.

ومن ثمة يكون فهم المعقول بالمحسوس، وإدراك عالم الغيب بحقائق عالم الشهادة، إذ يصير هذا الأخـير بأمثلته المحسوسة منبها على قدرة عظيمة، وجلالة عالية من المعنى المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾[3]، التي تتحير العقول فيها وتتقاصر الأفكار عن الوصول إلى مبادئها[4]، ونتيجة لهذه الحيرة والقصور عن الإدراك، كانت تقوية ذلك المعقول المجرد بالجزئيات المحسوسة.

كما يقرر الرازي أن الآية جاءت لإثبات أصل من أصول العقيدة الإسلامية وهو التوحيد، إذ لا نـدّ ولا ضـدّ لله عز وجل، وهو المستفاد من الحصر الوارد في الآية -أي علم مفاتح الغيب عنده تعـالى لا علم لغيره به-، وهو ما يؤكده البرهان العقلي أيضا، ومفاده أن المبدأ لحصول العلم بالآثار والنتائج والصنائع هو العلم بالمؤثّر، والمؤثر الأول في كل الممكنات هو الله؛ فيكون المِفتَح الأول للعلم بجمـيع المعلومات هو العلم به سبحانه وتعالى. ولكن العلم به جل جلاله ليس إلا له؛ لأن ما سواه

---

(1) -سورة الأنعام، الآية: 59.

(2) -الرازي: التفسير الكبير، ج13، ص9-10.

(3) -سورة الأنعام، الآية: 59.

(4) -الرازي: المصدر السابق، ج13، ص10.

أثر، والعلم بالأثر لا يفيد العلم بالمؤثّر، فنصل بهذا البرهان إلى أن "مفاتح الغيب" ليست إلا عند الحق عز وجل[1].

لكن إذا كانت "مفاتح الغيب" عند الله لا يعلمها إلا هو، فما المغزى من تسمية الرازي لتفسيره "مفاتيح الغيب"؟

تتفق التفاسير على أن الغيب هو ما غاب علمه عن الخلق وما شهدوه، إذ حجب الله علمه عن خلقه بعد أن مكنهم من أسباب العلم به، ككونه مما لا تدركه مشاعرهم الظاهرة والباطنة؛ لأنها لم تُخلق مستعدة لإدراكه ولا لطرق الاستدلال عليه،أو لأنها مستعدة له بالقوة غير متمكنة من أسبابه بالفعل[2]، فتبقى خزائنه عند الله وفي تصرفه وحده.

ويقسم الرازي الغيب إلى قسمين، قسم عليه دليل، وآخر لا دليل عليه وهو الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل، أما ما أخبرنا الله به في كتابه العزيز من أمور الغيب، فهو الذي عليه دليل، وقضى العقل بإمكانه وعدم استحالته مثل المعاد وغيره[3].

يتضح من خلال هذا أن الرازي لا يقصد البحث عن المفاتيح أو الوسائل المؤدية إلى العلم بالغيب الإلهي، وإنما هدفه هو التنبيه على تلك الوسائل التي هي بمثابة مفاتيح لفهم وإدراك عالم الغيب، لأننا إذا علمنا هذا الأخير أصبح مشهود غير غائب. وهذه المفاتيح هي أسباب المعرفة به، معرفته التي مكننا الله منها بعد أن حجب العلة به عن خلقه.

تلك الأسباب المتمثلة في آيات الله عز وجل؛ لذلك يقرر الرازي أن كلامه تعالى لا يوجد فيه ما هو مغلق على فهم كل البشر، إذ ليس في القرآن علم مستور وسر محجوب، فقد وصفه تبارك وتعالى بالهدى، فكيف يكون هاديا ويمكن اتباعه وهو غير معلوم؟[4]، لكن ومقابل ذلك من القادر على سبر أغوار الوحي الإلهي؟

---

(1) -الرازي: التفسير الكبير، ج13، ص10-11.
(2) -محمد رشيد رضا: تفسير المنار، دار المنار، مصر، ط3، 1367هـ، ج7، ص423.
(3) -الرازي: المصدر السابق، ج2، ص27-28.
(4) -الرازي: المصدر نفسه، ج2، ص4، 8.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يميز الرازي بين الناس في درجات المعرفة، حيث هناك من يكتفي بالاستدلال -العقلي- كالاعتقاد أن هذا العالم مُحدَث، وكل مُحدَث فله مُحدِث، فحصل بهذا الطريق إثبات الصانع وهناك من لا يكتفي بذلك، فيضم إلى تلك الدرجة البحث في أحوال العالم العلوي والعالم السفلي على سبيل التفصيل، وبذلك يظهر في كل نوع من هذين العالَمين حِكم بالغة وأسرار عجيبة، ويصير ذلك جاريا مجرى البراهين والدلائل المتوالية على عقله، فلا يزال في كل لحظة في الانتقال من دليل إلى آخر. ولكثرة هذه البراهين أثر عظيم في تقوية اعتقاد الإنسان ويقينه، وإزالة عنه الشبهات[1].

لذلك فالقادر على سبر أسرار الوحي هو ذلك المفسر المحقق الذي لا يزال يطالع في كل آية على أسرار عجيبة ودقائق لطيفة، فيكون اعتقاده بعظمة القرآن أكمل عكس اعتقاد العامي، الذي يكون تقليدا وإجماليا[2]. والأمر في ذلك راجع إلى ما يتضمنه الوحي الإلهي من مفاتيح موصلة إلى فهم عالم الغيب بقدر إدراك البشر ومعرفتهم.

ومن ثمة تكون الآيات القرآنية وما تحمله من لطائف عن أحوال العالَمين -العلوي والسفلي- المفاتيح التي على الإنسان الوقوف عندها وتدبرها، باعتبارها الوسائل الموصلة إلى أهم مطلب للإنسان وهو معرفة خالقه[3] على قدر طاقته -البشرية-، وبقدر إمكانه؛ لأن علم الغيب عنده عزوجل، إضافة إلى ذلك فتلك الآيات هي مفاتيح البحث في كل علم.

وهناك من أعطى نظرة أخرى للمقصود من "مفاتيح الغيب"، على أن هذا العنوان يدل على المنحى الصوفي في الفكر الرازي، باعتبار أنه ألف تفسيره بعد أن صار من أهل المشاهدة، وما كان له من اتصال مع بعض متصوفة عصره، كمجد الدين الجيلي، ومحي الدين بن عربي.

مع الاستناد إلى ورود هذا الاسم في رسالة ابن عربي إلى الرازي، التي تحدث فيها عن معنى الغيب، وهو الحجاب الذي يخفي الحقيقة، كما جاء فيها ذكر لأقسامه، إضافة إلى دعوة المريد إلى أن

---

(1) -الرازي: التفسير الكبير، ج14، ص122.

(2) -الرازي: المصدر نفسه، ج9، ص137.

(3) -يقرر الرازي أن الإيمان بالله أهم مطالب الإنسان، لأنه أصل الإيمان بالشرائع، فمن لا يعرف الله استحال عليه معرفة نبيا أو كتابا. -الرازي: المصدر نفسه، ج4، ص83.

يجعل مفتاح غيبه الله لا الأفكار[1].

لكـن هذا يبدو بعيدا عما أراده الرازي من تفسيره، الذي طغى عليه الجانب العقلي البرهاني، بل هو نفسه يعترف أن كثرة الدلائل وتواليها لها أثر عظيم في تقوية الإيمان، وإزالة الشبهات، وهذا لا يلغي منحاه الفكري الصوفي الذي تجلى فيه خلافا لبقية مؤلَّفاته –حسب علمنا–.

إضـافة إلى أن "مفاتـيح الغيب" لم يكن آخر ما كتب الرازي، ليمثل التحاقه بالصوفية في أخريات حياته، وإنما كتابه "المطالب العالية من العلم الإلهي" يكون آخر ما كتب –حسب علمنا– أو على الأقل كان بعد "التفسير الكبير"، وذلك في حدود سنة خمس وستمائة للهجرة.

ومـا نخلـص إلـيه حول هذه التسمية الذي أطلقها الرازي على تفسيره، أنه لا يبحث عن الوسـائل الموصلة إلى العلم بالغيب، فالأمر فيه محسوم، إذ علمه عند الله وحده،وهو ما أكده في قوله جل جلاله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾[2] وإنما قصد البحث عن المفاتيح المؤدية إلى معرفة عالم الغيب، والمتمثلة في آيات الله المتلوة، وما تحمله من توجيهات ولطائف عن الآيات المجلوة، واستنباط علومها انطلاقا من الوحي الإلهي وما تضمنه.

مـع الإشـارة إلى أن معرفة الغيب القصد منه الإيمان به، لا بهدف امتلاك علمه؛ لأن معرفته تجعلـنا ندرك حقيقة عظمته؛ لذلك فإن مفاتحه لا يعلمها إلا الله. ومعرفتنا[3] للغيب هو الإيمان به، فـتكون بذلـك الآيات القرآنية بكل ما تحمله من لطائف عن العالمين العلوي والسفلي هي مفاتيح موصلة إلى معرفة عالم الغيب.

ثانيا: وصف لـ"مفاتيح الغيب"

مـن حيث الشكل، فتفسير الرازي كتاب ضخم، احتوى مادته العلمية ستة عشر مجلدا، كل مجلد فيه جزئين؛ فبلغ اثنين وثلاثين جزءا، لا يقل الجزء الواحد منه عن المائتي صفحة.

---

(1) – هند شلبي: "مشاكل الألوهية من خلال تفسير الرازي"، ص50-51.

(2) – سورة الأنعام، الآية: 59.

(3) –مـع العـلم أن الرازي يجمع بين مفهوم كل من الإيمان والمعرفة، إذ يعرف الإيمان على أنه عبارة عن معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وأحكامه وأفعاله. –الرازي: التفسير الكبير، ج11، ص123.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

طُبع مرات عديدة[1]، واختلفت عدد أجزائه باختلاف الطبعات، اعتمدنا في هذه الدراسة طبعة دار إحياء التراث العربي ببيروت، وهي الطبعة الثالثة لها في ستة عشر مجلدا، كل مجلد فيه جزئين.

أما عن بدء الرازي في تأليفه والفراغ منه، لا يمكن ضبط ذلك، نظرا لعدم التزامه في تفسير سور القرآن الكريم ترتيبها الوارد في المصحف الشريف، واقتصاره على تأريخ ختم تفسيره لبعض السور دون الأخرى -كما سيأتي بيانه في الجدول لاحقا-، إلا أن الثابت أن الرازي ألف تفسيره بعد أن صنف قدرا كبيرا من المصنفات[2]، أي بعد أن اكتملت أدواته العلمية، وبلغ النضج العقلي[3].

(1) -منها: طبعة كل من: -بولاق، 1279هـ، في 06 أجزاء.
-العميرة، (1300هـ-1892م)، في 8 أجزاء، وأعيدت الطبعة نسها عام 1324هـ.
-الحسينية، (1327هـ-1909م)، في 8 أجزاء.
-استنبول، (1307هـ-1989م)، في 8 أجزاء.
-القاهرة، (1352هـ-1933م).
-دار الكتب العلمية، طهران.
-راجع: محمد العربي بوعزيز: نظرية المعرفة عند الرازي من خلال تفسيره، ص64.

(2) -إذ كثيرا ما يحيل إليها في تفسيره منها: "لوامع البينات في تفسير الأسماء والصفات"، ذكر في ج15، ص66.
-"الرياض المونقة"، ذُكر في ج18، ص77. -"تأسيس التقديس"، ذكر في ج27، ص16. - "المحصول في أصول الفقه"، ذكر في ج29، ص28. -"نهاية العقول في دراية الأصول"، ذكر في ج14، ص132. -"لباب الإشارات"، ذكر في ج31، ص178. -"رسالة في علم الهيئة"، ذكر في ج26، ص119. -"الجبر والقدر"، ذكر في ج13، ص122.
-"الطب الكبير"، ذكر في ج20، ص75.

(3) -محمد العربي بوعزيز: المرجع السابق، ص67.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جدول بياني للسور المؤرخ ختم تفسيرها في "مفاتيح الغيب"

السورة	تاريخ ختم تفسير السور		المكان	الجزء والصفحة
	اليوم والشهر	السنة		
آل عمران	الخميس، أول ربيع الآخر	595هـ		156/9
النساء	الثلاثاء، الثاني عشر جمادى الآخرة	595هـ		123/11
الأنفال	الأحد، رمضان	601هـ	قرية بغدان	214/15
التوبة	الجمعة، الرابع عشر رمضان	601هـ		239/16
يونس	السبت، رجب	601هـ		176/17
هود	قبل طلوع الصبح من ليلة الاثنين، رجب	601هـ		82/18
يوسف	الأربعاء، السابع شعبان	601هـ		229/18
الرعد	الأحد، السابع عشر شعبان	601هـ		71/19
إبراهيم	الجمعة، أواخر شعبان	601هـ		150/19
الإسراء	الثلاثاء، بين الظهر والعصر، العشرين من محرم	601هـ	غزنين	72/21
الكهف	الثلاثاء، السابع عشر صفر	602هـ	غزنين	177/21
الصافات	الجمعة،السابع عشر ذي القعدة	603هـ		173/26
ص	الخميس، الثاني ذي القعدة	603هـ		236/26
الزمر	الثلاثاء، آخر ذي القعدة	603هـ		24/27
غافر	السبت، الثاني ذي الحجة	603هـ	هراة	92/27
فصلت	ظهر الرابع ذي الحجة	603هـ		140/27
الشورى	آخر يوم الجمعة، الثامن ذي الحجة	603هـ		192/27
الزخرف	الأحد، الحادي عشر ذي الحجة	603هـ		236/27
الدخان	ليلة الثلاثاء، نصف الليل الثاني عشر من ذي الحجة	603هـ		255/27
الجاثية	الجمعة بعد الصلاة، الخامس عشر ذي الحجة	603هـ		275/27
الأحقاف	الأربعاء، عشرين ذي الحجة	603هـ		36/28
الفتح	الخميس، السابع عشر ذي الحجة	603هـ		109/28

مـــن خــــلال التواريخ المثبتة في الجدول، والواردة في ختام تفسير الرازي لبعض سور القرآن

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الكريم، يمكن تسجيل بعض الملاحظات منها:

أن الـــرازي ألّـــف تفسيره في مرحلة متأخرة من عمره، حيث تمتد تلك التواريخ بين خمس وتســـعين بعدخمسمائة، وبين سنة ثلاث وستمائة. وبذلك يكون تفسيره قد أخذ منه فترة لا تقل عن تسع سنوات، كما قد لا تزيد عنها، نظرا لعدم ذكره لتواريخ ختمه لكل سور القرآن الكريم، كما لم يتّبع في تفســـيرها نظاما معينا، الأولى فالثانية حسب ترتيب المصحف الشريف؛ فسورتا الأنفال والتوبة الواقعتان في المصحف قبل سورة كل من يونس، هود، يوسف، الرعد وإبراهيم، لكن تفسير كل هاته السور كان قبل سورتي الأنفال والتوبة -انظر الجدول السابق-، ونجد الأمر نفسه في سورة الفتح التي ختمها قبل الأحقاف، مع أن هذه الأخيرة مرتبة قبل الأولى في المصحف الشريف.

على أن السنوات المتبقية من الفترة التي قضاها في تفسيره، ولم يؤرخ فيها إن كان فسر فيها، قـــد تكـــون كافية لتفسيره باقي السور -وهي خمس سنوات-، وذلك ليس بالمستحيل على أمثال مفكـــرنا، خلافا لمن يرى[1] أن المدة التي استغرقها في تفسيره لا تقل عن العشر سنوات، نظرا للفترة الـــتي قضاها في استنباط علوم سورة الفاتحة، وتفسيره سورة البقرة، إضافة إلى ما احتاجه من وقت لتفســـير بـــاقي السور التي لم يذكر تاريخ ختمها، ولا نعلم عن ذلك شيئا؛ لذلك قد يكون تأليفه لتفسيره قد أخذ منه المدة المشار إليها أعلاه -المضبوطة في الجدول السابق- فقط.

مع العلم أن الرازي لم يقض السنوات الأخيرة من حياته في تأليف تفسيره فحسب، بل ألّف فيها أيضا كتاب "المطالب العالية من العلم الإلهي"[2]، الذي قد يكون آخر ما ألّف؛ لأنّ الانتهاء منه كان في سنة خمس وست مائة للهجرة.

كمـــا لا يمكـــن القول أن "مفاتيح الغيب" أُلّف على فترات متقطعة؛ لأن الأمر غير مؤكد، والانقطاع الذي يبدو من خلال تلك التواريخ -المثبتة في الجدول- قد يكون فيه تفسير للسور المتبقية غير المؤرخ ختمها.

إضـــافة إلى ذلـــك، نلاحظ أن تنقلات الرازي من بلاد إلى أخرى بين بغداد، غزنيين وهراة

[1] ـــمنهم: محمد الفاضل بن عاشور: التفسير ورجاله، ص121.

[2] ـ الـــرازي: المطالب العالية في العلم الإلهي، تحقيق: أحمد حجازي السقا، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1407 هـــ-1987م، ج9، ص390.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وغيرها لم يثنه عن تفسير القرآن الكريم.

وأول ضبط لتاريخ ختم تفسير السور في "مفاتيح الغيب" نجده مثبتا في آخر سورة آل عمران، وآخره في سورة الأحقاف، مع التنبيه إلى أن محمد الفاضل بن عاشور[1] وقع في لبس، إذ اعتبر آخر تاريخ هو شهر رمضان سنة الواحد وستمائة الهجرية، كما وقع في ذلك أيضا محمد العربي[2]، إذ أورد آخر تاريخ له السابع عشر ذي الحجة سنة ثلاث وستمائة للهجرة. لكن الحقيقة أن آخر تاريخ نقف عليه هو الأربعاء العشرين ذي الحجة سنة ثلاث وستمائة للهجرة.

كذلك نجد هند شلبي[3] في دراستها حول "مفاتيح الغيب"، ذكرت تاريخ ختم تفسير سورة النحل في ليلة الثلاثاء 595هـ، مع أن الثابت فيه ذكر اليوم دون السنة والشهر. والمرجح أنها خُتمت في محرم من سنة اثنين وستمائة[4].

كما جاء تحديدها لبعض تواريخ غير مضبوط، إذ أغفلت سنة الواحد وستمائة للهجرة، وألحقت السور[5] التي خُتم تفسيرها في هذه السنة بسنة خمس وتسعين بعد الخمس مائة، كما ألحقت بعض السور بسنة اثنين وستمائة، والحقيقة أنها خُتمت في سنة ثلاث وستمائة للهجرة. إضافة إلى وجود خلل في ضبطها التواريخ بالأشهر مثل سورة الزمر التي أوردتها بتاريخ آخر ذي الحجة، وهي مثبتة في "مفاتيح الغيب" بتاريخ آخر ذي القعدة، وغيرها.

وكل هذا مخالف لما وقفنا عليه في قراءتنا لتفسير الرازي والذي ثبتناه في الجدول البياني السابق.

ثالثا: نسبة "مفاتيح الغيب" إلى الرازي

تعدّ مسألة تتمة الرازي لتفسيره، من النقاط المهمة التي لا يمكن إغفالها في هذه الدراسة نظرا لوجود شكوك حول هذه القضية، فهل أتمّ تفسيره لسور القرآن الكريم كلها؟ وما مدى نسبة صدق

---

(1) –محمد الفاضل ابن عاشور: التفسير ورجاله، ص121.

(2) –محمد العربي: المنطلقات الفكرية عند الإمام الفخر الرازي، ص85.

(3) –هند شلبي: "مشاكل الألوهية من خلال تفسير الرازي"، ص49.

(4) –إذ يقول الرازي: «في اليوم الذي كنت أكتب هذه الأوراق، وهو اليوم الأول من محرم سنة اثنين وستمائة حصلت زلزلة». –التفسير الكبير، ج20، ص51-52.

(5) –وهي: الأنفال، التوبة، إبراهيم، الرعد، يوسف، هود، يونس وسورة الإسراء.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

"مفاتيح الغيب" إليه؟

لقـــد كانـــت هـــذه النقطة مثار اهتمام العديد من الباحثين، والذي يؤخذ من أقوال بعض العـــلماء[1] أن الـــرازي تـــوفي و لم يـــتم تفسيره، إنما بلغ فيه سورة الأنبياء. وتأرجحت الآراء بين شخصـــيتين تكونا قد أكملتا هذا التفسير من بعده، تمثلتا في كل من نجم الدين القمولي[2]، وشهاب الدين الخيوفي[3].

في حين هناك من أعطى حلا لهذا الاضطراب مفاده أن «الرازي كتب تفسيره هذا إلى سورة الأنبـــياء، فـــأتى بعده شهاب الدين الخيوفي فشرع في تكملته، ولكنه لم يتمه، فأتى بعده نجم الدين القمولي فأكمل ما بقي، كما يجوز أن يكون الخيوفي أكمله إلى النهاية، والقمولي كتب تكملة أخرى غير التي كتبها الخيوفي»[4].

والملاحـــظ أن هذا التوفيق لم يكن مبنيا على دراسة جادة لحل هذا الإشكال والفصل فيه، إنما قام على الظن الذي قد يخطئ وقد يصيب، اعتمادا على الظاهر من عبارة حاجي خليفة –وباعتراف الموَفِّق–، التي جاء فيها تأكيد على أن "مفاتيح الغيب" تفسير كبير، لكن الرازي لم يكمله، بل صنف القمولي تكملة له، والخيوفي كمّل ما نقص منه أيضا[5].

مقابل ذلك، وجد من يثبت أن الرازي أكمل تفسيره، إذ يقول القفطي: «ومن تصانيفه –أي الـــرازي– كـــتاب تفســـير القرآن الكبير سماه "مفاتيح الغيب" سوى تفسير سورة الفاتحة، أفرد لها

(1) –ابن خلكان: وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان، ج4، ص249.
–شـــهاب الديـــن بن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط)، 1997م، ج1، ص324-325.

(2) –هـــو أحمـــد بن محمد بن محي بن يس أبو العباس القرشي، المخزومي، القمولي،ينسب إلى قمولة –بلدة بصعيد مصر– شافعي المذهب، فقيها وعالما في اللغة العربية، له "البحر المحيط في شرح الوسيط"، "جواهر البحر"، توفي سنة 727هـــ.
–عبد الرحيم الأسنوي: طبقات الشافعية، ج2، ص169.
–عبد الحي بن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج6، ص76.

(3) –هـــو أحمد بن عمر أبو الجناب الخيوفي، الصوفي والمحدث، ينسب إلى "خيّوف" إحدى قرى خوارزم، شافعي المذهب، له تفسير في اثنى عشر مجلدا، توفي سنة 618هـــ. –عبد الحي بن العماد: المرجع نفسه، ج5، ص79-80.

(4) –محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون، (د.د)، (د.م)، ط2، 1396هـــ–1976م، ج1، ص293.

(5) –حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج2، ص1756.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تصنيفا، في اثني عشر مجلدا بخطه الدقيق»[1]. فهل كان اطلاعه على "مفاتيح الغيب" هو الذي جعله يصف الخط الذي كُتب به؟

قـــد يكون الأمر كذلك نظرا لحداثة عهده بالرازي مقارنة مع الفترة التي عاش فيها القمولي، وبذلـــك يُســـتبعد أن يكون هذا الأخير هو الذي أكمل تفسير الرازي؛ لأنه كان متداولا في عهد القفطـــي –المتوفي سنة 646هـــ-. ويمكن أن يكون اطلاعه على "مفاتيح الغيب" بتحرير الخيوفي، رغـــم أن ابن العماد[2]، يؤكد أن الرازي التقى بالخيوفي، فاعترف بفضله، لكن الذي أكمل تفسيره هو القمولي.

وإذا كان هذا صحيحا، فإن القفطي يكون قد اطلع فعلا على "مفاتيح الغيب" بخط الرازي، ومع مرور الزمن أُتلف مما أدى بالقمولي إلى إعادة تحرير ما أُتلف منه.

أمـــا السؤال الذي يُطرح هنا: فإذا كان الخلوفي أو القمولي أكمل "مفاتيح الغيب" تفسيرا أو تحريرا، فلماذا لم يصرح بذلك؟

إن ما يمكن قوله بعد قراءة "مفاتيح الغيب"، أن الرازي أتمه تفسيرا، لكن تدوينا فإن جزءا كبيرا منه ليس من تحريره، علما أن كتب التراجم لم تسعفنا في الجزم بحقيقة نسبة هذا التفسير–المتداول بـــين أهل العلم– بأكمله إلى الرازي، حتى تلك التي أشارت إلى هذه المسألة فإنها لم تبين ما إذا كان الرازي لم يكمل تفسيره لجميع سور القرآن، أم لم يتمه تحريرا؟

غـــير أن المهـــتمين بفكر الرجل حاولوا التحقيق في الأمر، وأبرز من عمل على تصحيح هذه النســـبة نجد محمد الفاضل بن عاشور، إذ عقد فصلا خاصا لهذه المسألة في كتابه "التفسير ورجاله" خلص فيه إلى نتيجة مفادها: «أن الرازي لما انتصب في آخر حياته لتصنيف التفسير تمكن من إخراج شـــيء مـــنه في تحريره النهائي، وبقي شيء منه في الأمالي والمسودات بيد بعض تلاميذه، فأقبل على تصـــنيفه وتحلـــيله، وألحق ذلك الفرع بالأصل. فالكتاب بروحه هو للرازي كله، وبتحريره هو من وضـــعه في الأول، ووضع تلميذه الخيوفي في الآخر، على أن تحقيق محل الفصل بين التحريرين أمر لا

---

[1] –القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، في: www. Alwaraq. Com

[2] –عبد الحي بن العمارد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج5، ص79. –ج6، ص76.

دليل عليه، ولا سبيل إلى تحقيقه بالقطع»[1].

هـذه النتـيجة التي تدعم ما ذهب إليه الصفدي[2]، من أنّ الرازي أكمل تفسيره على المنبر إملاء، وهو ما يجزم بأن الرازي أكمل القرآن الكريم تفسيرا، أما تحريره الذي قد يكون أحد تلاميذه هو الذي حرر ما بقي منه –بعد وفاة الرازي– في المسودات، مع عدم الجزم بمن قام بهذا العمل.

ويـبقى أمـر الفصل بين تحرير الرازي لتفسيره وما أكمله غيره أمر شبه مستحيل، ذلك أنّ الـرازي لم يراع في عمله ترتيب سور القرآن كما هي في المصحف الشريف؛ لذلك لا يمكن التأكيد عـلى أن سورة الأنبياء هي محل الفصل بين التحريرين، إضافة إلى أن ذلك المعيار الذي استُنِدَ إليه في الإقـرار بأن الرازي بلغ في تفسيره سورة الأنبياء لا يمكن اعتماده كدليل قاطع، لأننا نجد في تفسير سـورة يوسف –الواقعة قبل سورة الأنبياء– جاء فيه عبارة «قال مصنف الكتاب فخر الدين الرازي رحمـه الله»[3]، هذه العبارة التي تكررت في مواطن عديدة وفي أجزاء مختلفة[4]، ودون شك هي من عمل النساخ.

ومقابل تلك القوادح أو العبارات التي اعتمدت في القول بأن الرازي لم يكمل تفسيره، هناك دلائل تثبت أن الذي كتب الأجزاء الأولى منه هو الذي كتب الأقسام الأخيرة، ومن تلك الأدلة[5]:

–طريقة الاستدلال على القضايا وعرضها[6].

–أسـلوبه في الاسـتطراد، إذ أنـه ينبه بنفسه ببعده عن التفسير أحيانا بقوله: «فلنرجع إلى التفسير»[7].

---

(1) –محمد الفاضل بن عاشور: التفسير ورجاله، ص 127-128.

(2) –صلاح الدين الصفدي: الوافي بالوفيات، ج4، ص254.

(3) –الرازي: التفسير الكبير، ج18، ص145، 129.

(4) –الرازي: المصدر نفسه، ج30، ص169. –ج20، ص51-52. –ج21، ص72. –ج28، ص109.

(5) –هـذه الدلائـل التي فصل فيها محسن عبد الحميد في كتابه "الرازي مفسرا" ونقلها عنه: محمد العربي بوعزيز: نظرية المعرفة عند الرازي من خلال تفسيره، ص72-75.

(6) –الرازي: المصدر السابق، ج21، ص89، 97، 53.

(7) –الرازي: المصدر نفسه، ج24، ص6.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-رده على المعتزلة والكرامين وغيرهما من أصحاب الملل والنحل، مثاله ردوده على المعتزلة التي لا يكاد يخلو ذكرها من نقده لها وبيانه فساد هذا المذهب، إذ يقول: «لكنا بينا فساد هذا المذهب غير مرة»[1].

-ذكره للآراء ثم بيان ما ذهب إليه أصحابه -الأشاعرة-[2].

-عند تناوله موضوعا معينا، يشير إلى مكان وجوده في بقية السور، مع إشارته أحيانا إلى عدم ذكر مسألة معينة لأنها سبق الإشارة إليها في موضع آخر، فلا فائدة في الإعادة[3].

-التوافق في ختمه السور بالدعاء خاصة،

هذا مع الإشارة إلى وجود عبارات تفيد الحذف من المادة الأصلية لتفسير الرازي في بعض المواضع، أو عدم إيرادها كما ذكرها، مثال ذلك ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[4]. نجد عبارة «المسألة الأولى أصولية، ذكرها الإمام فخر الدين رحمه الله في مواضع كثيرة، ونحن نذكر بعضها»[5]. كما نجد في تفسيره قوله تعالى: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ.كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾[6]. وردت عبارة «وشيء من هذا رأيته في كلام الإمام فخر الدين رحمه الله بعد ما فرغت من كتابه هذا، مما وافق خاطره، على أني أصبت منه فوائد لا أحصيها»[7].

هذه العبارات التي هي بلا شك من عمل النساخ الذين حرروا هذا التفسير، ومهما كانت القوادح فإنّ الكتاب يُنسب بروحه إلى الرازي، وبقي تحريره محل خلاف في تعيين الفرع الذي أُلحق بالأصل.

(1) -الرازي: التفسير الكبير، ج24، ص6.
(2) -الرازي: المصدر نفسه، ج21، ص16.
(3) -الرازي: المصدر نفسه، ج19، ص168-169. -ج20، ص153.
(4) -سورة الواقعة، الآية: 24.
(5) -الرازي: المصدر السابق، ج29، ص156.
(6) -سورة الواقعة، الآية: 22-23
(7) - الرازي: المصدر السابق، ج29، ص156.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثاني: قيمة "مفاتيح الغيب"

أولا: الغاية من تأليفه

لكل مؤلف غاية مما يكتبه، قد يوضحها أو تستنبط من خلال تصفُّح ما كُتب، وما الوقوف على غرض الرازي من تأليف "مفاتيح الغيب" إلا محاولة منا لإدراك جانبا من قيمته المعرفية.

والداعي الذي حمل الرازي على عمله هذا، أشار إليه في مواضع مختلفة من تفسيره، إذ المطلع عليه يقف على ذلك في صفحاته الأولى، التي يقرّ فيها برغبته في طلب وتحصيل مسائل عقدية يقينية[1].

والسبيل إلى تحقيق موضوع تلك المسائل العقدية هو الوحي الإلهي، انطلاقا من الإيمان بالله ﷻ، الذي يعتبره الرازي أهم المطالب للإنسان مما يتوجب عليه إدراكه بقدر الإمكان؛ لأنه أصل الإيمان بالشرائع؛ «فمن لا يعرف الله استحال أن يعرف نبيا أو كتابا»[2]، وإذا عرف الإنسان ربه أدرك أن القرآن الكريم كلامه، ومحمد ﷺ نبيه، فيتمكن بذلك من معرفة على كيفية التخلص من شبهات أهل الزيغ وإبطالها، إذ المتدبر فيه يدرك دلائل التوحيد والنبوة وغيرها من أصول الدين –مما لا يوجد في سواه–، كما يجده متضمنا لشرائع مطابقة للعقول السليمة وموافقة لها[3]، مصداقا لقوله تعالى: ﴿الم. ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[4].

وإذا كان موضوع تلك المسائل العقدية مصدره الوحي الإلهي، فإن أداتها عقلية؛ لذا يرى الرازي وجوب البحث عما في هذه الأداة –العقل– اعتمادا على نور الوحي، فيقول: «إن البصيرة لابد فيها من سلامة حاسة العقل ومن طلوع نور الوحي الإلهي»[5]. وكون الإنسان خُلق للمعرفة، فهو مدعو للتأمل والتفكر والتدبر مع التروي في طلبه لمعرفة الأشياء كما هي معرفة صحيحة.

(1) –الرازي: التفسير الكبير، ج1، ص4.

(2) –الرازي: المصدر نفسه، ج4، ص84.

(3) –الرازي: المصدر نفسه، ج24، ص217.

(4) –سورة البقرة، الآية: 01-02

(5) –الرازي: المصدر السابق، ج13، ص173.

هـذا على أن الإقرار بكون أصل المعارف وأشرفها الإيمان بالله -مع أنّ إدراك حقيقته عزّ وجلّ ليست إلا له- يستوجب معرفته تعالى بآثاره؛ لأنه هو المؤثر الأول في كل الممكنات[1]، وما على الإنسان إلا معرفة خالقه حسب ما توفر له من قدرات، إذ من الممكن له الاطلاع والوقوف على تلك الآيات الموصلة إلى ذلك.

كما يمكن معرفة الغاية من تفسيره، بالرجوع إلى وصيته التي جاءت في مستهلها: «أخلائي في طلب اليقين»[2]، وهو تأكيد صريح على سعيه من وراء ما ألفه إلى طلب اليقين، وما كتبه دون شك هو تقرير لما اعتقده أنه الحق، إذ يقول: «إني ما أردت بما مدّ به قلمي تحقيق باطل، وإبطال حق، وإني ما سعيت إلا في تقرير ما اعتقدته أنه الحق، وتصورت أنه الصدق...»[3]؛ لذلك جاءت مؤلّفاته حاملة لما اعتُقد أنه الحق نتيجة اختباره للطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، التي لم يجد فيها ما وجده في القرآن الكريم[4]، فأثبت بذلك تفوق الوحي الإلهي على سائر الطرق، إذ انفرد بهداية العقول البشرية إلى غايات الحكمة من طريق العصمة، وعمل الرازي على بث ذلك بين الناس من خلال ما ألّف وما تضمنه "مفاتيح الغيب".

ومن ثمة تكون الوصية التي تركها الرازي، مؤكدة لغايته من تأليف "مفاتيح الغيب"، الذي بين فيه معالم طريقته في تحصيل اليقين، من خلال تفسيره للاستعاذة[5]، ومما تقوم عليه تلك المعالم، معرفة المنهيات في باب الاعتقادات، هذه المعرفة التي لا يمكن تحقيقها إلا بعد معرفة آراء فرق أهل العالم -المخالفة للقرآن الكريم- في مسائل أصول الدين، وإدراك ظلالها مع نقدها للكشف عما في الفكر الإنساني من عقائد فاسدة، وذلك لتبصير الناس بما أُنزل به الوحي الإلهي، فتكون الاستعاذة في نظر مفكرنا دعوة إلى طلب مسائل يقينية يتم تحصيلها بالنظر في الفكر الإنساني، وبالكشف عما فيه من عقائد فاسدة؛ للتمكن من إزالة الشبهات وتقوية اليقين، والهدف من ذلك الارتقاء إلى مرتبة تفنيد الشبهات ومجادلة أصحابها إلى مكتبة النقد الفكري لها؛ لإزالتها ولتحلّ محلّها معارف حقيقية

---

(1) -الرازي: التفسير الكبير، ج13، ص04.

(2) -انظر: وصيته في التفسير الكبير، ج1، ص-ل.

(3) -الرازي: المصدر نفسه، ج1، ص-م.

(4) -الرازي: المصدر نفسه، ج1، ص-م.

(5) -الرازي: المصدر نفسه، ج1، ص3-4.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يقينية مصدرها الوحي الإلهي[1].

ومنه يمكن القول أن الرازي كان غرضه الأساسي، تلك القضية المحورية التي عالجها في "مفاتيح الغيب" وهي طلب اليقين وتحصيل مسائل حقيقية يقينية، وإن تعددت سبل تحقيقها. ومن ثمة تتبين أهمية تفسيره، وتميزه في التعامل مع آيات الوحي الإلهي.

إذن فنحن أمام تفسير جديد في منطلقاته وفي غاياته، مما يجعلنا نقف على سعي جاد إلى تحصيل معرفة حقيقية أداتها طبيعية، وموضوعها مصدره الوحي الإلهي؛ لذلك يمكن القول أنّ مفكرنا يتقدم بخطى عقلية لإدراك الله بطريق الاعتبار[2]، والاستدلال[3].

ولم تكن غاية الرازي من الاشتغال بالتفسير تحصيل الإيمان عن معرفة، والترفع عن التقليد فحسب، بل أراد أيضا تقوية اليقين وإزالة الشبهات[4]، نظرا لما تولده كثرة الدلائل من أثر في تحقيق ذلك.

وطريق تحصيل هذه الغاية، إلى جانب الاستدلال المعهود عند العلماء بحدوث الأجسام على وجود الخالق، أضاف -الرازي- البحث في أحوال العالمين العلوي والسفلي، وهو ما يبرر اهتمامه بالآيات الكونية، باعتبارها مباحث ضرورية، إذ المفسر الذي يزال يطالع في كل آية أسرار عجيبة ودقائق لطيفة، يقف عل عظمة القرآن بوجه أكمل وأفضل؛ لأنه تعالى إنما أنزل هذا الكتاب لهذه الفوائد والأسرار لا لتكثير النحو الغريب والاشتقاقات الخالية عن الفوائد[5]، ذلك ما جعله يسعى في تفسيره إلى شرح علوم السور والآيات، واستنباط ما اشتملت عليه من فوائد ودلائل بقدر المستطاع؛ لتوضيح ما جاء القرآن الكريم لتقريره، وهداية الناس.

هذه الرغبة التي نجدها قد صرح بها في بداية تفسيره لسورة الفاتحة بقوله: «اعلم أنه قد مرّ

---

(1) -للمزيد في هذه المسألة راجع: محمد العربي، المنطلقات الفكرية عند الإمام فخر الدين الرازي، ص86-88.

(2) -الاعتبار: عبارة عن العبور من الطرف المعلوم إلى الطرف المجهول، إذ المراد منه التأمل والتفكر. -الرازي: التفسير الكبير، ج18، ص227.

(3) -محمد العربي: المرجع السابق، ص88.

(4) -الرازي: المصدر السابق، ج4، ص122.

(5) -الرازي: المصدر نفسه، ج14، ص122-123.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

على لساني في بعض الأوقات أنّ هذه السورة الكريمة يمكن أن يُستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة، فأتى بعد هذا بعض الحسّاد، وحملوا ذلك على ما ألفوه من أنفسهم من التعليقات الفارغة عن المعاني»[1]، هذا الغرض وإن كان خاص بهذه السورة، إلا أنه شمل تفسيره لباقي سور القرآن الكريم.

ثانيا: آراء العلماء فيه

يعدّ بيان غرض الرازي من تأليف "مفاتيح الغيب"، حريّ بنا لإبراز قيمته، معرفة آراء العلماء فيه.

وبتتبعنا لآراء العلماء والباحثين في الفكر الإسلامي ندرك تباينها حول قيمة هذا التفسير بين متحمس له مادح، ومتحمس عليه مستنقص، وأهم ما قيل عنه ما يُنسب إلى ابن تيمية من أنه فيه كل شيء إلا التفسير[2]، ويؤيده ابن خلكان بإقراره أنه جُمع فيه كل غريب وغريبة[3].

ومن بين ما اتهم به الرازي أنه يورد في تفسيره شبهات الخصم بعبارات كثيرة، ويجيب عليها بأدنى إشارة، بل عُدّ ذلك من عيوب الرجل فيما أورده ابن حجر في قوله: «ورأيت في الأكسير في علم التفسير لنجم الدين الطوفي مما ملخصه، ما رأيت في التفاسير أجمع لغالب علم التفسير من القرطبي، أو من تفسير الإمام فخر الدين، إلا أنه كثير العيوب، وحدثني شرف الدين النصيبي عن شخصية سراج الدين السرماياجي المغربي أنه صنف كتاب المآخذ في مجلدين فيهما ما في تفسير الفخر من الزيف والبهرج، وكان ينقم عليه كثيرا، ويقول: يورد شبه المخالفين في المذهب والدين على غاية من الوهاء، قال الطوفي: «ولعمري هذا دأبه في كتبه الكلامية والحكمية حتى اتهمه بعض الناس، لكنه خلاف ظاهر حاله. ولعل سببه أنه كان يستفرغ جهده في تقرير دليل الخصم، فإذا انتهى إلى تقرير دليل نفسي لا يبقى عنده شيء من القوى»[4].

في حين هناك من اعتبره كتابا أشبه ما يكون بموسوعة في علم الكلام، وعلوم الكون، هذه

---

(1) ـالرازي: التفسير الكبير، ج1، ص3.
(2) ـجلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص226.
(3) ـابن خلكان: وفيات الأعيان في أنباء أبناء الزمان، ج3، ص381.
(4) ـابن حجر العسقلاني: لسان الميزان، ج4، ص428.

الميزة الغالبة عليه كادت تقلّل من أهميته كتفسير للقرآن الكريم، وذلك لاشتماله على مباحث عُدّت حادثة في الملة، على ما كانت عليه في عهده -الرازي- من العلوم الرياضية والطبيعية والهيئة[1] وغيرها، وهو ما أدّى إلى مؤاخذته على طريقته في التفسير بإقحامه لمسائل تبدو لا علاقة لها بهذا الأخير.

مقابل ذلك يؤكد تاج الدين السبكي على أن "مفاتيح الغيب" فيه كل شيء مع التفسير[2]، ويعلق ابن عاشور محمد الفاضل على ما قيل حول تفسير الرازي بقوله: «وإذا كان بعض الناس لم يزل في شك من القيمة السامية لهذا التفسير، فإن كلمة قديمة لاكتها الألسن قد كانت من أعظم أسباب هذا الشك، وذلك ما راج في مجالس العلماء قديما وحديثا، من أن تفسير الرازي قد اشتمل على كل علم إلا التفسير، فإنها كلمة صدرت من غير روية ولا تحقيق، وانبنت على مقارنة سطحية بما أشار إليه فخر الدين الرازي نفسه من تلك الطريقة المألوفة التي التُزمت في التفسير من قبله، وهي طريقة تحليل التركيب والغوص على مناح الاستنباط منه، وأنها لا محالة طريقة جديدة لا غنى عنها لطالب التفسير على الوجه الأكمل، ولكنها ليست كل التفسير»[3].

هذا ونجد جولد تسيهر يكتفي بإشارة وجيزة عن تفسير الرازي، إذ يعدّه من خاتمة التفسير المثمر الأصيل الذي يردّ فيه على المعتزلة من آن لآخر[4].

وبعيدا عن هذه الأحكام والمواقف المتباينة، وبالاطلاع على محتوى "مفاتيح الغيب"، سورة بسورة، نقف على حقائق عديدة منها: أنه احتوى مع التفسير مباحث لغوية وفقهية وكلامية وفلسفية، إضافة إلى مسائل في علم الفلك والعلوم الطبيعية والرياضية وغيرها، مما جعل المباحث فيه متعددة ومتنوعة؛ فعُدّ بذلك مجموعة من الكتب، كتاب فقه على اختلاف مذاهبه ومسائله، وهو كتاب كلام وفلسفة حوى كل مذهب ونحلة، وهو كتاب علم كوني به تصوير الأفلاك وتشخيص

---

(1) محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون، ج1، ص295.

(2) فتح الله خليف: فخر الدين الرازي، ص41.

(3) محمد الفاضل بن عاشور: التفسير ورجاله، ص113.

(4) جولد تسيهر: مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة: عبد الحليم النجار، دار اقرأ، بيروت، ط2، 1403هـ-1983م، ص146.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الأجسام، وما عدا ذلك مما وصل إليه العلم في عصره، كما أنه كتاب أخبار وأدب وتصوف[1].

كما أننا نجد نوع من الإطناب مع التفصيل في التفسير، لكن إلى جانب ذلك نقف على دقة في تفريع المسائل، وهذا ما جعل الرازي يستوعب كل ما له علاقة بتلك المسائل، وهو أمر متبع سواء في موضع إيراد الشبه وأدلة الخصم، أو في جانب عرض أدلة من يرجح رأيهم من أصحابه.

على أنه قد يؤاخذ الرازي في مواضع من تفسيره على تقصيره في الرد القوي، مثال ذلك في المسألة الأولى من تفسيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2]. فالملاحظ أن الرازي يكتفي بذكر أدلة الفريقين في مسألة الخلق، دون أن ينسب الآراء إلى أصحابها، إذ يقول: «إنّ الناس اختلفوا في أنّ الخلق هل هو المخلوق أو غيره، فقال عالم من الناس الخلق هو المخلوق، واحتجوا بالآية...واحتج القائلون بأن الخلق غير المخلوق بوجوه...»[3]، مكتفيا بذكره لهذه الوجوه دون ذكر أطراف الخلاف والرد عليهم، وكأنّ هدفه هو الحث على البحث والتحقيق في المسألة، وما كان قد تعلق بها من خلاف بين الفرق الكلامية.

لذلك يمكن القول أن الرازي في ردوده لم يكن مقصرا في كل حين، وإنما ناقش مخالفي أفكاره، مناقشة محكمة في أكثر الأحيان، مع تقصيره مرات أخرى الذي قد يكون ناتج عن ردود سابقة أو لاحقة في مواضع أخرى من تفسيره، أو من أنه كان يعتقد أن الأمر واضح لا يحتاج إلى مزيد من التحقيق.

ذلك عكس ما نجده في حالات أخرى، من الردود القوية، إذ يورد أحيانا مناقشات علمية تؤكد قدرته على مقارعة الخصم حجة بحجة؛ لذلك هناك من يؤكد أنّ الرازي إذا تصدّى للرد على

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) عبد العزيز مجذوب: الرازي من خلال تفسيره، ص74.

(2) سورة البقرة، الآية: 164.

(3) الرازي: التفسير الكبير، ج2، ص46.

الخصوم، فلابد أن ينتصر عليهم، إما بمحو الشبهة تماما أو بزلزلة أركانها[1]، كمناقشته لآراء المعتزلة في مواضع مختلفة من تفسيره؛ لذلك فالحكم على تقصيره في مناقشتهم أمر يتطلب متابعة في المسألة في أجزائه كلها.

وما يمكن التنبيه إليه هو أن الوقوف على حقيقة معالجة الرازي لمسألة معينة لا يكفي الاطلاع على ذلك في موضع واحد من تفسيره؛ لأنه قد لا يجد ما ينتظره، فهو -الرازي- عند إثارته لمسألة معينة قد لا يستوفي حقها من المناقشة في موضع واحد، بل يأتي بحثه فيها مبثوثا مع الآيات التي تمت بصلة للقضية المطروحة؛ لذلك لابد من اقتفاء أثر المسألة الواحدة وتتبعها في ثنايا تفسيره لتكوين نظرة متكاملة حول الموضوع. مثال ذلك قضية "الجبر والاختيار"، فإنّه في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2]، يشير إلى المسألة لكنه لا يستوفيها بحثا في هذا الموضع، بل يقول: «واعلم أن الكلام في هذه المسألة طويل جدا، والقرآن مملوء منه، وسنستقصي القول فيها في هذا التفسير إن قدّر الله ذلك»[3].

ومع هذا الاعتراف نقول بأن الأمر يحتاج إلى جهد كبير وصبر لا ينفذ؛ لتحصيل فكرة واضحة حول مسألة ما من تفسيره، ذلك أن "مفاتيح الغيب" من مؤلفاته التي أخرجها في أُخريات حياته، مما جعله يمثل آخر ما تمخضت عليه أفكاره، إذ حرص فيه على أن يكون ملمّا بكل معارفه التي حصّلها طيلة حياته، والمساعدة على فهم القرآن الكريم.

هذا على أنّ تلك الآراء المتباينة حول تفسير الرازي -بغض النظر عن منطلقاتها في أحكامها- فإنها تؤكد على أن "مفاتيح الغيب" اشتمل على أمور ومسائل لم تكن معتادة ومألوفة في التفسير حتى ذلك العصر.

وقد تنبه الرازي إلى خروجه عن المألوف في تفسيره، كما أدرك أن إكثاره من علم الهيئة وغيرها على خلاف المعتاد؛ لذلك نجده يبرر عمله ويردّ على من عاب عليه ذلك بقوله: «إنك إذا

(1) -صلاح الدين الصفدي: الوافي بالوفيات، ج3، ص252.
(2) -سورة البقرة، الآية: 06.
(3) -الرازي: التفسير الكبير، ج2، ص50.

تأملت في كتاب الله حق التأمل لعرفت فساد ما ذكرته»[1]، مع العلم أن الاعتقاد في شرح القرآن الكريم عنده يكون بطريق الوقوف فيه على سبيل التفصيل والتعيين، وكل من كان وقوفه على دقائق ذلك الكتاب –القرآن الكريم– ولطائفه أكثر، كان اعتقاده في عظمة الله وجلالته أكمل[2].

لذلك لم يكتف الرازي بتبرير خروجه عن المألوف في التفسير، بل دافع عن نفسه وعن أسلوبه الجديد، بتوجيه النقد إلى من اقتصر في تفسيره على الجانب اللغوي والأخبار، وأغفل ما في القرآن الكريم من إشارات علمية؛ ودلالتها على العلم والقدرة الإلهية، بقوله «إنه تعالى إنما أنزل هذا الكتاب بهذه الفوائد والأسرار لا لتكثير النحو الغريب والاشتقاقات الخالية عن الفوائد والحكايات الفاسدة»[3].

على أنّ ما يمكن قوله حول قيمة عمله هذا، أنه يُعدّ من أجلّ التفاسير وإن كان قد أطال في الاستدلال وردّ الشبه، إطالة كادت تغطي كونه كتاب تفسير، إلا أننا نجده إلى جانب ذلك قد وفّى التفسير حقه وفق متطلبات عصره، مستدلا على وحدانية الله وقدرته وإرادته وواسع علمه؛ لذلك إن فقدت كتب التفسير فيكفي تناول "مفاتيح الغيب" واستيعابه للدراسة؛ لأنه يغني عن غيره نظرا لقيمته[4] المعرفية.

ولتحقيق قصده من دراسته التفسيرية، فقد سخر كل معارفه لإثبات أن ما ورد في القرآن الكريم من دلائل إيمانية يفوق سائر الطرق الكلامية والفلسفية، إذ جاء في وصيته «...ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية،فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال لله، ويمنع عن التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات»[5]، فكانت الآيات الكونية من الدلائل التي اعتمد عليها في بيان حقائق الإيمان، فما هي الأسس التي بنى عليها منهجه في الاستدلال بها؟ وفيما تتمثل منطلقاته في عمله هذا؟

---

(1) –الرازي: التفسير الكبير، ج14، ص121.

(2) –الرازي: المصدر نفسه، ج22، ص14.

(3) –الرازي: المصدر نفسه، ج14، ص122.

(4) –محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون، ج1، ص288.

(5) – الرازي: المصدر السابق، ج1، ص–ل.

الفصل الثالث:

المقدمات المنهجية للاستدلال بالآيات الكونية عند الرازي

المبحث الأول: مفهـــوم المنهج والاستدلال

المبحث الثاني : منطلقات الرازي في الاستدلال بالآيات الكونية

المبحث الثالث : قواعـد منهـج الرازي في الاستدلال بالآيات الكونية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمهيد:

يعدّ حديث القرآن الكريم عن الآيات الكونية أمرا بالغ الأهمية في الفكر الإسلامي، باعتبارها مجالا للتفكّر ومادة للتدبر، وذلك ما ندركه من أبعادها الوظيفية؛ فكانت النظرة الجديدة التي أسسها الوحي الإلهي لعناصر الآفاق مسلكا تنوعت خصائصه، وتعددت أساليبه في توظيفها، ومنه تجلت أهمية تلك الآيات في عرض العقيدة الإسلامية إثباتا ودفاعا.

وهو ما يشكل نقطة انطلاق المسلمين في التعامل الإيجابي معها؛ فكان الرازي ممن سعوا إلى تجسيد إيمانهم بضرورتها، ومدى فعاليتها في الاستدلال على الحقائق الإيمانية، وما "تفسيره الكبير" إلا مجالا لتطبيق ما آمن به.

أما إذا أردنا معرفة الأساس الذي بنى عليه مفكّرنا موقفه من الآيات الكونية، باعتبارها دلائل على أصول الدين، من الضروري البحث عن أسس منهجه، وذلك انطلاقا من الإطار المرجعي الذي اعتمده في استدلاله بحقائق الآفاق.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول: مفهوم المنهج والاستدلال

المطلب الأول: مفهوم المنهج

أولا: لغة:

المنهج من النهج: وهو الطريق الواضح البيّن، والمستقيم.

جمعه نهجات، ونهج، ونهوج.

والمنهج مأخوذ من نهج الأمر؛ أي وضُح، فكأنه في الأصل صيغة مبالغة، أو اسم آلة، إذ به يُنهج الأمر ويتضح[1].

أما المنهاج، فهو الطريق الواضح، والخطة المرسومة[2].

يقال: استنهج الطريق، أي صار نهجا، وفي حديث ابن عباس عبد الله –رضي الله عنهما– قوله: «لم يمت رسول الله ﷺ حتى ترككم على طريق ناهجة»[3]، أي واضحة وبيّنة.

كما يقال: اعمل على ما نَهَجْتُه لك، أي على ما أوضحته وبيّنته لك، ومنه فلان يستنهج سبيل فلان، أي يسلك مسلكه.

وفي القرآن الكريم ورد اللفظ في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[4]، منهاجا أي طريقا واضحا في الدين[5]، أو السبيل التي تُسهّل على الإنسان السير نحو

---

[1]–ابن منظور: لسان العرب، ج6، ص4555.

–مجمع اللغة العربية: معجم ألفاظ القرآن الكريم، مج2، ص765.

[2]–مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، أخرجه: إبراهيم أنيس وآخرون، مطابع المعارف، مصر، ط2، 1392هـ–1972م، ج2، ص965.

[3]–ابن منظور: المرجع السابق، ج6، ص4554.

[4]–سورة المائدة، الآية: 48.

[5]–محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج7، ص223.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

غايته[1].

فما نلاحظه أن المنهج يدور حول معنى أساسي،وهو الطريق أو السبيل أو الخطة المحددة والمتبعة للوصول إلى غاية معينة، وهو عام في كل مسلك، غير مقتصر على الطريق المادي.

هذا، وقد عُدّ[2] المنهج ترجمة للكلمة الفرنسية (Méthode)، التي كانت تعني عند فلاسفة اليونان –وبالتحديد أرسطو وأفلاطون- البحث والنظر.

ثانيا: تعريف المنهج اصطلاحا:

إذا كان علم المناهج (Méthodologie) فرع من المنطق، الذي يعنى بتحديد الشكل العام، أو الطريق التي يتكون بها أي علم[3]، فإن العلماء قدّموا لمصطلح "المنهج" تعاريف عديدة، تختلف باختلاف العلوم.

فنجد أن المصطلح قُصد به الخطة المرسومة والمتبعة في الدراسة أو في العلم؛ فقيل: منهج الدراسة والتعليم، ومنهج البحث العلمي، حيث تختلف طبيعته باختلاف المجالات[4].

وباعتبار أن المنهج وسيلة توصل إلى غاية معينة، فإن المنهج العلمي هو خطة منظمة لعدة عمليات ذهنية أو حسية، بغرض الكشف عن الحقيقة أو البرهنة عليها[5].

لذلك قيل عن منهج المعرفة:أنه الطريقة العلمية المتبعة للكشف عن الحقائق، وللوصول إلى إجابة عن التساؤلات التي يطرحها الإنسان[6].

ومن ثم، فقد تعددت التعريفات التي قدمها العلماء للمصطلح، ومفادها –في مجملها-، أنه الطريق الواضح في تحصيل علم، أو اكتساب معرفة، يهتم بالتفكير بالدرجة الأولى؛ لهذا عُرف بعلم التفكير.

---

(1)–ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس، بيروت، ط. جديدة مصححة، (د.ت)،ج1، ص329.

(2)–عبد الرحمن بدوي: مناهج البحث العلمي، دار القلم، بيروت، ط3، 1977، ص4.

(3)–محمد محمد قاسم: المدخل إلى مناهج البحث العلمي، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1999م، ص52.

(4)–مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مج2، ص966.

(5)–مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، ص195.

(6)–علي جابر: نظرية المعرفة عند الفلاسفة المسلمين، دار الهادي، بيروت، ط1، 2004م، ص69.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كما عُدّ «الترتيب الصائب للعمليات العقلية التي نقوم بصدد الكشف عن الحقيقة والبرهنة عليها»[1].

هذا، وقد اعتبر أيضا «فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، من أجل الكشف عن الحقيقة في العلوم، بواسطة طائفة من القواعد العامة، التي تهيمن على سير العقل، وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة»[2].

وبذلك يكون للمنهج قواعد، يعتمدها العقل في بحثه عن الحقيقة في أي مجال من مجالات العلوم، إذ لا ينحصر في الطريق المتبع من طرف الباحث، ولا يقتصر عليه فحسب، إنما يضاف إليه حسن تنظيم الأفكار التي يرصدها، ويتحصل عليها.

فما يمكن قوله من خلال ما قُدّم من تعاريف، أن المنهج عبارة عن بناء للأفكار، وتقديمها منظمة، وليس البرهنة عليها؛ لذلك يكون دائما الموقف ثمرة للمنهج، إذ نصل إليهباتباع طريقة معينة خلال البحث، وتقصّينا للحقيقة.

وبما أن جل هذه التعاريف لا تخرج في مجموعها عن مدلول واحد، وهو الخطة أو القواعد المتبعة في إدراك الحقيقة المجهولة، أو من أجل البرهنة عليها لغيرنا، بقي أن نوضح المراد بمنهج الرازي في الاستدلال بالآيات الكونية، وقبل ذلك من الضروري الوقوف على مفهوم الاستدلال؛ لنتمكّن من توضيح المقصود بمنهج الاستدلال بآيات الآفاق.

المطلب الثاني: مفهوم الاستدلال

أولا: في اللغة:

الاستدلال من استدل، يستدل، استدلال، على وزن استفعال، وهو وزن يفيد الطلب، والمراد به طلب الدليل[3]، إذ يطلق على إقامة الدليل مطلقا، مهما كان نوعه[4].

(1)-محمد محمد قاسم: المدخل إلى مناهج البحث العلمي، ص56.

(2)-عبد الرحمن بدوي: مناهج البحث العلمي، ص54.

(3)-مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ج1، ص294.

(4)-أيوب بن موسى الحسيني: الكليات، ص114.

يقال: استدل عليه، أي طلب أن يُدلّ عليه[1]، وهو فعل ثلاثي مزيد مأخوذ من "دلّ".

والملاحظ أن في القرآن الكريم لم يرد لفظ الاستدلال، وإنما ورد أصله "دلّ"، ومنه في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَامُوسَى﴾[2]، وفي قوله ﷻ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3]، حيث جاء بمعنى الإرشاد والهداية.

على أن المتفق عليه عند أهل اللغة أن الدليل هو ما يستدل به[4]، وما به الإرشاد، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾[5]، أي جعلنا الشمس مرشدا، ومنبّها إلى وجود الظلّ، ولولاها لم يُعرف هذا الأخير؛ لذلك يستدل الناس بالشمس وسيرها على أحوال الظل، كونه ثابتا أو زائلا، ويبنون حاجتهم إليه على حسب ذلك.

وبذلك يكون الاستدلال هو سوق الدليل، وتقريره للإثبات، أو هو البحث العقلي بطريقة منظمة توصّلا إلى حقيقة مجهولة، وذلك بمساعدة حقائق معلومة، أي انتقال الذهن من المعلوم إلى مجهول مكتشف[6].

هذا وبما أن الدليل هو المحور الذي يقوم عليه الاستدلال، فإن الأمر يقتضي الوقوف على معناه هو الآخر: إذ هو –الدليل– صيغة مبالغة من "دلّ"، ثم سمي الدليل "دلالة" لتسمية الشيء بمصدره[7].

---

(1)–مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مج1، ص294.

(2)–سورة طه، الآية: 40.

(3)–سورة الصف، الآية: 10.

(4)–مجمع اللغة العربية: معجم ألفاظ القرآن الكريم، مج1، ص481.

–ابن منظور: لسان العرب، ج2، ص1414.

(5)–سورة الفرقان، الآية: 45.

(6)–ميشال عاصي، إميل بديع يعقوب: المعجم المفصل في اللغة والأدب، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1987م، مج1، ص87.

(7)–أيوب بن موسى الحسيني: الكليات، ص439.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ويقال: دله على الطريق، أو على الشيء، يدلّه، دَلالَةً، ودِلالة؛ أي أرشده، ومنه فالدليل هو الدال، سواء كان ذلك بقصد ممن يجعله دلالة، أو من غير قصد كمن يرى حركة إنسان، فيعلم أنه حي[1]، مثاله قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾[2]، فتكون الدلالة ما يتوصل به إلى معرفة الشيء، كدلالة الإشارات والرموز[3].

ومن ثمة فالدليل هو المرشد إلى المطلوب، والموصل إلى الغاية، ومنه قولهم: يا دليل المتحيّرين، أي هاديهم إلى ما يزيل الحيرة، كما أنه يُذكر ويُراد به العلامة المنصوبة لمعرفة المدلول؛ لذلك سُمّي الدخان دليلا على النار.

كما أن الدليل يقع على كل ما يُعرف به المدلول حسيا كان أو عقليا أو شرعيا، إضافة إلى كونه قطعي أو ظني؛ لذلك سُمّي كل من الحس، العقل والنص[4] أدلة.

والملاحظ أن الجمع من "دليل"، أدلة وأدلاء، ولا يُجمع على دلائل إلا نادرا، إذ لم تأت صيغة "فعائل" جمعا لاسم جنس على وزن "فعيل"، ويجوز أن يكون جمع "دلالة"، كرسائل ورسالة، وإن كان المشهور أن جمعه أدلة.

هذه الأخيرة التي قيل أنها تأتي مذكّرة بما مضى، يستدل بها على الشيء، وحاضرة تدلّ على حقيقة الشيء الحاصل، كما تأتي منذرة على ما سيحدث[5].

ثانيا: مفهوم الاستدلال اصطلاحا:

إذا كان المنطق هو العلم الخاص بالبحث في كيفية التفكير الصحيح؛ للتأدي من المقدمات إلى النتائج، فإن الاستدلال (raisonnement) يعدّ من أبوابه الرئيسة.

والمقصود به الانتقال من أحكام إلى أحكام أخرى لازمة عنها بالضرورة، فإن كان هذا

---

(1)–ابن منظور: لسان العرب، ج2، ص1414.
–مجمع اللغة العربية: معجم ألفاظ القرآن، مج1، ص481.
(2)–سورة سبأ، الآية: 14.
(3)–الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص177.
(4)–أيوب بن موسى الحسيني: الكليات، ص439.
(5)–بطرس البستاني: دائرة المعارف، مؤسسة مطبوعات إسماعيليات، طهران، (د.ط)، (د.ت)، ج7، ص725.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الانتقال استنادا إلى التجربة، فهو استقراء، وإن كان دونها عُرف بالاستنباط[1].

فالاستدلال يطلق في الاصطلاح على إقامة الدليل، مهما كان نوعه[2]، أي طلب الدليل باستنتاج قضية من قضية أو أكثر[3].

بل عُرف أيضا على أنه تقرير للدليل المطلوب، والنظر فيه لإثبات المدلول[4]، أي إيراد الدليل مع تقريره للإثبات، ويكون ذلك وفق طريقة منظمة، موصلة إلى حقيقة مجهولة استنادا إلى حقائق معلومة.

وبذلك يكون الاستدلال عبارة عن فعل للذهن، تُجسّد فيه علاقة مبدأ ونتيجة، بين قضية وأخرى، أو بين عدة قضايا، وينتهي إلى حكم معين[5].

فالملاحظ أن الاستدلال قائم على النظر في الدليل، هذا الأخير الذي يلزم العلم به، العلم بشيء غيره[6]، أو هو «الذي يلزم من العلم به، العلم بوجود المدلول»[7]؛ لذلك فإذا كان الدليل هو الموصل إلى معرفة المدلول، فإنه عند الرازي هو الموصل إلى إدراك وجود المدلول، إذ لم يشترط العلم بحقيقته –المدلول–.

وإذا كان الدليل هو المرشد إلى معرفة الغائب عن الحواس، وما لا يُعرف بالضرورة –كالمبادئ الأولية والبديهيات–، حيث ينصّب من الإمارات، ويورد من الإشارات ما يمكن التوصل به إلى العلم الحصولي –أي المكتسب الذي لا يقع إلا بالاستدلال–، إذ يكون الدليل هو المستدل به

---

(1)–عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1984م، ج2، ص474-475.

(2)–محمد علي التهانوي: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون، ج1، ص151-152.

(3)–محمد فتحي عبد الله: معجم مصطلحات المنطق وفلسفة العلوم للألفاظ العربية والانجليزية والفرنسية، دار الوفاء، الإسكندرية، (د.ط)، 2003، ص15.

(4)–محمد الجرجاني: التعريفات، ص29.

(5)–مجمع اللغة العربية: المعجم الفلسفي، ص11.

(6)–محمد الجرجاني: المرجع السابق، ص50.

(7)–الرازي: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة (د.ط)، (د.ت)، ص50.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وهو الحجة[1].

فإن الاستدلال هو استنتاج قضية مجهولة من قضية معلومة –أو من عدة قضايا- مما يمكّن من التوصل إلى حكم تصديقي مجهول، بملاحظة حكم تصديقي معلوم، وبذلك يكون عبارة عن عمليات منطقية، ينتقل فيها المستدِل من المعلوم بالوصول إلى المجهول، إذ يكون الأصل في القضايا المتوصل إليها جديدة، وإلا لم يكن معنى للاستدلال، إلا إذا كان طريقا لإقامة الحجة على الغير[2].

ونقف عند الباقلاني على مفهوم ما نجده عند غيره –حسب علمنا- إذ الاستدلال والنظر هو بمثابة تقسيم للمستَدِل وفكره في المستَدَل عليه، وتأمّله له، وقد يُسمى ذلك أيضا دليلا لما بينهما من التعلق[3].

كما يرد أيضا بمعنى ترتيب علوم، حيث يتوصل بها إلى علم آخر؛ فيكون كل ما توقف وجوده على ترتيب علوم، فهو مستدل عليه، وبذلك فالاستدلال هنا، هو النظر المؤدي إلى المعرفة[4].

وبذلك نصل إلى أن المراد بالاستدلال هو إقامة الدليل على ما يُراد البحث عنه أو الحقيقة المُبرهن عليها.

على أن الملاحظ على مصطلح "الاستدلال"، ورود ألفاظ في القرآن الكريم تشاركه في المعنى، كالتعقل، التفكر والنظر، إذ لم يرد لفظ "الدليل" في أي موقف أو محاجة بمعنى الاستدلال، وإنما جاء بمعنى الإرشاد والهداية، لكن نجد مصطلحات أخرى "كالبينة" و"السلطان"، والمراد بهما إلزام الخصم بالبرهان القاطع على أن ما جاء به بالوحي الإلهي حق لا ريب فيه، «ولعل من أسباب ذلك أن لفظ "الدليل" قد يُستعمل في غير الدلالة البرهانية القاطعة، كما إذا كان الدليل جليا أو ظنيا»[5]، فهي وإن كانت أدلة، فالمفيد إلى اليقين هو البرهان لا غيره، كما يأتي لفظ "الدليل" في القرآن الكريم

---

(1)-محمد أبو بكر الباقلاني: تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط1، 1987م، ص33-34.

(2)-عبد الرحمن حبنكة الميداني:ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، دار القلم، دمشق، ط5، 1998م، ص149.

(3)-محمد أبو بكر الباقلاني: المرجع السابق، ص34.

(4)-سميح دغيم: موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1998م، ج1، ص102-103.

(5)-محمد السيد الجلنيد: تأملات حول منهج القرآن في تأسيس اليقين، ص17

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقرونا بما يفيد اليقين الجازم، الدال على المطلوب دلالة يقينية، غير قابلة للشك ولا مناقضة للواقع.

وبذلك يرفع القرآن الكريم مكانة الدليل، ويعطيه أهمية خاصة؛ فيسميه سلطانا، إذ يسأل المشركين عنه مطالبا إياهم به، لأنه علامة صدقهم، ومرتكزهم فيما يذهبون إليه، من ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ. فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾[2]، مؤكدا أن الرسل عليهم السلام لم يأتوا بمحض الدعوة، إنما جاءوا أيضا بالأدلة والبراهين على صدقها، منه قوله ﷻ: ﴿...وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾[3]، كما قال تعالى: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾[4].

هذا،ويقتضي الاستدلال أن علمه مكتسب حصولي، والعلم النظري لا يمكن تحصيله إلا بالاعتماد على العلم الضروري الأولي،؛ لذلك فالعلاقة بينهما وطيدة، إذ الانطلاقة في إقامة الاستدلال تكون من معارف أولية كأساس؛ «لأنك إذا حللت العلوم الاستدلالية وجدتها مبنية على أرضية أساسية من العلوم غير المحصّل عليها –فطرية–، تُعرف بالمبادئ الأساسية في العلوم»[5]، فهي مبادئ وبديهيات لا تحتاج إلى دليل، إضافة إلى كون الاستدلال انتقال من معلوم لاكتشاف مجهول وفق تنظيم منهجي، وبه يحصّل العقل معارف أخرى.

وبذلك يكون المقصود من منهج الرازي في الاستدلال بالآيات الكونية، هو طريقة إقامته الدليل على الحقائق الإيمانية انطلاقا من الآيات الكونية، وكيفية توظيفها لإثبات ذلك، باعتبار أن هذه الآيات أدلّة عقلية، بثها سبحانه وتعالى في الوجود، وضمّنها كتابه العزيز لتكون آيات للموقنين.

ومن ثمة تكون الآيات الكونية وسيلة لإرشادنا إلى الحقائق الإيمانية، المتضمنة في الوحي الإلهي،

---

[1]-سورة الصافات، الآيتان: 156-157.

[2]-سورة الطور، الآية: 38.

[3]-سورة الأعراف، الآية: 101.

[4]-سورة الدخان، الآيتان: 18-19.

[5]-عمار جيدل: "منهج الاستدلال على العقيدة"، مجلة الموافقات، دورية أكاديمية صادرة عن المعهد الوطني العالي لأصول الدين، الخروبة، الجزائر، ع2، جوان 1993م، ص23.

ما على الإنسان إلا استعمال عقله لإدراك تلك المقاصد القرآنية، انطلاقا من هذه الآيات، وذلك بالاستناد إلى ما ورد حولها في القرآن الكريم، وما هو مبثوث في الكون للبرهنة على ما نريد إثباته.

ومباحث العقيدة الإسلامية كونها علما محصّلا، فهي لا تنال إلا بالاستدلال عن طريق النظر والتدبر في آيات الآفاق المتلوة والمجلوة، مع الإشارة إلى أن الرازي يستخدم مصطلحي النظر والفكر بمعنى واحد، فالنظر عنده «هو ترتيب تصديقات ليتوصل بها إلى تصديقات أخر»[1]، أما الفكر، فهو «انتقال الروح من التصديقات الحاضرة إلى التصديقات المستحضرة»[2]، والملاحظ أنه لا تناقض بينهما، إذ جاء المفهوم الثاني أكثر وضوحا ودقة بتضمنه تلك الحركة التي عبّر عنها بالانتقال والترتيب، إضافة إلى تأكيده أن فكر القلب هو المسمّى بالنظر[3].

كما يستعمل مصطلحي "الاستدلال" و"النظر" بمعنى واحد، دليل ذلك ما صرح به في طرق حصول العلم، وهي الحس، الخبر والنظر[4]، حيث لا يلزم من انتفاء طريق واحد منها مثلا انتفاء المطلوب، وفي موضع آخر نجده يؤكد أن الطريق إلى معرفة الأشياء، وحصول العلم هو الحس، الخبر والدليل[5]، فالملاحظ أنه يضع الدليل بدل النظر، بما يفيد أن معناهما واحد.

إضافة إلى أنه يعتبر الطريق القائم عليه تركيب الإنسان للعلوم البديهية النظرية، بغية التوصل إلى استجلاء المجهولات،هوما يُعرف بالنظر والتفكر والتأمل والاستدلال، وهذا النوع من تحصيل العلوم هو ما لا يتم إلا بالجهد والطلب[6]؛ لذلك نجد في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾[7]،يذهب إلى أن الناظرين هم المستدلين[8] بهذه الآيات الكونية على توحيده تعالى.

---

[1]-الرازي: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين، ص23.

[2]-الرازي: التفسير الكبير، ج2، ص206.

[3]-الرازي: المصدر نفسه، ج15، ص75.

[4]-الرازي: المصدر نفسه، ج27، ص66.

[5]-الرازي: المصدر نفسه، ج1، ص77.

[6]-الرازي: المصدر نفسه، ج21، ص150.

[7]-سورة الحجر، الآية: 16.

[8]-الرازي: المصدر السابق، ج19، ص168.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني: منطلقات الرازي في الاستدلال بالآيات الكونية

لقد كان الدافع إلى اهتمام الرازي بالآيات الكونية، وما يتصل بها من حقائق في الاستدلال على الأصول الإيمانية منطلقات عديدة يمكن تقريرها من وجوه:

أولا: الحضور القوي للاستدلالات الكونية في الخطاب الإلهي، مما يعطي الحق في الاهتمام بها والخوض فيها، إذ «أن الله تعالى ملأ كتابه من الاستدلال على العلم والقدرة والحكمة بأحوال السماوات والأرض وتعاقب الليل والنهار، وكيفية أحوال الضياء والظلام، وأحوال الشمس والقمر والنجوم، وذكر هذه الأمور في كثير من السور، وكررها وأعادها مرة بعد أخرى؛ فلو لم يكن البحث عنها، والتأمل في أحوالها جائزا لما ملأ الله كتابه منها»[1].

ذلك أن الآيات الكونية في القرآن الكريم لم تساق لذاتها، أو من أجل التأسيس لمعارف كونية فحسب، بل ارتبط ذكرها بأبعاد عديدة، في مقدمتها الاستدلال، الأمر الذي أدّى بالرازي إلى الاهتمام بها، وتوظيفها لإثبات الحقائق الإيمانية.

هذه الأخيرة التي جاء الخطاب القرآني بعرضها، مع تثبيتها تثبيتا قويا، وذلك بالتدليل العقلي، الذي تعدّ آيات الآفاق جزءًا منه، والتي خاطب بها ﷻ عباده بمسالك متنوعة، وبأساليب متعددة؛ فكان من أهم الأولويات اتخاذ الحقائق الكونية حججا لإثبات العقيدة الإسلامية.

ويتجلى ذلك في الاستدلال على العلم والقدرة والحكمة الإلهية، بأحوال كل من العالم العلوي والعالم السفلي، وما يتضمناه من مظاهر كونية، حيث يسوقها القرآن الكريم كي تكون موضوعات تفكر الإنسان واعتباره؛ فيجعلها مقدمات وبراهين للهداية مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2]، فشكلت آيات الآفاق جانبا مهما في الوحي الإلهي، إذ المتدبر له يدرك مدى غزارة مفردات الكون فيه، ويشد انتباهه توزعها بين آي الذكر الحكيم وسوره، مما استغرق القرآن الكريم كله –مكيه ومدنيه–، فكان حديثه عن الآفاق مستفيضا وشاملا لعناصرها.

الأمر الذي جعل هذه الحقيقة مؤكدة فيما يتعلق بالآيات الكونية، من حيث الثراء في اللفظ

---

(1)-الرازي: التفسير الكبير، ج14، ص121.

(2)-سورة البقرة، الآية: 164.

والتنوع في المواضيع المعالجة، إذ ليس بالغريب في حق القرآن الكريم، الغني في مضمونه، الفريد في نسجه، بل إنه يسمو فوق الكتب جميعا بأسلوبه المتميز في تناول القضايا —ومنها آيات الآفاق-؛ فهو ﴿...كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[1].

ومسألة ثراء الوحي الإلهي بالحقائق الكونية تؤكدها الدراسة المقارنة بين الإنجيل والتوراة والقرآن والعلم الحديث، التي جاء فيها: «تناولت القرآن منتبها بشكل خاص إلى الوصف الذي يعطيه عن حشد كبير من الظاهرات الطبيعية، وأذهلني دقة التفاصيل الخاصة بتلك الظاهرات»[2]، حيث أن ورودها أشبه بنسيج متكامل تتلاحم فيه موضوعاتها، وتتعانق فيه أبعادها.

وإذا أردنا الحديث عن مدى ورود الآيات الكونية في القرآن الكريم، بلغة الأرقام؛ فإنه وصل إلى حوالي ثماني مائة آية[3] من مجموع آي الذكر الحكيم، وأما بالنسب المئوية فإنها تمثل ثلاثا وثمانين بالمائة —83%[4]- من مجموع الآيات القرآنية، مما يؤكد ما استند إليه الرازي في استدلاله بالآيات الكونية، وضرورة تدبرها.

على أن هذه الكثرة والتنوع في موضوع آيات الآفاق ضمن الخطاب الإلهي، والذي جعله يتميز بشكل ملفت لنظر متدبريه، على اختلاف تخصصاتهم ومشاربهم العقدية والعلمية، إنما يدل على أهمية الآيات الكونية، حيث اعتبرت خلاصة هدايته التي أُنزل بها ولها، وذلك راجع لمدى اعتماده في إقامة أصول الدين على براهين تتعلق بالكون؛ فكانت محل اهتمام كبير لدى مفكرنا.

ثانيا: دعوة الوحي الإلهي الإنسان للكشف عن أسرار الظواهر الكونية، وما تخضع له من سنن، وهو ما يمثل موضوع العلوم الكونية، وذلك من خلال النظرة الشاملة التي قدمها للإنسان عن الكون، وحثه على ضرورة التفكر في مختلف عناصر الآفاق لكشف أسرارها، وما تخضع له من سنن، وهو ما يمثل صميم تلك العلوم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1)-سورة هود، الآية: 1.

(2)-موريس بوكاي: التوراة والإنجليل والقرآن والعلم، ص145.

(3)-محمد الغمراوي: الإسلام في عصر العلم، مطبعة السعادة، القاهرة، 1973، ص267.

-عبد الباري محمد داود: دراسات فلسفية وإسلامية في الآيات الكونية، ص65.

(4)-محمد قاسم حدبون: الآيات الكونية في القرآن الكريم وبعدها الإيماني، رسالة ماجستير في أصول الدين، قسم: العقائد والأديان، كلية أصول الدين، جامعة الجزائر، 1422هـ-2001م، ص79-81.

فإذا كان العلم يبحث في العلاقات بين الظواهر وكيفياتها وحالاتها، فإن ما يأمر به القرآن الكريم هو جملة المعارف التي يدركها الإنسان بالنظر في ملكوت السماوات والأرض وما بينهما، كما يوضح لنا معالم منهج البحث العلمي[1]؛ لبيان كيفية تركب الظاهرة، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[2]، وما غاية العلم إلا الإجابة عن سؤال: كيف؟، إضافة إلى ما ينبه إليه سبحانه وتعالى في قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[3]، وفي ذلك إشارة إلى الحقيقة المنهجية في المعرفة، وما تتضمنه من عناصر كالملاحظة وإعادة التجربة؛ لتحصيل اليقين.

لذلك فإن الرازي يرى بأن الاشتغال بمختلف العلوم الكونية هو من صميم الوحي الإلهي، الذي جاء فيه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾[4]، «فإنه تعالى حثّ على التأمل في أنه كيف بناها، ولا معنى لعلم الهيئة إلا التأمل في كيفية بنائها، وخلق كل واحد منها»[5]، كما نبّه ﷻ إلى خضوع الكون لسنن سنها وفق مقادير، تمثلت في حركة الكواكب، وتعاقب الليل والنهار، وغيرها مما ورد في قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[6]، وإدراك تلك الحركة والترابط والنظام في عناصر الآفاق، لا يكون إلا بالبحث والتدبر، وهو ما يُعنى به علم الفلك، الذي عبّر فيه الإنسان عن تلك الصور بقوانين.

---

(1)- عبد العليم عبد الرحمن خضر: المنهج الإيماني للدراسات الكونية في القرآن الكريم، الدار السعودية، الرياض، 1404 هـ-1989م، ص11.

(2)- سورة الغاشية، الآيات: 17-20.

(3)- سورة الملك، الآيتان: 3-4.

(4)- سورة ق، الآية: 6.

(5)- الرازي: التفسير الكبير، ج14، ص122.

(6)- سورة يس، الآيات: 37-40.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومن ثمة فإن من مبادئ تلك العلوم ما هو متضمن في الخطاب الإلهي، إذ شكلت المفاهيم التي حوتها آياته أداة لرفع المستوى العلمي لدى الإنسان، بما حملته من إشكالات كبرى عن الكون وخالقه، مما أفاد المسلمين في توسيع مداركهم، دليله اهتمامهم بعلم الفلك وبقية العلوم الطبيعية خلال القرون الأولى للإسلام، وكان ذلك نتيجة تأثير الوحي المنزل[1]، أين مثّلت فيه آيات الكون مجالا خصبا لدعوته العلمية، مما ولد عند متلقيه -آنذاك- ما يُعرف "بالدفعة القرآنية"[2].

على أن الغرض من العلوم الكونية ليست معرفة الظواهر لذاتها، وإنما محاولة استشراف ما تدل عليه من حقائق؛ فيكون إدراك ما وراء هذا العالم المحسوس، وفي مقدمتها إدراك موجد هذا الكون.

وقد جاء بيان لكيفية توظيف هذه العلوم في إثبات الحقائق الإيمانية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ. وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[3]، إذ أشارت هذه الآيات إلى علوم كونية مختلفة تتعلق بكل من الأرض، النبات، الحيوان وغيرها، فالذي لم يكن على دراية بها لا يمكنه إدراك حقيقة هذا الخطاب الإلهي، المعجزة الخالدة التي توعّد منزله بقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[4]، وهنا تتجلى الصلة بين تلك العلوم وعلم العقيدة، التي قصد الرازي بيانها من خلال تأكيده على أن القرآن الكريم «مشتملا على تفاصيل جميع العلوم الشريفة، عقليها ونقليها، اشتمالا يمتنع حصوله في سائر الكتب، فكان ذلك معجزا وإليه الإشارة في قوله: ﴿...وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾[5]،وهذا الكتاب المشتمل على العلوم الكثيرة ﴿... لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾[6]، لذلك جاء خاليا من التناقض»[7]

(1)-علي عزت بيقوفتش: الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة: يوسف عدس، مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام والخدمات، ألمانيا، ط1، 1994، ص310.

(2)-مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ط5، 1986، ص29.

(3)-سورة فاطر، الآيتان: 27-28.

(4)-سورة فصلت، الآية: 53.

(5)-سورة يوسف، الآية: 111.

(6)-سورة يونس، الآية: 37.

(7)-الرازي: التفسير الكبير، ج17، ص96.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مصـــداقا لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[1].

ومـــن ثمة يكون إيمان الرازي بالصلة القائمة بين الوحي الإلهي والعلوم الكونية، مستمد من تلـــك النصـــوص الخـــالدة، التي تدعو إلى التدبر في الآفاق؛ لتحصيل الإيمان بالحقائق الدينية، وذلك بتوظيف تلك العلوم في إثبات أصول الدين وإزالة الشبهات عنها، الأمر الذي دفع مفكرنا إلى ولوج كافة التخصصات العلمية، التي يرى بأنها أبحاث معقولة، ولفظ القرآن مشعر بها[2].

والغرض من عمله هذا إدراك البراهين الاستدلالية على الحقائق الإيمانية، المستندة على المعارف الكونية بتوجيه من الوحي الإلهي؛ لذلك فإن توسع الرازي في الجوانب الكونية ضمن "تفسيره الكبير"، تدخل في صلب المخطط[3] الذي وضعه للعلوم النافعة، مصداقا لقوله تعالى: ﴿...وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾[4]، والتي هي من العلوم العالية الرفيعة المشتمل عليها القرآن، إذ يقسم مفكرنا العلوم إلى ستة أقسام، والذي يهمنا منها القسم الأول، المخصص للإيمان بالله، ومن فروعه معرفة أفعاله ﷻ، والمتضمن هو الآخر للأجسام كأحد ضروبه إلى جانب الأرواح، أما الأجسام فهي إما العالم الأعلى أو العالم الأسفل، أي أن البحث فيهما يتعلق في ملكوت السماوات والأرض وما بينهما من عناصر كونية[5].

ومن ثمة يكون غرضه من توظيف تلك العلوم الكونية في تفسيره، الكشف عن بنية النظرة المعرفية التي جاء بها القرآن الكريم، الشاملة لعالمي الغيب والشهادة، لأن تلك المباحث الكونية ضرورية –عند الرازي– لتقوية اليقين وإزالة الشبهات[6] في مجال الاعتقادات، كما يتجلى لنا ذلك الترابط بين علم العقيدة والتفسير، إذ يعتبر مفكرنا أن سائر العلوم صحتها تتوقف على علم العقيدة؛ فالتفسير يبحث عن معاني كلام الله ، وذلك فرع على وجود الصانع المختار، لذلك فعلم التفسير

---

[1]–سورة النساء، الآية: 82.

[2]–الرازي: المصدر السابق، ج14، ص120.

[3]–الرازي: المصدر نفسه، ج26، ص268.

[4]–سورة البقرة، الآية: 285.

[5]–الرازي: المصدر السابق، ج26، ص268.

[6]–الرازي: المصدر نفسه، ج14، ص122.

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مفتقر لعلم أصول الدين[1].

والملاحظ على ذلك المخطط أن الأساس الذي وُضع عليه هي الآيات القرآنية، التي يعتبرها الرازي مفاتيح البحث في كل علم، وذلك من خلال تقسيمه العلوم إلى نظرية وعملية؛ فالأولى أشرفها وأكملها معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائها، ولا توجد هذه العلوم أكمل ولا أشرف مما هو في الذكر الحكيم، أما العلوم الثانية فتتضمن أعمال الجوارح والقلوب –أي الأخلاق وتزكية النفس–[2]، وبذلك يكون توجيه الوحي الإلهي الإنسان إلى البحث في أسرار الكون، دعوة للاهتمام بتلك العلوم.

لهذا عمل الرازي في تفسيره على كشف تلك الأصول بناء على ما ورد في آي الخطاب القرآني، مما أتاح له إدخال علوم كانت –آنذاك– من مباحث الفلسفة، في صلب العلوم المستمدة من القرآن الكريم، وهو ما يبرر تلك الفصول المتعلقة بها في تفسيره، الأمر الذي يتجلى لنا كذلك في تحديده لعلم العقيدة،الذي يجعل المطلوب منه «معرفة ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله، ومعرفة أقسام المعلومات من المعدومات والموجودات»[3]، فما أضافه لغاية ذلك العلم هو أقسام المعلومات من المعدومات والموجودات، وهو ما يتضمن المباحث الكونية كعلوم قائمة بذاتها، والتي كانت مستبعدة عن علم الأصول –إلا في حدود ضيقة كأدلة على وجود الخالق–، في حين كانت ضمن قسم الإلهيات في الفلسفة [4]، لأن النظر في الوجود المطلق وما يقتضيه لذاته مخالف لنظر المتكلم في الوجود، من حيث دلالته على الموجد[5].

على أن توظيف الرازي لتلك العلوم لم يقصد به إلا الدفاع عن العقيدة الإسلامية، مما مكنه من توسيع مجال علم العقيدة، من حيث الأدلة المعتمدة، وهو ما يكشف عن التحول الذي لحق بهذا العلم في ذلك العصر.

لكن ما يمكن قوله عن هذه الخطوة التي قام بها مفكّرنا، أنّه أحيانا يتوسع في إيراد التفصيلات

---

(1)–الرازي: التفسير الكبير، ج2، ص87.

(2)–الرازي: المصدر نفسه، ج13، ص80.

(3)–الرازي: المصدر نفسه، ج2، ص87.

(4)–محمد العربي: المنطلقات الفكرية عند الإمام الفخر الرازي، ص99.

(5)–ابن خلدون: المقدمة، ص466.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والتفريعات في المسألة الواحدة، التي قد يكون التحقيق فيها لا علاقة له بعلم العقيدة، هذا الأخير الذي يأخذ الحقائق العلمية كأدلة مباشرة لإثبات الحقائق الإيمانية، دون الحاجة إلى الولوج في تفاصيل العلوم الكونية، باعتبار ذلك ليس من مقاصد الوحي، إنما هو من مضامين الكتب المتخصصة في تلك العلوم.

ومن ثمة ليس كل ما حُصّل من معارف له علاقة أو أصل في القرآن الكريم، الذي لا يمكن النظر إليه على أنه كتاب مختص في علم من العلوم، ولا هو موسوعة علمية، إلا أنه قد حوى ما يدل على مصدره الإلهي، هذه الحقيقة التي منها عد مصدر لتكوّن مختلف العلوم الكونية، والفرق شاسع بين اعتقاد كونه مصدر لها، وبين اشتماله عليها، ويبقى القرآن الكريم الكتاب الذي جمع الحقائق في صورها النهائية والحقيقية، وما حققه العلم إن هو إلاّ جزئيات تندرج ضمن كلية من القانون الإلهي المسير لهذا الوجود، وصدق من قال: «إن درسا في الكيمياء أو الأحياء، هو صلاة خاشعة وإن سياحة في علم الأفلاك هي تسبيح وتحميد»[1]، أي أن الغاية من كل العلوم، نقليها وعقليها، معرفة الله ﷻ لعبادته، وهو ما يؤكده الرازي في تفسيره الكبير[2].

ثالثا: تعد دلائل الآفاق أجل وأعظم من دلائل الأنفس، مما يستوجب الاهتمام بها أكثر في إثبات الحقائق الإيمانية، وذلك ما يقرره الوحي الإلهي، إذ بيّن أن عجائب الخلقة وبدائع الفطرة في آيات الكون أكثر وأعظم مما عليه في أبدان الناس[3]، وهو ما يبرر اهتمام الرازي بها.

فإذا كان الخطاب الإلهي يشير إلى الآفاق والأنفس، كمجالين من عالم الشهادة، تستمد منهما دلائل الإيمان، والتي وعد سبحانه وتعالى بإظهارها لعباده في قوله: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾[4]، كما أمر بطلب اليقين بالتدبر فيهما، بقوله تعالى: ﴿**وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ. وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾[5]، إلا أن أهمية دلائل الآفاق لا تقتصر على درجة ورودها في القرآن

---

[1]-محمد الغزالي: نظرات في القرآن الكريم، دار الشهاب، باتنة، ط6، 1986، ص134.

[2]-الرازي: التفسير الكبير، ج17، ص95.

[3]-الرازي: المصدر نفسه، ج14، ص121.

[4]-سورة فصلت، الآية: 53.

[5]-سورة الذاريات، الآيتان: 20-21

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الكريم، بتوجيه الناس إلى النظر فيها، إنما جاء تأكيد ذلك بصريح النص في قوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]، فعظم خلق عناصر الكون دليل على أن شواهدها أعظم، ولما كان الأمر كذلك لا جرم أمر بالتذكر في خلقها[2].

والدليل على عظم دلالتها، أنه تعالى لما وصف أولئك المجادلين في حقائق الإيمان بغير حجة، بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[3]، عقّب على ذلك بأدل دليل على إبطال حججهم، وهو دليل خلق السموات والأرض –الآية السابقة الذكر–، إذ القادر على خلق الأكبر قادر على خلق الأصغر لا محالة، وذلك بأن يقال: لما قدر على الأقوى الأكمل –وهو الكون–، فبأن يقدر على الأقل –وهو الإنسان– كان أولى، وهذا الاستدلال في غاية الصحة والقوة، فمعه لا يرتاب مرتاب البتة.

كما يضيف الرازي تأكيده على أهميته، كونه جلي في إفادة اليقين، إذ المجادل يسلم بأن خالق الكون هو الله، ويعلم بالضرورة أن خلقه أكبر من خلق الإنسان؛ فكان من حقه أن يقر بأن القادر على خلق عناصر الآفاق، قادر على خلق كل شيء، لكن هذا البرهان على قوته قد لا يعرفه أكثر الناس، مما يدل على أن تلك المجادلة غير مبنية على حجة سليمة؛ لذلك بيّن ﷻ الفرق بين كل من المستدل الجاهل المقلد، وبين العالم بحقائق عالم الشهادة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ...﴾[4]، وبما أن انحرافهم أنساهم في حقيقة أنفسهم، بين الله سبحانه وتعالى الحق بأكبر دليل وأبصره[5]، مما لا يخفى عن مداركهم، بتوجيه نظرهم إلى الكون لتدبره، الأمر الذي لا نجد له نظير في غير الذكر الحكيم[6]، الثري بهذا النوع من البيان.

وبذلـــك تعـــدّ الآيات الكونية من أهم المجالات التي وجّه القرآن الكريم نظر الإنسان للتفكر

---

[1]–سورة غافر، الآية: 57.

[2]–الرازي: التفسير الكبير، ج9، ص137.

[3]–سورة غافر، الآية: 56.

[4]–سورة غافر، الآية: 58.

[5]–الرازي: المصدر السابق، ج27، ص80.

[6]–الرازي: المطالب العالية، ج1، ص235.

فيها، كونها أدلّ على قدرته ورحمته ﷻ، ولم يترك الإنسان في حيرة من أمره مع نفسه، المتميزة بكثرة التغيرات مصداقا لقوله تعالى: ﴿...وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ. ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[1]، مما جعل دلائل الأنفس أدل على نفاذ الإرادة الإلهية، في حين نجد دلائل الآفاق أدل على القدرة الإلهية[2]، وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

ومن ثمة فإن العقل يجد في مجال الكون ميدانا واسعا للتدبر والتفكر، الأمر الذي يعتبر عبادة في محكم التزيل ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[4]، متوخيا من ذلك فهم السنن الكونية للاستفادة منها في تحقيق وظيفة الإنسان الوجودية، وللاستدلال بها على خالق هذا الوجود، الذي لا يقع بصر العاقل على شيء منه إلا ويرى فيه آثار قدرة موجده ﷻ.

هذا ونجد الرازي يؤكد أهمية الاستدلال بآيات الآفاق في كتابه "المطالب العالية"، معتبرا طريق الاستدلال بحدوث بدن الإنسان، استدلال بحال من الأحوال، إذ هناك طريق يشبه به، ولكنه استدلال بحال عناصر الكون، على أن الاستدلال بهذا الأخير على وجود الله أظهر وأقوى[5]، بل هو من الدلائل القطعية اليقينية؛ لذلك بعد أن عدّد سبحانه وتعالى جملة من الآيات الكونية[6]، ولم تفد اليقين، عقب على ذلك بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[7]، فبين أن أبسط الأمور الاحتراز عن العذاب الذي أخبر عنه ﷻ، وإن لم يصدّقوا به، لكن لما امتنعوا عن ذلك دلّ على أنه في غاية الجهل والغفلة، لأن من لا يقتنع بتلك الدلائل على

---

(1)-سورة السجدة، الآيات: 7-9.

(2)-الرازي: التفسير الكبير، ج25، ص174.

(3)-سورة غافر، الآية: 57.

(4)-سورة يونس، الآية: 101.

(5)-الرازي: المطالب العالية، ج1، ص228.

(6)-وذلك في سورة يس الآيات: 32-43.

(7)-سورة يس، الآية: 45.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عظمتها، فهو لا من العلماء الذين يتبعون البرهان، ولا من العامة الذين يبنون الأمر على الأحوط[1]، بـــل هم من الغافلين الذين عميت أبصارهم، لأن هذه الآيات تبقى بيان ظاهر، وبرهان باهر، وإن لم يؤمن بها على وجه الأرض كافر، فيكفي أنها خُلقت بالحق[2].

في حـــين أن اليقين حاصل من التأمل في الآفاق؛ لأنه تعالى أودع في كل عنصر منها حكما باهرة، وأسرار عجيبة، لا سبيل للعقول البشرية إلى معرفتها إلا القليل منها، مما جعل البحث فيها بحر لا ساحل له[3].

وما يمكن قوله أن إيمان الرازي بضرورة الاشتغال بهذا النوع من الاستدلال، مستمد مما ورد في الوحـــي الإلهي، الذي أتى فيه ذكر الآفاق إلى جانب الأنفس، وغالبا ما يقدم ذكر الأنفس على الآفـــاق، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْـــنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾[4]، لأن النعم في الأولى كالأصـــل للـــنعم في الثانية[5]، إذ لولا الحياة ووسائل الإدراك التي زوّد بها الإنسان، لما كان الانتفاع بشيء من عناصر الكون، كما قد يُقدّم ذكر الآفاق على الأنفس، مثلما نجده في قوله تعالى: ﴿سَـــنُرِيهِمْ آيَاتِـــنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَـــى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[6]، وفي كل ترتيب يقدم مفكرنا تفسيرا لذلك[7]، لكن تبقى عنده الآفاق أعظم دلالة؛ لذلك فمن لم يؤمن بها ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾[8].

عـــلى أن ترغيـــبه ســـبحانه وتعالى في التأمل في أبدان الناس بقوله: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[9] لأكبر دليل على أن ما كان أعلى شأنا وأعظم برهانا منها أولى بالتفكر[10]؛ لذلك لما

---

[1]-الرازي: التفسير الكبير، ج26، ص82.

[2]-الرازي: المصدر نفسه، ج25، ص70.

[3]-الرازي: المطالب العالية، ج1، ص235.

[4]-سورة الروم، الآية: 8.

[5]-الرازي: التفسير الكبير، ج30، ص273.

[6]-سورة فصلت، الآية: 53.

[7]-انظر: الرازي: المصدر السابق، ج25، ص99- ج30، ص273.

[8]-سورة المرسلات، الآية: 50.

[9]-سورة الذاريات، الآية: 21.

[10]-الرازي: التفسير الكبير، ج14، ص121.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

نبه جل جلاله على تلك الدقائق اللطيفة، والحكم الموجودة في الآفاق بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾[1]، أعقبه بما يوجب الترغيب الشديد في الإتيان بذلك فقال: ﴿... وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾[2]، أي إذا كان احتمال اقتراب الأجل قائما؛ فيجب على كل عاقل السعي إلى تدبر آياته تعالى في هذا الوجود، وإن لم يكن منهم، فلن يؤمنوا بغير ما في القرآن الكريم[3].

وبهذا تتجلى أهمية الآيات الكونية، كونها من أعظم وأكمل الدلائل، مما يستوجب الاشتغال بها لإثبات الحقائق الإيمانية، ولقوة تأثيرها، بل إن الاستدلال بها على وجوده تعالى وعزته وعظمته تعدّ عند الرازي أعلى المراتب وأكمل الدرجات[4]، أليس هو ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[5].

مع العلم أن آيات الأنفس لا تقل أهمية عن آيات الآفاق عند الرازي، ذلك أن الدليل النفسي يفيد العلم التام، لأن بالنظر في النفس نعلم حاجتنا إلى الله ووجوده منا، وبالنظر في الآفاق نعلم حاجة غيرنا إلى الله ووجوده منها؛ لذلك فبانضمام الآفاق إلى الأنفس يحصل العلم العام، وعندها يتم علمنا بأن كل شيء هو ملك لله ﷻ.

وذم المعرضين

رابعا: مدح الخطاب الإلهي للمتفكرين في ملكوت السماوات والأرض مما يؤكد ضرورة تدبرها لإدراك ما تتضمنه من دلائل كونية على الحقائق الإيمانية، إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا

---

[1]-سورة الأعراف، الآية: 185.

[2]-سورة الأعراف، الآية: 185.

[3]-الرازي: المصدر السابق، ج15، ص77.

[4]-الرازي: المصدر نفسه، ج25، ص48.

[5]-سورة السجدة، الآية: 4.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[1]، فانطلاقا من تأكيده سبحانه وتعالى على أن الآيات المبثوثة في الكون هي لأولي الألباب، كان ذلك التحفيز والترغيب في تأملها، بمدح المتفكرين فيها، و«لو كان ذلك ممنوعا منه سبحانه وتعالى لما فعل»[2]، ولما كان كل ذلك الثناء على المتدبرين في خلقه.

الأمر الذي يتجلى في العديد من آي الذكر الحكيم، التي ذيلت ببيان أنها آيات للمتفكرين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3]، كذلك بالنسبة لما ورد في قول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4]، وغيرها من الآيات المنبهة إلى ضرورة التفكر في الآيات الكونية، وما تحمله من أسرار لإدراك تلك البراهين الإلهية على صدق ما أخبرنا به رسوله الكريم ﷺ، فلو لم يكن للأمر أهمية لما أعطى للمتدبرين فيها قيمة، ولما رفع من شأنهم، وخصّهم سبحانه وتعالى بهذه الآيات العظام.

كما وصفهم ﷻ بأنهم من أولي الألباب، ذلك أنهم لا يكتفون بتدبر آياته في ملكوت السماوات والأرض، ولا يكفون عن أخذ العبر منها والاتعاظ بدلائلها، إذ التدبر يستوجب التذكر مصداقا لقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[5]، لذلك مُيّزوا عن أولئك غير المعتبرين بما يصل إليه علمهم من دلائل الحق، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[6]، أي الذين منحهم الله الهمة في علم ما يحبه، فكان التفكر سمة من سماتهم، ووسيلة إدراكهم للحق.

---

[1]-سورة آل عمران، الآيتان: 190-191.

[2]-الرازي: التفسير الكبير، ج14، ص121.

[3]-سورة الرعد، الآية: 3.

[4]-سورة يونس، الآية: 24.

[5]-سورة ص، الآية: 29.

[6]-سورة الزمر، الآية: 9.

وبما أن أهم المعارف معرفته سبحانه وتعالى، فإن عظمته لا تدرك إلا بقراءة كتابه الكوني، والوقوف على ما يتضمن من دلائل القدرة والإبداع، الأمر الذي جعل المتفكرين في آياته في أعلى الدرجات، أليس بالنظر في ملكوت السماوات والأرض يدخل العبد في زمرة الملائكة المقربين، ويُحشر في زمرة النبيين والصديقين[1].

لذلك فالتدبر في الآفاق هو من أجلّ العبادات، وأوجب الواجبات، ولا أدل على ذلك من تخصيصه تعالى المتفكرين فيها بهذه الآيات، وثنائه عليهم، نظرا لما تحمله من دلائل الحق، مقابل ذمه جل جلاله ونعيه على الغافلين عنها، المصروفين عن الاعتبار بها، فهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2]، بل لا يختلفون عن الأنعام في صلتهم المقطوعة بالآيات الكونية.

هذا، وقد توعّد سبحانه وتعالى المكذّبين بآياته بعد أن نعتهم بالماكرين؛ لأنهم يحتالون بدفع تلك الدلائل، فكان إلحاق الوعيد بمنكريها، وهو ما قرره قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾[3]، وذلك ما يستوجب على العاقل المبالغة في النظر والاستدلال، بل والتشدد في الاحتراز عن التقليد[4].

وحتى لا نكون ممن قالوا ﴿...إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[5]، لابد أن نكون ممن خصهم الله بآياته الكونية، ومدحهم لتفكرهم فيها، واعتبارهم بدلائلها؛ فبقدر التفكر يكون الارتقاء في الإيمان، الأمر الذي نقف عليه من خلال تنويه القرآن الكريم بمكانة المتفكرين، وتقديره للعلم والعلماء، مقابل قرعه للجهال الغافلين عن إدراك الحقيقة، وصدق ﷻ القائل: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[6]، فليكن إيماننا عن فهم دقيق وتفكير عميق في آياته سبحانه وتعالى.

---

[1] -عبد الباري محمد داود: دراسات فلسفية وإسلامية في الآيات الكونية، ص65.

[2] -سورة الأنفال، الآية: 22.

[3] -سورة يونس، الآية: 17.

[4] -الرازي: التفسير الكبير، ج14، ص72.

[5] -سورة الزخرف، الآية: 23.

[6] -سورة يونس، الآية: 101.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خامسا: لكثرة الدلائل وتواليها أثر عظيم في تقوية اليقين وإزالة الشبهات، ذلك أن الناس في الفهم والإدراك، لن يكونوا متماثلين، إنما هم على مراتب متباينة؛ لذلك نجدهم في تفكرهم للحقائق الكونية التي وردت الإشارة إليها في الذكر الحكيم على درجتين، منهم من يسمو إلى الاستدلال التفصيلي؛ فيغوص بحثا في جزئيات الآفاق، ومنهم من يكتفي بالاستدلال الإجمالي من غير أن يقف على ما في الكون من دقائق ولطائف على سبيل التعيين.

ومن ثمة يحصل ذلك التفاوت، إذ التفكر يكون على قدر عقل كل واحد، وما سمت إليه قدرته؛ لذلك وجد من لا يتجاوز ما يقع عليه البصر من أمور ظاهرة، تتناسب مع مستواه، دون البحث في التفاصيل والأسرار، فإذا كان الأثر يدل على المسير، ألا يدل هذا الكون على خالقه؟، وعليه اعتقد أصحاب هذا الطريق أن جملة هذا العالم محدث، وكل محدث فله محدث، فحصل لهم بذلك إثبات الصانع تعالى، فصاروا ينتمون إلى زمرة المستدلين[1].

في حين هناك من تجاوز ذلك، بضمه إلى تلك الدرجة النظر في ملكوت السماوات والأرض، من حيث إبداعها وإتقانها، والبحث في جزئياتها مع التفكر في أحوال عناصرها؛ لاكتشاف ما تخضع له من سنن، والتي تتجلى فيها كمال العناية الإلهية، فتكون الغاية من كل هذا الوصول إلى نتيجة يقينية، هي وجود خالق ومبدع لهذا الوجود.

هذا على أن الحكمة من الوقوف على ما في أحوال العالم العلوي والعالم السفلي، من دقائق ولطائف على سبيل التفصيل، بلوغ اليقين بأركان الدين، إذ يظهر في كل نوع من أنواع هذا العالم حكمة بالغة وأسرار باهرة؛ «فيصير ذلك جاريا مجرى البراهين المتواترة، والدلائل المتوالية على عقله، فلا يزال ينتقل في كل لحظة من برهان إلى برهان آخر، ومن دليل إلى دليل آخر، فلكثرة الدلائل وتواليها أثر عظيم في تقوية اليقين وإزالة الشبهات»[2]؛ لأن كلما استكثر الإنسان من معرفة صنع الله، كانت معرفته بجلاله وعظمته أتم.

وبذلك كلما تتبع الإنسان الظواهر الكونية وعللها، بالبحث في خفاياها ازداد يقينا بأن لهذا الكون صانعا، قادرا ومدبرا حكيما، إذ بالتفكر في الآفاق تنكشف له آيات فتقوى حجته على ما اعتقد، ويزداد يقينه كلما تبحر في تلك الحقائق الكونية وجزئياتها.

---

(1)-الرازي: التفسير الكبير، ج14، ص121-122.

(2)-الرازي: المصدر نفسه، ج14، ص122.

«فإذا كان الأمر كذلك، ظهر أنه تعالى إنما أنزل هذا الكتاب لهذه الفوائد والأسرار، لا لتكثير النحو الغريب والاشتقاقات الخالية عن الفوائد، والحكايات الفاسدة»[1]؛ لذلك ما على العقلاء إلا قراءة وفقه الآيات الكونية المتضمنة في الذكر الحكيم، والمشهودة في الوجود الكوني.

وبما أن الناس في التفكر وإدراك الحقائق ليسوا متماثلين، فإن الرازي يميز بين نوعين من الاعتقاد بالقرآن الكريم؛ اعتقاد العامي الذي يكون تقليدا وإجمالا، واعتقاد المحقق الذي لا يزال يطالع في كل آية على أسرار عجيبة، ودقائق لطيفة[2].

فالأول وإن كان إيمانه صحيحا، وبلغ درجة كبيرة من القوة والكمال، إلا أن اعتقاد ذلك المحقق أقوى وأكمل وأوفى[3]، إذ كلما كانت معرفة الإنسان بدقائق الكون أكبر، كان كذلك إيمانه؛ فبلوغ اليقين بالحقائق الإيمانية يكون بعد التدبر والتذكر في كل ما في الوجود من آيات بينات، وحجج باهرات، وبذلك ينكشف ما فيها وما به يكمن اليقين.

وبذلك يكون التفكر في خلق السماوات والأرض طريق به يتمكن الإنسان من معرفة حقيقة هذا الوجود، فيؤمن إيمانا راسخا بأن له خالقا قادرا، عليما حكيما؛ لهذا يجب النظر في جزئيات الخلق، إذ على قدر وقوفنا على دقائق الآفاق يكون إدراكنا لعظمة الباري، وما يتبع ذلك من أركان الدين، وحقائق الإيمان.

سادسا: أفضلية مسلك القرآن الكريم في إثبات الحقائق الإيمانية، هذه الحقيقة التي آمن بها الرازي نجدها مقررة في وصيته، التي جاء فيها «لقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال لله، ويمنع من إيراد المعارضات والمناقضات، وما ذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى في تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية»[4]؛ فاطمئنانه لطريقة القرآن الكريم القائمة على لفت أنظار الناس إلى تدبر عجائب الخلق، وما في ملكوت السماوات والأرض لإدراك الحق، كان مبنيا على تأكّده من عدم جدوى كل من المناهج الفلسفية والكلامية.

---

(1)-الرازي: التفسير الكبير، ج14، ص122.

(2)-الرازي: المصدر نفسه، ج9، ص137.

(3)-الرازي: المصدر نفسه، ج14، ص121.

(4)-الرازي: التفسير الكبير، ج1، ص-م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومن ثمة لم يكن حكمه عليها صادراً عن هوى، إنما كما قال: جاء «بعد التوغل في هذه المضايق، والتعمق في الاستكشافات عن أسرار هذه الحقائق، رأيت الأصوب والأصلح... طريقة القرآن العظيم والفرقان الحكيم، وهو ترك التعمق والاستدلال بأقسام أجسام السماوات والأرض على وجود رب العالمين، ثم المبالغة في التعظيم من غير خوض في التفاصيل»[1]، فاختباره لتلك الطرق جعله يحكم عليها بعدم جدواها مقارنة بالمنهج القرآني، الواضع لأبنية استدلاله على أساس الشواهد الكونية.

على أن ما انتهى إليه الرازي قد سبقه أبو حامد الغزالي في تقريره، ويتجلى ذلك في موقفه من علم الكلام، الذي أكد قصور مناهجه عن تحقيق غايته، بقوله: «وأما منفعته فقد ظُنّ أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه، وهيهات فليس في الكلام وفاء بهذا الطلب الشريف، ولعل التخبط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف، وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوي ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا، فاسمع هذا ممن خبر الكلام، ثم قاله بعد حقيقة الخبرة، وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين، وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم أخر تناسب نوع الكلام، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود»[2]، فالمتتبع لفكر أبي حامد الغزالي يقف على اهتمامه بعلم الكلام، وإشادته بفضله، إلا أنه انتهى إلى رفضه، وذلك بعد توغله فيه، إذ لم يجد فيه دواء لما كان يعانيه؛ لابتعاد منهجه عن المسلك القرآني، المناسب لكل المستويات العقلية.

الأمر الذي جعله يؤكد أن الإيمان المستفاد من الدليل الكلامي يزول بأدنى الشبه، أما الحاصل بأدلة القرآن فراسخ لا تزعزعه شبهة[3]، إذ «ما يستضاء به من الأنوار، ويُسلك من طريق الاعتبار ما أرشد إليه القرآن، فليس بعد بيان الله بيان، وقد قال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا. وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا. وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا. وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا. وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا. وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا. وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا. وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا. وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا. لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا

---

(1) - محمد بن قيم الجوزية: اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، تحقيق: بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان، دمشق، ط2، 1416هـ-1996م، ص229-230.

(2) - أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ج1، ص168.

(3) - أبو حامد الغزالي: فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، ص269-270.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿وَنَبَاتًا. وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾[1]، فليس يُخفى على من معه مسكة عقل إذا تأمل بأدنى فكره مضمون هذه الآيات، وأدار نظره على عجائب خلق الله في الأرض والسماوات، وبدائع فطرة الحيوان والنبات، أن هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لا يستغني عن صانع يدبره، وفاعل يحكمه ويقدّره»[2]، لكن رغم الاتفاق الحاصل على أفضلية المسلك القرآني، وعدم جدوى بقية المناهج، وفيما التزم الرازي –الذي عُدّ أكثر المتكلمين إيغالا في العقلانيات – بما آمن به، اتجه الغزالي إلى المعرفة الصوفية.

ويبدو أن إيمان الرازي بهذه المسألة كان نتيجة عدم ملاءمتها للواقع، إضافة إلى انحرافها عن المسلك القرآني، الأمر الذي يؤكده ما ذهب إليه ابن رشد –المعاصر لمفكرنا–، إذ بعد نقده لطرق كل من الفلاسفة والمتكلمين والصوفية في المعرفة، انتهى إلى رفضها؛ لأنها ليست الطريقة التي نبه إليها الوحي الإلهي، ودعا الكل من بابها، وجاء المسلك الشرعي –كما يسميه ابن رشد– متمثلا في دليلي الاختراع والعناية، التي تضمنت الآيات الكونية أصولهما، على أن هذا الطريق هو الصراط المستقيم الذي يشترك في إدراكه جميع الناس –الخواص والعوام– مع الاختلاف في التفصيل[3].

فالملاحظ أن ابن رشد لا يختلف مع الرازي والغزالي في مبررات تخليهم عن تلك الطرق، والحكم عليها بالقصور، الأمر الذي تتجلى من خلاله أهمية منحى الرازي الفكري، واهتمامه بالآيات الكونية في إثبات الحقائق الإيمانية، وقيمة هذه الأدلة مقارنة بغيرها، إذ إيمانه بأهمية هذا المنهج يبين سعيه لتقديم حلول لما يعانيه المسلم آنذاك، وما يتطلبه الواقع الفكري لأمته أمام قصور تلك الأدلة عن تحقيق غاية علم العقيدة، مما أدى بمفكرنا إلى التوجه إلى القرآن الكريم للأخذ بما فيه من أدلة.

وقد أوضح الرازي مميزات منهج القرآن الكريم، والتي جعلته يفضّله على غيره من المناهج في جملة من النقاط أهمها:

–أنه أقرب الطرق إلى أفهام الخلق وأشدها التصاقا بالعقول؛ لذلك يمكنها أن توصل كل

---

[1]–سورة النبأ، الآيات: 6-16.

[2]–أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، دار قتيبة، بيروت، ط1، 1412هـ–1992م، ج1، ص157.

[3]– ابن رشد: مناهج الأدلة في عقائد الملة، ص150-154.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إنسان إلى الإقرار بالحقائق الإيمانية، نظرا لقربها إلى الفهم وبعدها عن الدقة.

-أن هذه الدلائل أقوى من سائر الطرق في تحصيل العقائد الحقة في القلوب، وأبعد ما يكون عن المجادلة؛ لأنها كما تفيد العلم بوجوده تعالى ، فهي تذكّر بنعمه على عباده، وفي مقدمتها نعمة الوجود والحياة، إذ التذكير بالنعم يوجب المحبة وحصول الانقياد، وترك المنازعة.

-كما يعدّ هذا النوع من الدلائل أوقع في القلوب وأكثر تأثيرا في العقل، وأبعد من غيرها عن الشبهات؛ لخلوها من التناقضات والتعقيدات[1].

في حين أن الطرق الكلامية والفلسفية، وإن كانت لها فائدة في تحقيق ما هو مطلوب، فإنها تفتح باب المناقشات والشكوك، الأمر الذي يجعلها بحرا عميقا مظلما قلّ من يخرج منه سالما، مما يوضح البون الشاسع بينها وبين المسلك القرآني؛ لذلك نجد الرازي ينهي باب أدلة وجود الله تعالى مؤكدا تلك الحقيقة بقوله: «ونختم هذه الفصول بخاتمة عظيمة النفع، وهي أن الدلائل التي ذكرها الحكماء والمتكلمون، وإن كانت كاملة قوية، إلا أن هذه الطريقة المذكورة في القرآن عندي أنها أقرب إلى الحق والصواب، وذلك لأن تلك الدلائل دقيقة ولسبب ما فيها من الدقة انفتحت أبواب الشبهات، وكثرت السؤالات، وأما الطريق الوارد في القرآن فحاصله راجع إلى طريق واحد، وهو المنع من التعمق، والاحتراز عن فتح باب القيل والقال، وحمل الفهم والعقل عن الاستكثار من دلائل العالم الأعلى والأسفل، ومن ترك التعصب وجرب مثل تجربتي علم أن الحق ما ذكرته»[2].

وهو ما يعطي أهمية للاستدلال بالآيات الكونية على الحقائق الإيمانية، التي لا تترك مجالا للشك باعتبارها من عالم الشهادة، إذ من الصعب إنكاره، إضافة إلى أن الغرض السامي للأدلة القرآنية يكمن في تحصيل العقائد الحقة في قلوب الناس[3]، لا مجرد المجادلة من أجل النقاش

لكن متى كان اهتمام الرازي بالاستدلال بالآيات الكونية في مساره الفكري؟ وهل ترجيحه لهذا المسلك يعني الاقتصار عليه في مؤلفاته، وفي مقدمتها "مفاتيح الغيب"؟

الحقيقة التي يمكن بيانها أن توجه الرازي إلى الأخذ بهذا الطريق، لأنه مستمد من القرآن

---

(1)-الرازي: المطالب العالية، ج1، ص216.

-الرازي: التفسير الكبير، ج2، ص97-98.

(2)-الرازي: المطالب العالية، ج1، ص91.

(3)-الرازي: التفسير الكبير، ج2، ص59.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الكريم، لا يعني اقتصاره عليه في إثبات أصول الدين في جميع مؤلفاته، وإن كان يفضّله إلا أنه أخذ بمسالك متعددة؛ لذلك لا يمكن حصر مسلكه في هذا أو ذاك.

والأمر نفسه في "تفسيره الكبير"، إلا أن بداية منه تجلى اقتناعه بأهمية الاستدلال بالآيات الكونية على الحقائق الإيمانية، وأفضلية المسلك القرآني؛ لبناء استدلاله على الآيات الكونية، والمتتبع لمسار الرازي الفكري يجد أن الدلائل الكونية، التي عُرفت بطريق حدوث الصفات(1)، لم تكن لها تميّز عن غيرها.

في حين أعطى لها أهمية أكثر ضمن تفسيره الكبير، الذي ندرك فيه بوضوح أفضلية هذه الأدلة على غيرها؛ ليجسد إيمانه بامتيازها على ما أنتجه العقل من براهين في كل من "المطالب العالية"(2)، "أقسام اللذات" و"أسرار التنزيل"، هذا الأخير الذي أفرده لشرح أوجه الدلالة في الآفاق والأنفس(3)؛ لينتهي في وصيته إلى تأكيد رفضه كل من الطرق الكلامية والفلسفية –التي طالما خاض فيها- واتجاهه إلى الأخذ بطريقة القرآن الكريم.

والنتيجة التي نخلص إليها، هي أن القرآن الكريم حثّ الإنسان على النظر والتدبر في دلائل الآفاق حتى يُدرك الحقائق الإيمانية، ويستسلم لعقيدة التوحيد، مما جعل الرازي يقرر أن «المقصود من هذا الكتاب، جذب القلوب والأرواح للاستغراق في معرفة الحق وإنارة القلوب بذكر ما يدل على التوحيد»(4)، الذي من دلائله عناصر الآفاق؛ فكان بذلك حديث الوحي الإلهي عن الآيات الكونية منطلق الرازي في التوجه إلى هذا النوع من الاستدلال.

إلا أن ما يمكن قوله عن هذه المنطلقات، أنها تتجلى فيها أهمية منهج الاستدلال بالآيات الكونية، أو ما يُعرف بالمنهج العلمي العقلي في إثبات أصول الدين، إذ مثلت تلك الأسباب التي دفعته إلى عمله هذا، ردا على من عاب أو سيعيب عليه عمله، الأمر الذي أشار إليه مفكرنا بقوله: «وربما جاء بعض الجهال والحمقى وقال: إنك أكثرت في تفسير كتاب الله من علم الهيئة والنجوم،

---

(1)-أو حدوث الأعراض المتضمن لدليل الأنفس أيضا إلى جانب الآفاق، وهما قسما دلائل التوحيد. –الرازي: التفسير الكبير، ج9، ص148 –ج19، ص222.

(2)-الرازي: المطالب العالية، ج1، ص177-236.

(3)-محمد صالح الزركان: الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية، ص198.

(4)-الرازي: التفسير الكبير، ج9، ص138.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وذلــك على خلاف المعتاد، فيقال لهذا المسكين: إن لو تأملت في كتاب الله تعالى حق التأمل لعرفت فســاد مــا ذكرته»[1]، وهو ما تقرر في تلك الوجوه المختلفة من المنطلقات، التي أدت بالرازي إلى الاهــتمام بتوظــيف حقائق العلوم الكونية في الاستدلال على أصول الدين، وذلك بناء على أسس منهجية.

(1)-الرازي: التفسير الكبير، 14، ص121.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثالث: قواعد منهج الرازي في الاستدلال بالآيات الكونية

إلى جانب تلك المنطلقات التي بنى عليها الرازي موقفه من الآيات الكونية، نجد مجموعة من القواعد استند إليها في بيان دلالات عناصر الآفاق على الحقائق الإيمانية، مع العلم أن مفكرنا لم يعمد إلى تحديدها بشكل واضح ومضبوط، إلا أننا حاولنا استنباطها مما تضمنته استدلالاته، كتطبيق لتلك المبادئ في تفسيره، والتي يمكن ضبطها في:

أولا: الاستدلال بالآيات الكونية لا يكون إلا بعد معرفة أقسامها

إذا كان الكون يمثل العالم المحسوس في هذا الوجود، فإنه يشمل عناصر عديدة، تعدّ المعرفة بها ضرورية في الاستدلال بآياته على الحقائق الإيمانية.

وهو ما بنى عليه الرازي منهجه؛ فكان ذلك ركيزة أساسية في نسقه، إذ يؤكد «أن النظر في ملكوت السماوات والأرض لا يكون إلا بعد معرفة أقسامها»[1]، المتمثلة في العناصر الموجودة في عالمي السماوات والأرض وما بينهما، والتي فصل فيها مفكرنا تفصيلا دقيقا[2]، مقرا بأن ما ذكره من ملك الله كالقطرة في البحر، فقد يوجد ما لا يحيط به عقل الإنسان[3]؛ لذلك فمن استحضر هذه الأقسام في عقله، وأراد الخوض في معرفة حكمة الخالق ﷻ فهم قوله: ﴿...سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[4]، مذعنا بمحدودية علمه مهما كانت درجته من التوسع.

لكن مع ذلك لابد من تقسيم الكون إلى ما يمكن أن يتجزأ من عناصر، ومعرفة أحوالها مما يسمح بالوقوف على أكبر قدر ممكن من دلائلها، إذ بالبحث فيها على سبيل التفصيل ندرك في كل نوع منها حكمة بالغة، وأسرار عجيبة، هي بمثابة البراهين والدلائل، ولكثرتها أثر عظيم في تقوية اليقين وإزالة الشبهات، الأمر الذي يوجب النظر في جزئيات الخلق[5].

فالعالِم وهو ينتقل بين عناصر الآفاق «كأنه يطير في أقطار الملكوت، ويسبح في بحار المعقولات؛ فيطالع الوجود والمعلوم والواجب والممكن والمحال، ثم يعرف أقسام الممكن إلى الجوهر

(1)-الرازي: التفسير الكبير، ج15، ص78.

(2)-الرازي: المصدر نفسه، ج1، ص229- ج2، ص102-111، 155-158.

(3)-الرازي: المصدر نفسه، ج15، ص78

(4)-سورة البقرة، الآية: 32.

(5)-الرازي: المصدر السابق، ج14، ص122.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والعرض، والجوهر إلى البسيط والمركب، ويبالغ في تقسيم كل منها إلى أنواعها، وأنواع أنواعها، وأجزائها وأجزاء أجزائها، والجزء الذي يشارك غيره، والجزء الذي به يمتاز عن غيره، والذي يعرف كل شيء، مؤثره ومعلومه وعلته ولازمه وملزومه... حتى يصير عق له كالنسخة التي أُثبتت فيها جميع المعلومات بتفاصيلها وأقسامها؛ فأي سعادة فوق هذه الدرجة»[1]، ذلك أن الآيات الكونية سبيل الاستدلال فيها عناصر الآفاق، من السماء ونجومها، والأرض وجبالها وأنهارها، وعالمي النبات والحيوان، إضافة إلى تلك الظواهر الطبيعية المتعددة كالليل والنهار، الرياح والأمطار، وغيرها من الحوادث السارية في هذا الوجود، إذ في ملكوت السماوات والأرض آيات كثيرة ودلائل وفيرة بإدراكها تصير النفوس الجاهلة عالمة.

على أن كمال حال النفس تكمن في معرفة الموجودات بأقسامها وأنواعها، حتى تكون كالمرآة المتجلى فيها قدس الملكوت، والظاهر فيها جلاله ، وفي مقدمة هذه المعارف إدراك وحدانية الخالق؛ فتكون هذه النفس بعد وقوفها على أقسام الكون مستعدة لقبول صور الموجودات من عالم الغيب[2].

وقد حثّ الرازي على ضرورة معرفة عناصر الكون بالتفصيل ليقوم العقل بوظيفته، إذ القوة الفكرية من خواصها أخذ ماهية كل عنصر على حده، ثم تقسيمها إلى ما يمكن تقسيمه، وهكذا إلى أن تكثر الشعب بالتقسيمات العقلية، ثم تفضي إلى نتائج تجعل منها بذورا لأمثالها، أي أنها تأخذ معرفتها بأحوال تلك العناصر كمقدمات، يستنتج منها علما بمجهول، وهذا التقسيم يجعل المعارف حاصلة بالفعل، ويكون صاحبها كأنه ينظر إليها[3]؛ فيكون الوقوف على حقيقة هذه الموجودات هاديا إلى الإيمان بخالقها، وعلى قدر النظر في جزئيات الخلق يتم إدراك عظمة موجدها.

ذلك أن الاستدلال بآيات الآفاق على الحقائق الإيمانية لا يقوم على دلالة الكون كقضية كلية فحسب، بل يعتمد على كل من خلق وإبداع السماوات والأرض، وأحوال عناصرهما وما تخضع له من سنن، إضافة إلى المنافع الحاصلة مما يوجد في العالمين الأعلى والأسفل[4]، الأمر الذي يستوجب

[1]-الرازي: التفسير الكبير، ج2، ص199.

[2]-الرازي: المصدر نفسه، ج23، ص233-234

[3]-الرازي: المصدر نفسه، ج23، ص233-234.

[4]-الرازي: المصدر نفسه، ج17، ص37- ج18، ص223.

الـتدبر والتأمل في جزئيات الخلق لطلب معرفتها عرفانا حقيقيا تاما، وهو أساس تحصيل اليقين القائم عـلى الجلاء والانكشاف[1]، إذ أن الناظر في تلك العناصر ابتغاء معرفة حقيقتها، إذا أحاط بها علما أدرك شـهادتها عـلى وجـود عالمي الغيب والشهادة؛ لأن أجزاء العالم المحسوس عُرضت في كمها وكيفها عرضا يجمع في تقرير حقيقتها بين ظاهره المادي وبين دلالتها على وجود الخالق ﷻ.

لهـذا، نجد الرازي في استدلاله بخلق السماوات والأرض على وجود الله تعالى يتناول أحوال عناصـرها بالتفصيل، فيتطرق إلى معرفة الأفلاك وترتيبها، إضافة إلى مقاديرها وما تخضع له من نظام في حـركاتها، كما يغوص في عالمي الحيوان والنبات وغيرها من الظواهر الطبيعية، بوصفه الدقيق[2]، وبمـا أن إدراك دلالتها على موجدها يقوم على معرفة حقيقتها؛ لذلك فبعد البحث في أحوالها ينتقل مفكـرنا إلى عـرض كيفية الاستدلال بها على خالق الكون، إذ متى تم جلاء حقيقتها كان حصول اليقين.

هـذا،وقـد جاء التنبيه في الخطاب الإلهي إلى أن دلائل الآفاق غير مقصورة على السماوات والأرض فحسب، بل كل ذرة من ذرات عالم الأجسام هي برهان ودليل قاهر على التوحيد[3]، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾[4].

ذلـك أن شهادة الكون على الوجود الغيبي تكمن في كل عنصر من عناصره، مما يستوجب الـنظر في كـل منها لمعرفة ما تتضمنه من حقائق، وهو ما يترتب عنه أيضا إدراك التكامل والترابط القـائم بينها، إذ يمثل الكون وحدة مترابطة الأجزاء «لا تستقيم معرفة أي جزء منه إلا ضمن قاعدة واسعة من البصيرة العلمية بالدائرة الكونية كلها»[5]، فكل عنصر وجوده مشروط بعنصر آخر، وهو محـتاج في وجوده إلى غيره، وهكذا بالنسبة لكل موجودات الكون، مما يدل على حاجتها إلى موجد غـير محتاج إلى غيره في وجوده، وهو الخالق ﷻ، بل تكون تلك العناصر أثر له ودلالة على وجوده، وشـهادتها لا يمكن إدراكها إلا بمعرفة كل قسم من أقسام عالم الآفاق، وهو ما يستوجبه الاستدلال

---

(1)-الرازي: التفسير الكبير، ج15، ص75.

(2)-الرازي: المصدر نفسه، ج4، ص179-202- ج5، ص336-337 – ج19، ص168-170.

(3)-الرازي: المصدر نفسه، ج15، ص76.

(4)-سورة الأعراف، الآية: 185.

(5)-محمد سعيد رمضان البوطي: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم، دار الفكر، بيروت، ط3، 1998م، ص12.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بها عن الحقائق الإيمانية.

ثانيا: تحصيل أكبر قدر ممكن من المعرفة بالعلوم الكونية

الاستدلال بآيات الآفاق يحتاج إلى إلمام واسع بالعلوم الكونية، للبرهنة على صدق الحقائق الإيمانية، وذلك بتوظيف حقائق تلك المعارف على أساس أن كلا من الوحي الإلهي وعالم الشهادة إظهار لمشيئة الخالق ﷻ، لكن بصفة كلامية في الذكر الحكيم، وبصفة عملية في الكون.

لذلك يعتبر الرازي القرآن الكريم كونا مقروءا، والظواهر الطبيعية –في الوجود- كونا منظورا ، فإذا تأملنا نصوص الأول نكون قد أخذنا بتفهم كلامه تعالى، أما بتدبرنا في الثاني؛ نجده ميدانا واسعا للتفكر في ملكه تعالى، وقد اعتقد كما يقرر أنه كلما تمعّنا في الكائنات أكثر ازداد إيماننا ويقيننا بالوحي المنزل[1].

الأمر الذي يستوجب الخبرة الحسنة لعلوم الكون، والإلمام الواسع بها مصداقا لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[2]، فتكون تلك الآيات دلائل يُريها سبحانه وتعالى في عباده الواحدة تلوى الأخرى، إلى أن تزول الشبهات ويحصل الجزم بوجوده ﷻ، والقطع بما أخبر عنه في محكم تنزيله؛ لأن كلّ «من كان أكثر توغلا في بحار مخلوقات الله تعالى، كان أكثر علما بجلال الله تعالى وعظمته»[3]؛ فعلى قدر وقوفنا على حقيقة ملكوت السماوات والأرض، يكون إدراكنا لعظمة الباري، إذ كيف يمكن استخراج الدلائل الكونية مع الجهل بحقيقة عناصر الآفاق؟

ومن ثمة فتحصيل المعرفة الكونية ضروري من أجل توظيفها في الاستدلال على حقائق الدين، مما جعل الرازي لا يكتفي بالتنظير لذلك فحسب، بل عمل على تنفيذ هذه الركيزة في تفسيره، بداية بتقسيمه للعلوم[4]، التي يجعل في مقدمتها الإيمان بالله، ومن بين ما يحققه معرفة أفعاله جل جلاله، التي منها عالم الأجسام –بشقيه الأعلى والأسفل-، في حين أن معرفة هذا الأخير تكون بالبحث في عناصره لإدراك ما تتضمنه من حقائق، أين يتم استخدامها في إقامة الأدلة.

---

(1)-الرازي: التفسير الكبير، ج14، ص126-127.

(2)-سورة فصلت، الآية: 53.

(3)-الرازي: المصدر السابق، ج4، ص180.

(4)-الرازي: المصدر نفسه، ج26، ص268.

لذلك كان "مفاتيح الغيب" بمثابة موسوعة علمية؛ لما تضمنه من نتائج مختلف العلوم الكونية، من علم الفلك[1]، علم الحيوان[2]، علوم الأرض[3]، وعلم النبات[4]، إذ قبل عرض مفكرنا لدلالة الآيات الكونية على الحقائق الإيمانية، يتطرق إلى بيان أحوال وصفات عناصر الآفاق في مباحث خاصة.

ومن ذلك استدلاله بخلق السماوات والأرض على وجود الله، إذ نجده يعقد فصولا لأحوال الكواكب، تعرض فيها إلى معرفة الأفلاك، ترتيبها، مقاديرها وحركاتها، مما ينم عن إلمامه الواسع بهذه العلوم؛ ليوظفها بعدها في تحصيل الإيمان وإزالة الشبهات، فتكون تلك المعارف من المؤيدات لحقائق الدين[5].

وإيمان الرازي بأهمية الخبرة الحسنة بعلوم الكون مكّنه من الأخذ بما تثبته التجربة، وتدعمّها المشاهدة من الحقائق، والتي يفسرها العلم أيضا بما يكشف عنه، إذ يعدّ استدلاله بظاهرة تكون اللبن داخل الجسم من الغذاء والدم، على القدرة الإلهية خير نموذج، أين تتجلى ثقة مفكرنا من علمه، المستمدة من تبحره في تحصيل ما توصل إليه العلم في عصره، مما مكنه من تجاوز الأثر المروي عن ابن عباس ﷺ، الذي جاء فيه: «إذا استقر العلف في الكرش صار أسفله فرثا، وأعلاه دما، وأوسطه لبنا، فيجري الدم في العروق، واللبن في الضروع، ويبقى الفرث كما هو»[6] مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾[7].

على أن نقضه لهذا الأثر استند فيه إلى ما دلت المشاهدة على فساده، فلم يجز المصير إليه، كما أن الدليل الحسي ينفي ذلك، إذ بذبح الحيوان لا نرى في كرشه دما ولا لبنا، مما يبين أن الغذاء المتناول يصل إلى الكرش –وإلى المعدة بالنسبة للإنسان–، وبعد عملية الهضم الأولى ينجذب الصافي

(1)–الرازي: التفسير الكبير، ج4، ص180- ج19، ص170-171.
(2)–الرازي: المصدر نفسه، ج20، ص8-9-ج26، ص245.
(3)–الرازي: المصدر نفسه، ج20، ص69-72.
(4)–الرازي: المصدر نفسه، ج13، ص89.
(5)–الرازي: المصدر نفسه، ج4، ص180-202- ج2، ص156-158-ج14، ص119-122- ج13، ص111.
(6)–الرازي: المصدر نفسه، ج20، ص64.
(7)–سورة النحل، الآية: 66.

منه إلى الكبد، والكثيف يذهب إلى الأمعاء؛ ليصبح ما آل إلى الكبد بعد عملية الهضم الثاني دما، لكن يكون مخلوطا بالصفراء والسوداء، وزيادة المائية، وكل منها يتجه على التوالي إلى الصفراء، الطحال، الكلية، ويبقى الدم ليتجه إلى العروق الموجودة في الكبد، أي تتم عملية الهضم الثالثة.

ونظرا لما بين الكبد والضروع من عروق، فإن الدم ينصب في ذلك اللحم الغددي الرخو، فيقلب الله ذلك الدم إلى لبن، ويختم الرازي حديثه بقوله: «فهذا هو القول الصحيح في كيفية تولّد اللبن»[1].

وبهذا التحليل العلمي القائم على ما تثبته التجربة وما يفسره العلم، يتابع الرازي منهجه في الاستدلال بالآيات الكونية، معتمدا على ما حله من معرفة بأحوال عناصر الآفاق، مما يسمح له باستخلاص دلالة تلك الحقائق العلمية على ما هو مقرر في الذكر الحكيم، مما يؤكد أن تناول الآيات الكونية بالإيماء إلى وجه الهداية فيها لا يقنع، بل الضروري تدبر أسرار الكون «لمعرفة الأشياء كما هي عرفانا حقيقيا تاما»[2]، بما يحقق استخدامها في الاستدلال على أحسن وجه، أين يتجلى تأييد الحقائق العلمية لما ورد في الكون المقروء من أصول إيمانية، أو كشواهد على سر إعجاز الرسالة الخالدة.

كما يؤكد مفكّرنا مرة أخرى على أن تحصيل المعرفة الكاملة اليقينية لا يتم إلا بالمنطق التجريبي؛ لكون الآيات التي تضمنها الكون –المقروء والمنظور–، وجهتْ«لقوم يتفكرون ويتأملون ويستدلون بالمحسوس على المعقول، وينتقلون من الشاهد إلى الغائب»[3] مصداقا لقوله تعالى: ﴿...قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[4]، فأهل العلم هم القادرون على إدراك دلائلها استنادا إلى ما علموه.

ومن ثمة يكون توظيف الرازي لتلك العلوم وتعامله الواسع معها، لم يكن مقصودا لذاته، بل الغاية من ذلك أن «الانتفاع بالدليل العقلي إنما يحصل للإنسان الكامل، وذلك إنما يكون في غاية الندرة، فأما إذا ذُكرت الدلائل من العالم المحسوس صار ذكرها موصل لتلك الدلائل العقلية إلى

(1)–الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص66-67.
(2)–الرازي: المصدر نفسه، ج15، ص75.
(3)–الرازي: المصدر نفسه، ج13، ص102.
(4)–سورة الأنعام، الآية: 97.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

العقــول»[1]، فإدراكه لهذه الحقيقة جعله يسعى إلى استخراج ما أمكن من الدلائل الكونية، بتوظيف ما حصّله من معارف لإثبات حقائق الإيمان.

ثالثا: النظرة المتكاملة للآيات الكونية

والمــراد بهــذا الأساس أن تكون نظرتنا إلى آيات الكون مبنية على قراءة جامعة بين بعديها الروحي والمادي؛ لنتمكن من تحقيق مقصودنا على أكمل وجه في الاستدلال بها على الحقائق الإيمانية.

ذلــك أن هــذه الآيات نعم دنيوية في الظاهر، فإذا تفكر العاقل فيها واستدل بها على معرفة الخــالق جــل جلاله، صارت نعما دينية[2]، أي أن التمييز بين الوظيفتين مستمد من فهم الإنسان، وإدراكه لأبعاد الكون.

فــإذ نُظر إليه بناء على ذاته المادية، وما يُستفاد منه من منافع في تحقيق عمارة هذا الوجود، كانــت آياته نعم دنيوية، أما إذا تجاوزنا هذه الشحنة واتخذناها كمسلك لبلوغ الحق، صارت نعما دينــية، ذلــك أن الوجود الغيبي متضمّن في عناصر الكون، التي جعل سبحانه وتعالى «فيها علامات مخصوصة حتى يتمكن المكلف من الاستدلال بها، فيصل بواسطتها إلى مقصوده»[3]، فتكون شهادتها على الحقائق الإيمانية بما تحمله من بعد روحي.

هــذه الشــهادة الــتي تقوم على التفكر في الآفاق لإدراك حقيقتها، مما يسمح بمعرفة أسرار وجودهــا؛ فيكون ذلك هاديا إلى الإيمان بقدرة خالقها وحكمته، ذلك «أنك إذا تأملت في عجائب أحوال المعادن، والنبات، وآثار حكمة الرحمن في خلق الإنسان، قضى صريح عقلك بأن أسباب تربية الله كــثيرة»[4]، إذ شمل برعايته ورحمته جميع عباده، فيكون التدبر في هذه الآيات الكونية، إضافة إلى تحصيل المنفعة المادية منها طريق موصل إلى إدراك حقائق الغيب، بما تتضمنه من دلالات عليه.

ومــن ثمة تكون الغاية من تلك الآيات واحدة، وهي الهداية إلى وجهه تعالى «فإذا أردت أن تكــون مــن جملــة من قال فيهم ﴿...يريدون وجهه﴾[5]، فقم قائما واستحضر في نفسك جميع

---

[1]-الرازي: التفسير الكبير ، ج17، ص169.

[2]-الرازي: المصدر نفسه، ج4، ص203.

[3]-الرازي: المصدر نفسه، ج20، ص10.

[4]-الرازي: المصدر نفسه، ج31، ص6.

[5]-سورة الكهف، الآية: 28.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مخلوقات الله تعالى من عالم الأجسام... استحضر في عقلك جملة ما في هذا العالم من أنواع المعادن والنبات والحيوان من الإنسان وغيره، ثم ضم إليه البحار والجبال والتلال والمفاوز، وجملة ما فيها من عجائب النبات والحيوان، وذرات الهباء، ثم ترقى منها إلى سماء الدنيا على عظمتها واتساعها، ثم لا تزال ترقى من سماء إلى سماء حتى تصل إلى سدرة المنتهى»[1]، فهذه الآيات العظام هي المنطلق لتحقيق الإيمان بالله، وإلى سائر حقائق عالم الغيب؛ إذ يتم فيها الانتقال من الحسي القريب إلى المجرد البعيد مصداقا لقوله تعالى: ﴿...إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾[2]؛ أي فيها دلالة لمن يرجع إلى بصيرة، لذلك فالواجب على الإنسان التفكر[3] في هذا الوجود المحسوس، الذي هو أثر لوجود خالق مدبر له، حيث يتجلى ذلك تجليا تصير به عناصر الكون شاهدة على الوجود الغيبي، بل قائمة عليه وناطقة به.

وبما أن لحقيقة الكون بعدين أساسيين؛ مادي ظاهر، وروحي غير محسوس، فإنهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر[4]، إلا عند من هو جاهل أو جاحد، ستنده النظرة الأحادية إلى الآيات الكونية، ولو كون هذه الأخيرة عنصر مهم في الوجود الإنساني، فالأهم النظرة المتوازنة في قراءتها، الجامعة بين بعديها المادي والغيبي، ليكون الانتفاع بها ماديا دينيا ودنيويا.

لذلك يجب أن لا نقتصر على قراءتها في الكتاب المنظور بما تحصله من منفعة مادية في أداء مهمة العمارة، كما لا نكتفي بتلاوتها في الكتاب المسطور لأجل التعبد، فذلك أن أداء الإنسان لمهمته الاستخلافية لا يتحقق إلا بالعبادة والعمارة معا.

وقد جاء تأكيد الرازي على ضرورة النظرة المتكاملة للآيات الكونية، أو ما يعرف بالجمع بين القراءتين، من خلال بيانه للبعد الإيماني للكون، إذ لا تتناول آية من عالم الآفاق إلا وينبه إلى أنها نعم دينية ودنيوية، ذلك أن أهم المهمات رعاية مصالح الأديان والأبدان، وقد راعى سبحانه وتعالى مصالح أديان العباد بإظهار البينات والآيات بما تتضمنه من دلائل الحق، كما راع مصالح أبدانهم، بأن جعل تلك العناصر مصدر رزقهم؛ فموقع الآيات من الأديان كموقع الرزق من الأبدان، مصداقا

---

(1) الرازي: التفسير الكبير، ج4، ص187.

(2) سورة النور، الآية: 44.

(3) الرازي: المصدر السابق، ج24، ص15.

(4) عبد المجيد النجار: قضايا البيئة من منظور إسلامي، ص80.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾[1]، فالآيات لحياة الأديان والأرزاق لحياة الأبدان، وعند حصولهما يحصل الإنعام على أقوى الاعتبارات وأكمل الجهات[2]، إذ عرضت هذه المشاهد الكونية في كمها وكيفها عرضا يجمع في تقرير حقيقتها بين بعديها المادي والروحي.

الأمر الذي جاء تقريره في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[3]، فخلق ما في السماوات والأرض لأجل انتفاعنا به في الدين والدنيا، أما في هذه الأخير فليصل أبداننا، ولنتقوى على الطاعات، وفي الدين للاستدلال والاعتبار بها[4]، وهنا تكمن أهمية الآيات الكونية إذ تمثل مخلوقات الله المسخرة لعباده، وهي معجزاته جل جلاله الشاهدة على علمه المطلق وقدرته العظيمة؛ فلا شيء في الوجود قائم بذاته ولذاته، إنما الكل كائن بأمره تعالى، لذلك فصلة الإنسان بعالم الآفاق لا تقتصر على المنفعة المادية فحسب، بل لابد من التدبر في عناصره لإدراك الحق أيضا.

لذلك على الإنسان وعي أن ما في عالم الشهادة هو في خدمة مصلحته، وباعتباره المسؤول والمكلف بأداء الأمانة التي حملها، عليه أن لا يركن إلى متاع الحياة ويقصر همته فيها؛ لأنه مدعو إلى اتخاذها وسيلة لغاية أبعد وأسمى، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ. وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[5]، وفقه ذلك يترتب عن النظرة المتكاملة إلى الآيات الكونية، الشاملة لبعيدها المادي والروحي، وإدراك أنها نعم دينية ودنيوية، يقوم على ما زُوّد به الإنسان من وسائل معرفية، ومدى قدرة هذه الأخيرة على تحصيل المعرفة التامة والانتفاع الكامل بالآيات الكونية.

---

(1)-سورة غافر، الآية: 13.

(2)-الرازي: التفسير الكبير، ج27، ص43.

(3)-سورة البقرة، الآية: 29.

(4)-الرازي: المصدر السابق، ج2، ص153.

(5)-سورة العنكبوت، الآيتان: 63-64.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رابعا: سلامة كل من العقل والحواس

لقد كانت معرفة الحقيقة اليقينية تمثل القضية المحورية عند الرازي في "تفسيره الكبير"، إذ حدد موضوعها في جملة المسائل العقدية العقلية؛ فكانت الطريق الموصل إلى تحصيل تلك المعرفة[1]، والتي جعلها في مستوى إدراك الإنسان بما زُوّد به من وسائل معرفية، فما هو مجال وحدود هذه الوسائل في نظر مفكرنا؟

بناء على تحديد الرازي لموضوع المعرفة، فإن العقل هو أساس التفكير وأداة تحصيل اليقين، وذلك نظرا لطبيعة الوجود الغيبي، إذ هو من المسائل العقلية التي يصعب تحصيل العلم بها على سبيل التمام، إلا بالتفكر في العالم المحسوس لإدراك ما يحمله من دلالات، مما يجعل ذلك المعقول بمعاونة هذا المحسوس مفهوما للجميع[2]، أي أن الحديث عن وجود الله ﷻ -مثلا- لا يكون إلا استدلالا بالشاهد على الغائب، وهذا المسلك يقوم على التدبر في الآفاق؛ «لأنك لا ترى شيئا من الكائنات والممكنات إلا ويكون دليلا على وجوده ﷻ»[3]، وما هي إلا براهين نظرية قائمة على الاستدلال العقلي.

لذلك فالانتفاع بالآيات الكونية على أكمل وجه، من حيث هي نعم دنيوية لا يكون إلا بسلامة الحواس وصحة المزاج، أما من حيث هي نعم دينية، فلا يتم إلا بسلامة العقل وانفتاح بصر الباطن[4]، وبهذا يتحدد مجال القوى المدركة لدى الإنسان، المسؤولة عن تحصيل المعرفة الكفيلة بجعله خليفة في الأرض، بما تحققه من قراءتها لعالم الشهادة، الذي يكون إدراك بعده المادي بالحواس، في حين لا يدرك بعده الغيبي إلا بقوى النفس العقلية.

ومن ثمة فتحديد مجال وسائل الإدراك مبني على طبيعتها، وطبيعة كل من عالمي الغيب والشهادة؛ فالحواس تحتاج في إدراكها إلى وجود محسوس، لذلك فهي آلات الاتصال بعالم الآفاق، إذا لم يصرفها صارف عن آداء وظيفتها المتمثلة في انتزاع المحسوسات التي تلامسها، مما يستدعي سلامتها إلا أنها لا تُدرك من الأشياء إلا ظواهرها؛ لعدم قدرتها على الاستنتاج، لذلك فما تدرك من الكون إلا

(1)-الرازي: التفسير الكبير، ج1، ص4.
(2)-الرازي: المصدر نفسه، ج13، ص9.
(3)-الرازي: المصدر نفسه، ج23، ص228.
(4)-الرازي: المصدر نفسه، ج4، ص203.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ما ينفع ماديا[1]، وهي تشترك فيها جميع الكائنات الحية.

وليتميز الإنسان في هذا الإدراك عن غيره لابد أن يكون معتدلا في تعامله مع الكون، إذ اللذة الحاصلة من الانتفاع المادي إنما تُدرك لأن فائدتها أمر ملائم لاحتياج البدن، ولتحصيل تلك المنفعة على أكمل وجه من الضروري صحة الميزاج، ذلك أن هناك انفعالية في الكائن الحي تعمل كطاقة وراء سلوكه[2]، الذي على الإنسان أن يكون معتدلا فيه، فلا يطلق العنان لقوته في استغلال عناصر الكون بإقباله عليها بطغيان وعدوانية، مُبتغيا السيطرة عليها فيحدث الفساد فيها، كما لا يجب أن يشعر بالعجز أمام هذا الكون، معتبرا إياه القوة الفاعلة والمتصرفة في الوجود، مما يؤدي إلى نمو روح الانهزامية بداخله، فيتقاعس عن عمارة الأرض[3]؛ لهذا اشترط الرازي صحة المزاج مع سلامة الحواس في إدراك البعد المادي لعالم الشهادة على أكمل وجه.

لكن نظرا لطبيعة المعرفة الحسية، التي تختصر الوجود الكوني بأبعاده إلى حدود ضيقة؛ فمن الضروري سلامة العقل وانفتاح بصر الباطن لإدراك بعده الروحي، وذلك بالتفكر في آياته المتعددة للاستدلال بها على الوجود الغيبي، وهو ما يؤكد قدرة العقل على إدراك ما لا يخضع للمدركات الحسية لما لديه من إمكانيات معرفية.

الأمر الذي عقد لبيانه الرازي مقارنة بين ملكة العقل وحاسة البصر، وضّح فيها تمايز القوة العاقلة عن القوى الحاسة، والجوانب المتعددة المتاحة للعقل في مجال المعرفة، مفصلا في ذلك في عشرين نقطة[4]،أكد فيها قدرة العقل على تحصل المعرفة الحقيقية في مقابل الحواس؛ فإن كان كل من الإدراكين –الحسي والعقلي- يقتضي الظهور الذي هو من أشد خواص النور، إلا أن الإدراك العقلي أولى بكونه نورا[5]، بل لنور الحواس عيوب لم يحصل شيء منها في نور العقل[6]، مما يجعله القوة

---

(1)-الرازي: التفسير الكبير، ج23، ص225-227.

(2)-كامل محمد عويضة: علم نفس الشخصية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1996م، ص93.

(3)-حاولت شرح "صحة المزاج" بناء على ما ورد من مفاهيم حول المصطلح في: -عبد الحميد جابر وعلاء الدين كفافي: معجم علم النفس في الطب النفسي، دار النهضة العربية، القاهرة (د.ط)، 1992م، ج4، ص49.

-محمد علي التهانوي: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ج2، ص1520-1521.

(4)-الرازي: المصدر السابق، ج23، ص225-228.

(5)-الرازي: المصدر نفسه، ج23، ص228.

(6)-الرازي: المصدر نفسه، ج23، ص215.

القـــادرة على إدراك ما فوق العرش وما تحت الثرى في آن واحد، مدركا من وجود الله وصفاته مع كونه تعالى متره عن القرب والبعد والجهة[1].

وتتجلى وظيفة العقل وقدرته على تحصيل المعرفة عند الرازي بشكل واضح من خلال شرحه لمعنى الفكر، والمتمثل في «انتقال الروح من التصديقات الحاضرة إلى التصديقات المستحضرة، وعملية الانـــتقال هـــذه لا تـــتم إلا بشيء يتوسط بين طرفي المجهول؛ لتصير النسبة المجهولة معلومة، وذلك المتوســـط له إلى كـــل واحد منهما نسبة خاصة؛ فيتولد من نسبته إليهما مقدمتان، وكل مجهول لا يحصـــل العـــلم بـــه إلا بواسطة مقدمتين معلومتين، وهاتان المقدمتان هما كالشاهدين... وهما اللتان تنـــتجان المطلـــوب»[2]، أي أن حصول المقدمات في العقل لابد له من إنتاج المطلوب، مما يدل على قـــدرة العقـــل عـــلى تحصيل العلم، بل هو منبعه، إذ به كرّم وفضّل الإنسان، وما ذلك إلا لكفايته اكتساب العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة.

كمـــا يعترف الرازي بقدرة العقل الذاتية في تحصيل اليقين، «الذي لا يحصل إلا إذا اعتقد أن الشيء كذا، ويمتنع كون الأمر بخلاف معتقده، إذا كان لذلك الاعتقاد موجب وهو إما بديهة الفطرة وإمـــا نظر العقل»[3]، فيكون العقل من طرق المعرفة اليقينية، التي لا مجال فيها للشك والحاصلة بعد تـــأمل وتدبـــر، وهنا تتجلى قيمة العلم الفكري –القائم على نظر العقل– في بلوغ اليقين، إذ يكون بطلب ويحتاج إلى برهان ودليل[4]، والعقل متمكن منه بقدرته على تركيب المعلومات –البديهيات– ليتوصل إلى إدراك المجهولات[5].

ومـــن ثمة يكون اليقين حالة من الاطمئنان التي تسعى إليها النفس بعد التردد، إذ يكون عن طريق التفكر، الذي هو: «طلب المعنى بالقلب، وذلك لأن فكرة القلب هو المسمى بالنظر والتعقل في الشـــيء، والتأمل فيه والتدبر له، وكما أن الرؤية بالبصر حالة مخصوصة من الانكشاف والجلاء، ولها مقدمة وهي تقليب حدقة إلى جهة المرئي، طلبا لتحصيل تلك الرؤية بالبصر؛ فكذلك الرؤية بالبصيرة، وهـــي المسماة بالعلم واليقين، حالة مخصوصة من الانكشاف والجلاء، ولها مقدمة وهي تقليب حدقة

---

[1]–الرازي: التفسير الكبير، ج23، ص226.

[2]–الرازي: المصدر نفسه، ج2، ص207.

[3]–الرازي: المصدر نفسه، ج2، ص206.

[4]–الرازي: المصدر نفسه، ج2، ص47.

[5]–الرازي: المصدر نفسه، ج24، ص138.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

العقــل إلى الجوانب، طلبا لذلك الانكشاف والتجلي، وذلك هو المسمى بنظر العقل وفكرته؛ فقوله تعــالى: ﴿أو لـم يتفكروا﴾، أمر بالفكر والتأمل والتدبر والتروي، لطلب معرفة الأشياء كما هي عــرفانا حقيقيا تاما»[1]، أي أن الغرض من التفكر هو التوجه إلى طلب معرفة حقيقة الأشياء، معرفة تامــة لا مجال للشك فيها، والعقل قادر على تحصيل العلم بذلك، وهو ما يؤكده الرازي بقوله: «أما العلم بحقائق الأشياء، فالعقل متمكن من تحصيله»[2]، بل وقادر على إدراك الكليات[3]، لكن لا يتم الأمر إلا إذا أحاط بالشيء[4]، إذ كل ما استحضره ووقف عليه صار محاطا، ومن ثمة فهو معلوم، وإذا تم ذلك الجلاء له حصل اليقين.

إلا أن الأمــر لا يصدق على الوجود الغيبي، لاستحالة إحاطة العقل به، لذلك فإن «الإنسان يعرف خالقه بقدر الإمكان»[5]، وما لا يمكن معرفته بحقيقته المخصوصة عُرف بآثاره وأفعاله[6]، مما يجعــل الطريق إلى إدراك حقيقة الغيب ما تضمنه الكون من آثار الخالق ﷻ، إذ هي دلالات بيّنة لمن تدبّــرها وتفكّــر فيها؛ «فمن الممكن للإنسان أن يطلع على بعض هذه الآيات ويتوسل بمعرفتها إلى معرفة الله»[7].

والأمــر هــنا يحتاج على سلامة العقل لكونه أساس تحصيل المسائل العقدية اليقينية، وهو ما يتجــلى في قــول الــرازي: «إن الدين الحق لا سبيل إليه إلا بالنظر، والنظر لا معنى له إلا ترتيب المقدمات، ليتوصل بها إلى نتائج... وترتيب هذه المقدمات ومعرفة صحتها يكون بضرورة العقل، مما يســتوجب القطع بأن العقل السليم لا يغلط لو لم يعرض له سبب من خارج، أي أن ما بالذات هو الصــواب، وما بالعرض هو الخطأ»[8]، لذلك يشترط مفكرنا سلامة هذه الملكة من الانحرافات التي

[1]-الرازي: التفسير الكبير، ج15، ص75.

[2]- الرازي: المصدر نفسه، ج2، ص176.

[3]-الرازي: المصدر نفسه، ج23، ص225.

[4]-الرازي: المصدر نفسه، ج29، ص211.

[5]-الرازي: المصدر نفسه، ج26، ص247.

[6]-الرازي: المصدر نفسه، ج9، ص37.

[7]-الرازي: المصدر نفسه، ج13، ص3.

[8]-الرازي: المصدر نفسه، ج6، ص12.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تلحق بها —كالتقليد واتباع الأهواء—[1]، مما يعيقه عن أداء وظيفته، إذ بلوغ اليقين يكون بالرجوع إلى ما هو بالذات فيه، باعتباره لا يخطئ إلا بعارض خارجي، مما يجعل تحصيل الحقائق الإيمانية بالنظر العقلي وليس بمجرد السماع والتقليد.

ومما يؤكد قدرة العقل الذاتية على معرفة مقدمات الاستدلال، وترتيب القضايا المبرهن عليها، أن التأكد من صحة تلك المقدمات، وصحة ترتيبها لا يُعلم إلا بالعقل، إلا أن الإنسان في كل ذلك يحتاج إلى انفتاح بصر الباطن، ذلك أن معرفة الحق والالتزام به لا يهتدي إليه إلا الفطناء، الذين ينتفعون بعقولهم، وما حصلوه من علم، أما من كان له عقل غافل، معرض عن التأمل في الحقائق الكونية بانشغاله بالوسائل عن الغايات، فإن الحق ﷻ توعده بالخسران في الدنيا والآخرة.

وهنا نجد الرازي يشبه حصيلة الفكر برأس المال[2] الذي يتاجر فيه الإنسان، فإن اهتدى إلى العقيدة الصحيحة، وتمسك بها فذلك هو الربح لرأس المال، أما إن مضى على طريق العقائد الباطلة، ولم ينتفع بما زُوّد به من أدوات المعرفة، ولا مما حصّله من علم لا شك أنه خاسر لما كُرّم به، وفُضّل به «إذ حصل الامتياز بين الإنسان وبين سائر الحيوانات في القوى العقلية والفكرية، التي تهديه لمعرفة الحق في ذاته، والخير لأجل العمل به؛ فلما أعرض الكفار عن اعتبار أحوال العقل والفكر ومعرفة الحق والعمل بالخير، كانوا كالأنعام»[3]، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[4]، أي من سمع ورأى ولم يعتبر فإنه أعمى البصيرة، إذ لا يفقه ما يتلقاه، وبما أن القلب آلة التعقل ومحلا له[5]، عليه أن يكون مستعدا لتقبل حقائق الأشياء وإدراك دلالاتها؛ لأن من أعرض عن اكتساب الفضائل العظيمة مع القدرة عليها، كان أخس حالا من العاجز عن تحصيلها.

ومن ثمة يكون الرازي قد اقتنع بكفاية العقل لإدراك الوجود الغيبي انطلاقا من التدبر في الكون، وذلك أن الحواس تنقل الصور المباشرة من العالم الخارجي إلى الدماغ، الذي يعطي لها مفهوما

(1)—الرازي: التفسير الكبير، ج16، ص77—ج26، ص226.

(2)—الرازي: المصدر نفسه، ج26، ص256.

(3)—الرازي: المصدر نفسه، ج15، ص64—ج26، ص261.

(4)—سورة الأعراف، الآية: 179.

(5)—الرازي: المصدر السابق، ج24، ص167.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ويصـــنفها ويربط بينها، كما يختزن بعضها، مما يترتب عليه سلوك خاص في ملكات العقل، في حين يحكم القلب على الصور العقلية، فيكون العقل بذلك وسيط بين الحواس والقلب.

عـــلى أن مفكـــرنا يستند في ذلك إلى الآيات القرآنية التي تربط الوعي والفهم بالقلب، منها قولـــه تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[1]، إلى جانب الأحاديث النبوية، التي منها ما ورد في أن صلاح الجسد كله متوقف على مدى صلاح القلب فيما روي عنه ﷺ: «ألا وإن في الجســـد مضـــغة إذا صـــلحت صـــلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلـــب»[2]، إضـــافة إلى اعتماده على ما تثبته الأبحاث العلمية –الطبية– في عصره، من أن موضع التعقب هو القلب[3].

وهـــذا يعني أن التعقل فعل للقلب، ومحل للمعرفة، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[4]، فالعضو المسمى قلبا وفـــؤادا هـــو موضـــع التعقل والاختيار، ومحل العلم والحياة عند الرازي، كما أن الأذن محل القوة الســـامعة، والعين محل القوة الباصرة، فلو زالت هذه الصفات عن تلك الأعضاء اختل أمر الإنسان واضطربت مصالحه[5].

فـــبالعقل والإرادة كان الإنسان مكلفا ومسؤولا عن أداء مهمته الوجودية؛ لذا الواجب عليه توظـــيف تلـــك الوســـائل المعرفية في التدبر في عناصر الكون، وسننها الموجهة لغاية واحدة، وذلك لكشف العناية الإلهية، وإدراك القدرة والحكمة المدبرة لهذا الوجود، مما يجعله يُذعن وينسجم مع تلك الحقـــائق؛ ليؤدي وظيفته –عبادة وعمارة–، إذ لو طمس القلب فلن تحركه هذه الآثار الشاهدة على الوجـــود الغـــيبي، مما يؤدي به إلى الضلال المبين، مصداقا لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى

---

(1)–سورة محمد، الآية: 24.

(2)–الرازي: التفسير الكبير، ج24، ص167.

(3)–رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه، صحيح البخاري بشرح الكرماني، ج1، ص202–205.

(4)–سورة الإسراء، الآية: 36.

(5)–الرازي: المصدر السابق، ج12، ص227 –ج24، ص168.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1].

وهكـــذا كانت دعوة الرازي إلى إعمال النظر وتسخير كل الطاقات في سبيل الحصول على المعـــرفة الحقيقـــية، والوصـــول إلى اليقين، موضحا وسائل إدراك ذلك من التدبر في الآفاق، وطرق تحصيله على نحو ما أشرنا إليه كقاعدة في منهجه الاستدلالي، الذي تتحد فيه مختلف طرق المعرفة.

وبهـــذا نكون قد بينا المنطلقات التي دفعت الرازي إلى الاهتمام بالآيات الكونية، والأسس الـــتي بنى عليها منهجه في الاستدلال بها على الحقائق الإيمانية، والتي تعد بمثابة الضوابط المحددة لكيفية التعامل مع هذه الآيات، إذ ما يمكن قوله أن الوحي الإلهي يعد المصدر الذي استلهم منه مفكرنا تلك المقدمـــات المنهجية في استدلاله بالآيات الكونية؛ لذلك لم يكن توظيفه لمختلف العلوم الكونية على وجه الاستكثار والاستطراد كما قد يعتقد، إنما كان عمله وفق منهجية علمية متميزة في عصره.

وإذا كان وجود الآيات الكونية في الذكر الحكيم لا مجال للشك فيه، فإن الاختلاف حصل في كيفـــية التعامل مع هذه الآيات، وتحديد الدلالات التي وردت من أجلها، رغم أن ذلك كما يبدو منشؤه عدم التفريق بين كل من التفسير العلمي والإعجاز العلمي، وبين البناء العلمي للاعتقاد.

فالتفســـير العـــلمي هو محاولة فهم مضمون الآية القرآنية في ضوء ما أثبته العلم، أين يتم فيه توســـيع مدلول النص القرآني، وفيه لا بد من توظيف الحقائق الكونية الثابتة المتوفرة، لكن يبقى هذا العمـــل جهـــدا بشـــريا، واجتهادا يحتمل الخطأ كما يحتمل الصواب، بناء على ثبات النتائج العلمية المـــتاحة، في حين لابد في الإعجاز العلمي من توظيف الحقائق العلمية،لكونه يتعلق بكشف سر من أســـرار الوحي الإلهي،من حيث تضمنه لحقائق لم يكن بإمكان الإنسان معرفتها وقت نزوله، مما يدل عـــلى مصـــدره الإلهي، ومنه فالإعجاز هنا موقف تحد يحتاج إلى حقائق علمية لا مجال للشك فيها، فتكون بذلك دائرة الإعجاز أوسع من التفسير.

أمـــا الاستدلال العلمي، فهو يعتمد على توظيف الحقائق العلمية للبرهنة على صدق الحقائق الإيمانـــية، وتكـــون فـــيه الأدلة قائمة على معطيات العلوم، إذ تؤخذ منها الحقائق لتوظف في طرق الاســـتدلال[2]، ذلك أن علم العقيدة يستثمر المعارف العلمية وفق ضوابط التعامل مع نتائجها المتغيرة

---

[1]-سورة الحج، الآية: 46.

[2]-عبد الرحمن بن زيد الزنيدي: مناهج البحث في العقيدة الإسلامية في العصر الحاضر، ص158-159.

-أحمد عمر أبو حجر: التفسير العلمي في الميزان، ص66.

تحصيلا وتوظيفا، ليستخدمها في التدليل على أصول الدين إثباتا، وفي نفي ما يرد حولها من شبه. ولا إشكال في البناء العلمي للاعتقاد، لأن أصوله ثابتة يقينا، وذلك لثبات ويقينية مصدرها الإلهي، مما يجعلها مستحيلة الخضوع لما قد يطرأ على نتائج العلوم من تغير.

ولعلّ عدم التفريق بين هذه المجالات هو الذي دفع البعض إلى تعقُّب الرازي في تفسيره، مستنكرين عليه توظيفه للعلوم الكونية، مما يوحي بعدم فهم غايته من توظيفها، إذ لم يكن التفسير العلمي مقصوده بالذات من تأليفه "مفاتيح الغيب"، كما لم يكن بيان الإعجاز العلمي للقرآن الكريم ديدنه فيه، إنما أتى بتلك المباحث الكونية، للانطلاق منها كحقائق في الاستدلال على الحقائق الإيمانية بيانا وإثباتا لها، أو دفاعا عنها.

إضافة إلى تجنبه التكلف في فهم النص القرآني، إذ لا نجده يقصر معناه على فهم محدد، كما لا يربط شرح الآيات ومضامينها بنظريات معينة، مع إقراره بالثبات النسبي لما يورده من معارف كونية، الأمر الذي يفسر رفضه الأخذ بدليل "بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول"[1]، ذلك لأن الكثير من نتائج العلوم ليس لها صفة الثبات، كما أن حقائقها غير مطلقة، فإذا تبين أن منها ما تغير، وثبت عدم صلاحيتها، فإن بطلان الدليل القائم عليها لا يؤدي إلى بطلان المدلول، المتمثل في الحقائق الإيمانية الصحيحة يقينا، التي تبقى ثابتة ثبات مصدرها، رغم ما قد يلحق الحقائق العلمية من تغير؛ لأن هذه المعارف توظف في البناء العلمي للاعتقاد كأدلة.

ومن ثمة فبطلان الدليل لا يمكن أن يؤدي إلى بطلان المدلول، عكس ما هو عليه في التفسير العلمي والإعجاز العلمي، أين يرتبط فيهما مضمون النص القرآني بالحقائق العلمية، مما قد ينجر عنه الطعن في صحة النص أو في صدق مصدريته.

ومما يعطي المصداقية للمقدمات المنهجية في الاستدلال بالآيات الكونية عند الرازي، ويبرز أهميتها، أن منها ما أصبح من الشروط التي يجب أن يعتد بها الناظر في كتاب الله، بل يجب أن تتوفر في المفسر، إذ لا بد «لمن يريد تفسير القرآن في عصرنا أن يكون ملما بمبادئ العلوم الكونية،

---

[1]- الرازي: أصول الدين، مراجعة وتقديم: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، (د.ط)، د.ت، ص66.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ليستخدمها في بيان معاني القرآن، وإلا كان التفسير قاصرا عن اللحاق بالعصر وأهله»[1].

كما نجدها من أهم أسس منهج علم العقيدة المعاصر، فمما سعى إلى تحقيقه القائمين على هذا العلم دعوتهم إلى تجديد الفكر العقدي وفق متطلبات العصر، التي في مقدمتها العقلية العلمية، مما يستوجب توظيف العلوم الكونية في إثبات الحقائق الإيمانية والدفاع عنها، فكان إدراج المنهج العلمي ضمن ما يعتمد عليه علماء العقيدة في استدلالاتهم، إيمانا منهم بضرورة مواجهة التحديات المعاصرة بأساليب ووسائل في المستوى، لذلك وضعوا ضوابط وأسس لتوظيف نتائج العلوم وما يتفق مع الأسس القرآنية في الاستدلال والعقيدة الإسلامية، فكان عملهم قائم على:

-أن الأدلة العلمية هي أدلة تأخذ حكم الأدلة العقلية، ومنه فالدليل الظني هو نتيجة النظرية العلمية، أما الدليل القطعي فهو ثمرة الحقيقة العلمية.

-المقصد الأساسي من توظيف نتائج العلوم، أن تكون دليلا عقليا للناس على حقائق الإيمان.

-ضرورة الجمع بين العلوم الكونية وعلوم الشريعة، لكون «ضياء القلب هو العلوم الدينية، ونور العقل هو العلوم الحديثة، وبامتزاجهما تتجلى الحقيقة فتتربى همة الطالب وتعلو بكلا الجناحين، وبافتراقهما يتولد التعصب في الأولى، والحيل والشبهات في الثانية»[2].

ولكي يتمكن علم العقيدة من القيام بدوره، ينبغي تدوين آيات الآفاق، وذلك بالاستفادة من مقررات العلم، ذلك أن القرآن الكريم يستخدم هذه الآيات كدلائل إيمانية، لذلك فإن «العلوم الطبيعية قد أصبحت علم الكلام الإسلامي، ولم يبق علينا إلا تدوينها، والحاجة تقتضي تدوين آيات الله الكامنة في خلقه، وكونه باستخدام الاكتشافات العلمية الحديثة»[3].

---

(1)-يوسف القرضاوي: كيف نتعامل مع القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة- بيروت، ط2، 1420هـ-2000م، ص380.

(2)-بديع الزمان النورسي: صيقل الإسلام، ترجمة: إحسان الصالحي، دار سوزلر للنشر، اسطنبول، (د.ط)، 1995، ص 428.

(3)-وحيد الدين خان: تجديد علوم الدين، ترجمة: ظفر الإسلام خان، دار الصحوة للنشر، القاهرة، ط1، 1406هـ-1986م، ص70.

-وحيد الدين خان: قضية البعث الإسلامي، ترجمة: محسن عثمان الندوي، دار الصحوة للنشر، القاهرة، ط1، 1984، ص105.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والواقـع أننا نجد أن توظيف العلوم الكونية كانت ولا تزال ضرورية لدى المسلمين، وذلك نظـرا لأهميـتها سواء في تفسير آي الذكر الحكيم، أو في إثبات الحقائق الإيمانية، لكن في كل ذلك تحـتاج إلى ضـوابط منهجية، لذلك لا بد من الوعي في مجال العلاقة بين تلك المعارف وبين الوحي الإلهـي، بحقـيقة كـل من الإعجاز العلمي للقرآن الكريم والتفسير العلمي له، وبين البناء العلمي للاعتقاد.

وبعـد أن عرفنا موقف الرازي من الآيات الكونية من خلال المقدمات المنهجية في استدلاله بها، وأهميتها في إثبات أصول الدين، بقي توضيح دلالة تلك الآيات على حقائق الإيمان، وكون عقيدة البعث النموذج المختار في الجانب التطبيقي لهذا المنهج، لما تكتسيه من أهمية في حياة الإنسان، فكيف وظف الرازي الآيات الكونية لإثباتها؟ وما هي طرق الاستدلال عليها؟

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الرابع:

طرق الاستدلال بالآيات الكونية عند الرازي على عقيدة البعث

المبحث الأول: حقيقة عقيدة البعث

المبحث الثاني : طريـــق الخلـــق

المبحث الثالث : طريق الإحكام والإتقان

المبحث الرابع: طريق الهداية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمهيد

تعـــد عقيدة البعث من المسائل المعتبرة في صحة الدين الإسلامي، إذ تشكل إلى جانب عقيدة التوحيد، أهم أركان ديننا الحنيف، والبحث في قضية البعث إما أن يكون عن إمكانها أو عن وقوعها؛ فوقوعهـــا لا سبيل إلى إثباته إلا بالوحي الإلهي، أما إمكانها فيجوز إثباته بالنقل وبالعقل، وتمثل آيات الآفاق قاعدة أساسية في تقرير ذلك.

وإذا كان الاستدلال بالآيات الكونية يعتمد على النظر في الفعل المعجز والتدبير المحكم، الذي يقـــود العقـــل إلى الإقرار بالحقائق الإيمانية، وذلك بالتفكر في مختلف الظواهر الكونية؛ لإدراك آثار القـــدرة الإلهية، فإن جانبا كبيرا من آي الذكر الحكيم جاء متحدثا عن خلق عناصر الكون، عارضا على العقول نظامها المحكم، إضافة إلى تلك الحكمة البالغة في توجيه المخلوقات إلى غاياتها.

فكانـــت بذلك دعوة القرآن الكريم إلى الإيمان مبنية –من هذا الجانب- على التأمل في هذه الآيـــات المشهودة، التي مثلت مبدأ قرآنيا في المعرفة، مما أدى بالرازي إلى اعتمادها في الاستدلال على أصـــول الدين، معتبرا إياها من أقوى الأدلة وأظهرها، إذ اليقين حاصل بإدراك ما تضمنته من دلائل القدرة العظيمة والعلم الواسع لموجدها.

وقـــد جـــاء هذا النوع من الاستدلال الذي عرف بالعلمي، عند مفكرنا في "تفسيره الكبير" عـــلى هيـــئة ثـــلاث طرق، تضمنت النظر إلى عناصر الافاق م جوانب مختلفة، شمل فيها كل طريق مجموعـــة مـــن الأدلـــة، ولما كانت عقيدة البعث هي النموذج المختار لتطبيق طرق الاستدلال بتلك الايات في منهج الرازي؛ فإننا قبل عرض هذه الطرق بدلائلها المتعددة، لا بد من الوقوف عند حقيقة البعث وما جاء عنها في الوحي الإلهي.

المبحث الأول: حقيقة عقيدة البعث

المطلب الأول: مفهوم البعث

أولا: لغـــــة:

البعـــث مصدر الفعل الثلاثي "بعث"، يقال: بعث، يبعث، بعثا؛ بمعنى أرسل، وبعث به معناه أرسله مع غيره، ومنه ابتعثه أي أرسله فانبعث، فبعيثك إلى القوم هو مبعوثك الذي أرسلته إليهم.

كما يقال: انبعث فلان لشأنه، إذا ثار ومضى لقضاء حاجته.

والجمع من "البعث" أبعاث، وبعوث، فالبعوث هي الجيوش، تقول: كنت في بعث فلان أي في جيشه.

ولفـــظ "البعـــث" لـــه معان متعددة لكنها في كلام العرب تأتي على وجهين[1]، أحدهما: الإرســـال، ومنه المبعوث هو المرسول، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾[2]، أي أرسلنا، فيكون معنى البعث الإرسال، فإذا قيل السلطان بعث فلانا فيهم أي أرسله إلى القوم لإصلاح مهماتهم[3].

أمـــا المعنى الآخر الذي يحمله اللفظ، فهو إثارة بارك أو قاعد، يقال بعثت البعير فانبعث إذا أثرته فثار[4]، وهو ضد الإجلاس، إذ يقال: بعثت النازل والقاعد فانبعث[5].

هذا على أننا نجد اللفظ في القرآن الكريم قد ورد بصيغ متعددة –سبع وستين مرة–، وبمعاني مختلفة يمكن إجمالها في:

-البعـــث بمعنى الإحياء في الدنيا لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[6]، أي أحييناكم بعد أن كنتم أمواتا.

---

(1)-ابن منظور: لسان العرب، ج1، ص307.

(2)-سورة يونس، الآية: 75.

(3)-الرازي: التفسير الكبير، ج21، ص32.

(4)-أيوب بن موسى الحسيني: الكليات، ص244.

(5)-الرازي، المصدر السابق، ج21، ص32.

(6)- سورة البقرة، الآية: 56.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-البعث بمعنى الإلهام، قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾[1].

-البعث بمعنى التسليط لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾[2].

-البعث بمعنى التعيين، لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ﴾[3].

-البعث بمعنى الإرسال لقوله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا﴾[4].

-البعث بمعنى اليقظة من النوم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[5].

-البعث بمعنى إخراج من في القبور، لقوله تعالى: ﴿...وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾[6].

-البعث بمعنى الآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[7]، إذ يسمى يوم القيامة بيوم البعث، وذلك أن أهم حدث فيه هو بعث الناس من قبورهم أحياء.

والملاحظ أن هذه المعاني اختلفت بناء على اختلاف صور المبعوثات[8]، بل ويختلف اللفظ باختلاف ما علق به، وبذلك فهو نوعان: بعث بشري، كبعث البعير، أي إقامتها من مكانها، وبعث الإنسان في مهمة، بمعنى إرساله، ومن ثمة فهو فعل إنساني.

وبعث إلهي وهو نوعان: إيجاد الأعيان والأنواع، إذ يختص به الباري ﷻ، فلم ولن يقدر عليه

---

(1)-سورة المائدة، الآية: 31.

(2)-سورة الإسراء، الآية: 5.

(3)-سورة النساء، الآية: 35.

(4)-سورة الجمعة، الآية: 2.

(5)- سورة الأنعام، الآية: 60.

(6)-سورة الحج، الآية: 7

(7)-سورة الروم، الآية: 56.

(8)-محمد جمال الدين القاسمي: محاسن التأويل، تصحيح: فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ط2، 1978، ج1، ص129.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أحد، إضافة إلى إحياء الموتى، وإن خص به بعض أوليائه، كالنبي عيسى عليه السلام[1]، إلا أنه بتكليف منه سبحانه وتعالى.

ثانيا: اصطلاحـــا:

يطلق البعث (Ressurrection) في الاصطلاح ويراد به الإحياء والإرسال، فإذا كان يتعلق بالميت فهو تحريك الساكن وإحيائه بإرسال الروح فيه، وإخراجه من حالته التي هو فيها، أما إذا تعلق بحي، فمعناه إثارة خامل، وإرساله من المكان الذي هو فيه، ومن الحال الذي هو عليه.

وأغلـــب مـــا قصد به في القرآن الكريم، إحياء الموتى –في ثماني وثلاثين موضعا–؛ أي عودة الإنسان إلى الحياة مرة أخرى بعد الفناء، والذي هو ركن من أركان أصول الدين.

فعقيدة البعث إذن هي الإيمان بعودة الحياة إلى الأموات، وإعادة الإنسان روحا وجسدا كما كـــان في الحياة الدنيا، إذ يخرج الله الناس من الأجداث أحياء[2]، فيقول الكفار منهم ﴿قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَـنْ بَعَثَـنَا مِـنْ مَرْقَدِنَا﴾[3]، ويقـــول المؤمنون منهم: ﴿...هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾[4].

ومـــن ثمة فالبعث يكون بالإخراج والإحياء، ويطلق بالاشتراك على الجسماني، بإخراج الله سبحانه وتعالى بدن الإنسان بعد موته من القبر، وعلى الروحاني بإعادة الأرواح إلى أبدانها؛ لذلك فهـــو يوم قيام الناس لرب العالمين، الأمر الذي صعب على الكافرين تصديقه ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـانِهِمْ لَـا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾[5]؛ أي أنهم أقسموا بأغلظ الأيمان بأن الله لا يحيي الموتى، في حين إبليس ﴿قَـالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[6]؛ أي إلى وقت قيام الناس من قبورهم، إذ البعث

---

(1)–الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن الكريم، ص50.

(2)–محمـــد نعـــيم ياســـين: الإيمان، أركانه، حقيقته، ونواقضه، مكتبة الفلاح، الكويت، ط1، 1403هـــ–1983م، ص125

(3)–سورة يس، الآية: 52.

(4)– سورة يس ، الآية: 52.

(5)–سورة النحل، الآية: 38

(6)–سورة الأعراف، الآية: 14.

هو وقت النفخة الثانية[1]، التي بها يقوم الناس ويتم النشر.

ويوم القيامة سمي يوم البعث، لأن الناس يبعثون من قبورهم كما كانوا في أول الخلق، ويبدو أن "البعث" أبلغ في التعبير عن ذلك، إذ يورد الرازي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾[2]، فلم يقل: ثم أحياه؛ لأن قوله تعالى: ﴿ثم بعثه﴾، يدل على أنه عاد كما كان من قبل، حيا عاقلا، فهما مستعدا للنظر والاستدلال في المعارف الإلهية، إذ لو قال: (ثم أحياه)، لم تحصل هذه الفوائد[3]؛ أي قد يفهم أن إحياءه قد لا يكون كما كان أولا.

هذا، وقد وردت أسماء كثيرة لعقيدة البعث[4]، التي عليها يقوم الإيمان باليوم الآخر، وهي في مجملها تؤكد عظم أمرها، وتدل على حقيقتها، إذ جاءت بوصف دقيق لها، فهي النشأة الأخرى وذلك مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى﴾[5]، أي النشأة الثانية بعد تلك التي كانت قبل الموت، هذه النشأة التي تكون بإرسال الناس وجمعهم كافة؛ لذلك عرف هذا اليوم بيوم الحشر، إذ تجمع الأجزاء بعضها إلى بعض، كما تجمع الأرواح والأبدان[6]، الأمر الذي يؤكده قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾[7]، أي لإلى الله تجمعون، وترجعون لا إلى غيره، إذ إليه معاده، وحقيقة العود –الذي هو من أسماء البعث– توجه الشيء إلى ما كان عليه[8]، بمعنى عودة الإنسان في ذلك اليوم إلى ما كان عليه قبل الموت.

على أن الأسماء التي أطلقها القرآن الكريم على عقيدة البعث كثيرة ومختلفة –وإن اقتصرنا

---

(1)–الرازي: التفسير الكبير، ج14، ص36.

(2)–سورة البقرة، الآية: 259.

(3)–الرازي: المصدر السابق، ج7، ص32.

(4)–للوقوف على ذلك، انظر: القرطبي: التذكرة في أحوال الموتى والآخرة، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، (د.ط)، (د.ت)، ص216.

– عمر سليمان الأشقر: اليوم الآخر، القيامة الكبرى، قصر الكتاب، البليدة، (د.ط)، (د.ت)، ص20.

(5)–سورة النجم، الآية: 47

(6)–الرازي: المصدر السابق، ج28، ص190.

(7)–سورة آل عمران، الآية: 158.

(8)–الرازي: المصدر السابق، ج9، ص60.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

على إيراد بعضها-، فهي تحمل معنا واحدا، وهو إعادة الحياة إلى أجساد الموتى، وحشرهم يوم القيامة للفصل والقضاء؛ لقوله تعالى: ﴿...قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾[1]، بغية الحساب والجزاء.

ومهما كان الاختلاف حول طبيعة البعث، هل هو إعادة بعد إفناء وإيجاد بعد عدم، أو هو جمع بعد تفريق الأجزاء، فإن المتفق عليه أنه حقيقة لا ريب فيها، يجب الإيمان بها -إلا من أبى جاحدا لها-، وهو أمر كائن متعلق بإرادة الله سبحانه وتعالى، لا يعلم وقته إلا هو؛ أين يخرج الخلق جميعهم من القبور، لحكمة في ذلك لا بد من بيانها نظرا لأهميتها.

المطلب الثاني: عقيدة البعث في القرآن الكريم

ترتبط حياة الإنسان ارتباطا وثيقا بفترة محددة، تكون الموت النهاية الحتمية لها، وهي الحقيقة التي لا يمكن إنكارها، مع أنها لا تزال لغزا عند الكثير من المجتمعات البشرية.

ويُعدّ الإنسان الكائن الوحيد الذي يترع فطريا لاستطلاع عالم الغيب؛ لذلك ليس غريبا أن يكون التأمل في سر الحياة، وأصل الوجود ومصيره من القضايا التي سعى إلى إدراك حقيقتها، فكان البحث في إمكانية الخلود بدل العدم من الأمور المتمسك بها، كحل لتحقيق رغبته في البقاء.

لذلك جاء التعبير عن رفض فكرة الموت هي النهاية للوجود الإنساني، وكان الرجاء في عودة الحياة بعد الموت بأساليب مختلفة في الفكر البشري؛ ليأتي دور الديانات السماوية كاشفا عن حقيقة ما ناشده الإنسان، الذي لم يكن له الدليل ليطمئن إليه؛ فكان اليقين متضمنا فيما أخبر به الوحي الإلهي عن حياة الاخرة.

ومنه كانت عقيدة البعث من الأصول الإيمانية للديانات السماوية، دليله أن أتباعها يؤمنون بالاخرة، مع اختلاف في المفاهيم والتصورات -نتيجة لما لحق بعضها من تحريف-، وبذلك لم تدع العناية الإلهية حامل أمانة الاستخلاف حائرا في البحث عن حقيقة مصيره، فترل عليه ما يجيب عما يشغله من أسئلة.

وكون الإسلام خاتم تلك الديانات، بل الوحي المحفوظ إلى يوم الدين؛ فإنه يغني في معرفة حقيقة هذه العقيدة؛ لذلك بتتبعنا للايات القرآنية، التي تحدثت عن عقيدة البعث، والموضحة للتصور

---

[1] -سورة التغابن، الآية: 7.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإسلامي لها يمكن تصنيفها في ثلاث نقاط:

-**الصنف الأول:** وتناول التعريف بعقيدة البعث، باعتبارها ركن هام في الدين الإسلامي، وتجمع الآيات القرآنية التي تحدثت عن هذا المعتقد، أن المقصود به إحياء الناس بعد موتهم، وإخراجهم من القبور مصداقا لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾[1]، مبينة بذلك مصير الإنسان، إذ تكون نهايته بالعودة إلى الله، فهو الذي ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[2]، إذ المرجع ليس إلا له سبحانه وتعالى، كما جاء في قوله جل جلاله: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾[3]، حيث لا مالك سواه ﷻ.

أما وقت حصول ذلك فهو غير معلوم، مصداقا لقوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ. مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ. مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ. ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ. ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ. ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾[4]، إشعارا بوقته غير المعلوم لدى الإنسان، لكونه من الغيبيات التي أخبر عنها الخالق جل جلاله في محكم تنزيله، فالإيمان بوقوعها واجب، أما العلم بتفصيلها متى تكون فغير واجب[5]؛ لهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾[6]، ومن رحمته ولطفه سبحانه وتعالى بعباده، أنه لم يطلعهم على وقت حدوث البعث، وإلا لكان أمره شاغلا للإنسان عن أداء وظيفته في هذا الوجود، القائمة على كل من العبادة والعمارة.

لكن ذلك لم يمنع من وصف القرآن الكريم للأهوال والمشاهد الكونية التي تسبق البعث، كزلزلة الأرض، نسف الجبال، تكوير الشمس، تفجير البحار، وتناثر النجوم، وغيرها من الأحداث التي ستقع في آخر يوم من هذا الوجود، إذ يقول تعالى في محكم تنزيله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ. لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ. خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ. إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا. وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا. فَكَانَتْ هَبَاءً

---

(1)-سورة الحج، الآيتان: 6-7.

(2)-سورة التغابن، الآية: 3.

(3)-سورة العلق، الآية: 8.

(4)-سورة عبس، الآيات: 17-22.

(5)-الرازي: التفسير الكبير، ج25، ص168.

(6)- سورة لقمان، الآية: 31.

جمعية عبد القادر للعلوم الإسلامية

مُنْبَثًّا﴾[1]، كما قال جل جلاله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ. وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً. فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ. وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾[2]، وقال أيضا: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ. وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ. وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ. وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾[3]، وغيرها من الآيات المفصلة لهذه الأحوال العظيمة، التي سيختتم بها الوجود الكوني، بتخريب كل شيء عُرف فيه، وحينها يكون البعث، مصداقا لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[4].

كما تضمن الوحي الإلهي إخبار عن كيفية وقوع البعث، وذلك في ايات عديدة منه، إذ تكون البداية بالنفخة الأولى، التي يموت بها كل شيء، ثم النفخة الثانية التي فيها يتم الإحياء، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[5]، وهكذا يكون الإحياء بعد الموت، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ. قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ. إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾[6]، وهي من صور بعث الناس من قبورهم لله رب العالمين، الذي يقول مخبرا عن حالتهم وقتها ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ. مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾[7].

ونظرا لأهمية الإيمان بالبعث، فإنه كثيرا ما ربطه الوحي الإلهي بالإيمان بالله ﷻ، من ذلك قوله تعالى: ﴿...مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[8]، إذ الإيمان بالبعث يدل على الإيمان بالله ﷻ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا

---

[1] -سورة الواقعة، الآيات: 1-6.

[2] -سورة الحاقة، الآيات: 13-16.

[3] -سورة الانفطار، الآيات: 1-4.

[4] -سورة إبراهيم، الآية: 48.

[5] -سورة الزمر، الآية: 68.

[6] -سورة يس، الآيات: 51-53

[7] -سورة القمر، الآيتان: 7-8.

[8] -سورة البقرة، الآية: 232.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾[1]، وما أكثر الآيات التي ورد فيها ذلك الربط، سواء في مجال الوعد الكريم، أو في مجال الوعيد والتنديد، والتي منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2]، كما قال جل جلاله: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾[3]، بل حكم في أمر الكافر بهما بقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[4].

فالوجود الحقيقي إذن لا يقتصر على عالم الشهادة فحسب، بل هو الدنيا والآخرة، الأمر الذي يقرره ذلك الربط بين كل من عالمي الدنيا والآخرة في الكثير من الآيات، إذ تعتبر الحياة الأولى من غير الإيمان بالآخرة، والعمل لأجلها ضرب من العبث، وهذا ما ينبه إليه قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[5]، مؤكدا أهمية الإيمان بالبعث بعقد موازنة بين الحياتين الدنيوية والأخروية بقوله جل جلاله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[6]، والمقصود من ذلك تحقير حال الدنيا وتعظيم الآخرة؛ لكون الأولى لعب ولهو وزينة وتفاخر، فهي مؤقتة وناقصة، أما الآخرة فهي عذاب دائم للكافر، ورضوان الله على الدوام للمتقي، بحكم أنها سرمدية، ولا شك أن أمرها عظيم[7].

وكل ما كان خير فهو الأفضل ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[8]، لذلك فهي آثر من الدنيا؛ لكونها باقية مشتملة على السعادات الجسمانية والروحانية، أما الدنيا فهي فانية، مخلوطة بالآلام، مما

---

[1]-سورة البقرة، الآية: 8.

[2]-سورة البقرة، الآية: 62.

[3]-سورة النساء، الآية: 38.

[4]-سورة التوبة، الآية: 29.

[5]- سورة الحديد، الآية: 20.

[6]-سورة الأنعام، الآية: 32.

[7]-الرازي: التفسير الكبير، ج29، ص232-233.

[8]-سورة الأعلى، الآية: 17.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يرغب في الآخرة[1].

ولما كان المقصود من خلق هذه الموجودات إظهار العدل والرحمة، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[2]، كما أن حصول البعث ضروري ليتم فيه ذلك، بحصول التفاوت في الدرجات والدركات بين كل من المحقين والمبطلين[3]، وهي الحكمة من البعث.

ذلك أن السر الذي تحمله هذه العقيدة، هو الإخبار بما عمله الإنسان في حياته الأولى؛ لقوله تعالى: ﴿... قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾[4]، مما يدل على أن الغاية من البعث الحساب والجزاء، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾[5]، للتفريق بين المحسن والمسيء، والمطيع والعاصي، مما لا يظهر إلا يوم الجزاء كما قال سبحانه وتعالى: ﴿... لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾[6]، إذ بالبعث يكون لقاء الخالق جل جلاله، حتى تحاسب كل نفس عن سعيها، وللفصل بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون، «واعلم أن من سلط الظالم على المظلوم، ثم إنه لا ينتقم منه، فذاك إما للعجز أو للجهل، أو لكونه راضيا بذلك الظلم، وهذه الصفات الثلاث على الله تعالى محال، فوجب أن ينتقم للمظلومين من الظالمين، ولما لم يحصل هذا الانتقام في الدنيا، وجب أن يحصل في دار الآخرة»[7]، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[8].

فليس من العدل الإلهي التسوية بين العاصي والمطيع، الأمر الذي يؤكده قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[9]،

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1)-الرازي: التفسير الكبير، ج31، ص148.

(2)-سورة الجاثية، الآية: 22.

(3)-الرازي: المصدر السابق، ج27، ص269.

(4)-سورة التغابن، الآية: 7.

(5)-سورة الغاشية، الآيتان: 25-26.

(6) سورة النجم، الآية: 31.

(7)-الرازي: المصدر السابق، ج1، ص236

(8)-سورة الزلزلة، الآيتان: 7_8.

(9)-سورة ص، الآية: 28.

إذ اقتضت عدالة الله تعالى مكافأة المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، لأن الحكمة من خلق الإنسان في أحسن تقويم، وتسخير له كل المخلوقات، ليس للمتعة فحسب، وإنما لأداء وظيفته الوجودية على أكمل وجه، والتي سيسأل عنها بعد موته، وذلك ببعثه لقوله تعالى: ﴿...ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1]، إن خيرا فمأواها الجنة، وإن شرا فمصيرها النار.

ومن ثمة فوقوع البعث وعد حق على الخالق ﷻ، الذي ﴿...كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2]، وكونه وعدا حقا عليه تعالى؛ للتمييز بين كل من المطيع والعاصي، وبين المحق والمبطل، وبين الظالم والمظلوم، وهي الغاية من بعث الموتى.

-**الصنف الثاني**: تمثله تلك الآيات القرآنية التي تناولت أقوال المكذبين بعقيدة البعث، والذين كان إنكارهم إما تكذيبا قطعيا أو شكا مريبا، محاولين بشبههم إثبات استحالة عودة الموتى، إذ ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾[3]، بل ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾[4]، ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[5].

وتُجمع آيات الذكر الحكيم على أن أساس إنكار هؤلاء للمعاد، اعتقادهم باستحالته، مما أدى هم إلى استبعاد حصوله، وتكرر منهم ذلك في أربعة عشر موضعا من القرآن الكريم، بأساليب متنوعة، حيث يتكرر السؤال نفسه في كل مرة، هل إعادة إحياء الإنسان بعد أن يفنى ويصير ترابا أمر ممكن الوقوع؟

ليأتي جوابهم تأكيدا لاستحالة وقوع ذلك، مستندين إلى حجج، بنوا عليها استبعادهم حصول البعث، والتي تتمثل في أمرين، أولهما: اعتقادهم أن المؤثر في حدوث بدن الإنسان هو امتزاج

---

(1)-سورة آل عمران، الآية: 161.

(2)-سورة الأنعام، الآية: 12.

(3)-سورة التغابن، الآية: 7.

(4)-سوره سبأ، الآية: 3.

(5)- سورة الجاثية، الآية: 24.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الطبائع، منكرين أن يكون المؤثر في ذلك قادرا مختارا[1]، إذ ﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ. أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً. قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾[2]، بل ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾[3]، أي أن الإنسان بعد أن يصير أجزاء مفتتة ورميما، يستبعد أن يعود هو بعينه كما كان من قبل الموت، ذلك لتفرق العناصر المكونة له، وتحللها مما يجعل من إعادة تركيبها وإحيائها أمر مستبعد التحقق، ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾[4]، ومنه فالبعث غير ممكن الحصول في نفسه[5]، نتيجة لتحلل الأجساد واختلاطها بالتراب على حسب اعتقادهم.

ويستبعد في نظرهم وجود قوة قادرة على إعادة تركيب ما تفرق من تلك العناصر، وإحياء الموتى، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ. إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾[6]، فأبوا إلا الجحود لحقيقة البعث، والكفر بها ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾[7]، بل ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾[8]، مدّعين العلم بأن الشيء إذا صار عدما محضا، ونفيا صرفا، لا يمكن عودته، وإن حصل الأمر فهو غير ما كان من قبل، تأكيدا منهم على أن العودة بعد العدم محال في بديهة العقل؛ «لأنهم كانوا قد ألفوا المحسوسات، فاستبعدوا حصول الحياة بعد الموت، ولم يتقرر ذلك في قلوبهم، فظنوا أن ما أخبروا به ووعدوه هو على سبيل الكذب»[9].

أما الأمر الثاني الذي اعتمدوا عليه في إنكارهم لحقيقة البعث، فهو استدلالهم بالمشاهدة الحسية، التي ترفض كل أنواع الغيب؛ لخروج الأمر عن نطاق اليقين، مقرين بأنه لا توجد حقيقة

---

(1)-الرازي: التفسير الكبير، ج12، ص154.
(2)-سورة النازعات، الآيات: 10-12.
(3)-سورة الإسراء، الآية: 49.
(4)-سورة الواقعة، الآية: 47.
(5)-الرازي: المصدر السابق، ج21، ص62.
(6)- سورة الدخان، الآيتان: 34-35.
(7)-سورة السجدة، الآية: 10
(8)-سورة النحل، الآية: 38.
(9)-الرازي: المصدر السابق، ج17، ص98.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ملموسة من أمر البعث، مما قد يجعله ممكن الوقوع، إذ تكرر الوعد به في أزمنة متعددة دون أن يتحقق، وهو ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ. لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[1]، أي رغم أن الوعد به كان لآبائنا، ما زلنا نسمعه، ويتردد في كل جيل، لا يرى له تحقق، إذ لم يُبعث أحد من أولئك.

لذلك نجدهم يقرون بما هو مألوف عندهم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[2]، فكان إنكارهم للبعث مبني على عدم تقبل ما هو غير مشاهد، مما لا يقدرون على تصوره، لكن حقيقة هذه الحجة التي حاولوا بها إنكار عقيدة البعث، ما هي إلا تقليدا والتزاما بما وجدوا عند آبائهم من معتقدات، والتي أبوا تغييرها سعيا للمحافظة على ما ورثوه ولو كان باطلا، مصداقا لقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ. قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ. لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[3].

ومن ثمة، فالملاحظ على ما تضمنته الآيات التي عرضت حجج وشبهات منكري البعث، أن إعراضهم عن التصديق بها، يتعلق بإنكارهم لطلاقة القدرة الإلهية، ولشمولية علمه ﷻ، إذ نجدهم لا ينكرون المعاد إلا بناء على إنكار أحد هذين الأصلين[4]، المتصلين بحقيقة الذات الإلهية، مما يؤكد ترابط القضيتين ترابطا جوهريا؛ لكون من أنكر حقيقة البعث، فقد شك في قدرة الله تعالى وعلمه. مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾[5].

-**الصنف الثالث:** وتمثله آي الذكر الحكيم التي جاءت ردا على شبه منكري عقيدة البعث، والتي قررت صدق وقوعه بدلائل متعددة، وبما يقربه إلى الأذهان والنفوس، إذ شكلت فيها حقائق

---

(1)-سورة النمل، الآيتان: 67-68.

(2)-سورة الجاثية، الآية: 24.

(3)-سورة المؤمنون، الآيات: 81-83.

(4)-الرازي: التفسير الكبير، ج23، ص10.

(5)- سورة الرعد، الآية: 5.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كل من الآفاق والأنفس إلى جانب القصص مادة ذلك الاستدلال.

فمن الآيات التي عرضت قصص الذين أماتهم الله سبحانه وتعالى، ثم أحياهم ليكونوا عبرة لكل من ينتابه ريب في حقيقة البعث، نجد قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]، وهو إخبار بأن الأمر حقيقة لا مفر منها، وقد وقع فعلا تحققه لأمم سابقة.

كما جاء تأكيد ذلك بعرض نماذج أخرى، منها ما تضمنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[2]، والمراد من ذكر هذا القصص ما يجري مجرى ضرب الأمثال في تقرير أصل عقيدة البعث[3].

وما كانت قصة أهل الكهف إلا تقريرا لأمر إمكان وقوعه، والتي جاء فيها قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ... وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾[4]، وما هذه الاستشهادات إلا ردا على من اعتقد أن البعث وعد، كما لم يتحقق مع الآباء لن يتحقق أبدا، إذ تؤكد هذه الأخبار أن من سلف من الأقوام فيهم من بُعث؛ ليكون دليلا على قدرة الله جل جلاله على تحقيق ما وعد به عباده، مصداقا لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ. لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾[5].

---

(1)-سورة البقرة، الآية: 259.

(2)-سورة البقرة، الآية: 243.

(3)-الرازي: التفسير الكبير، ج28، ص34.

(4)-سورة الكهف، الآيات: 19-21.

(5)- سورة الواقعة، الآيتان: 49-50.

أما إثبات البعث بدلائل الآفاق والأنفس فمداره على أصول ثلاثة، أحدها أنه تعالى قادر على كل الممكنات، ثانيها أنه تعالى عالم بجميع المعلومات من الكليات والجزئيات، وثالثها أن كل ما كان ممكن الحصول في بعض الأوقات كان ممكن الحصول في سائرها؛ فإذا ثبتت هذه الأصول ثبت القول بإمكان البعث[1].

وتكمـــن دلالة الآفاق والأنفس على البعث، في أن الإنسان إذا تأمل في نفسه وما حوله من العناصـــر الكونية، وتدبر فيها، تأكد من أن ما وُعد به حق لا ريب فيه، ذلك أن الإعادة في نفسها ممكنة، ويكفي النظر في خلق الإنسان، الذي لم يكن شيئا مذكورا، فما من شك أن هذا الكائن الحي موجود بالفعل، وبديهة أن الوقوع فرع الإمكان[2]، إذ لو كان ممتنعا لما وُجد.

وبما أن وجوده ممكنا في المرة الأولى، فإيجاده بعد الموت يكون ممكنا بالضرورة، لأن كل عاقل يعلم أن من قدر على الفعل بداية، قادر على إعادته، وإنه لو كان العجز في إعادته وارد، لكان العجز عـــنه ابـــتداء أولى، مصـــداقا لقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[3]، و﴿... الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[4]، وذلك ردا على من سأل ﴿...مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[5].

فالبعث ممكن الوقوع، لأن تركب الأجزاء –في الجسم– على الشكل المخصوص ممكن، وإلا لمـــا وُجد أولا، واحتمال تلك الأجزاء للحياة ليس بالمستحيل، وإلا لما حدث ذلك أولا، وثبوت هذا دليل على إمكان وقوع البعث، أما تعلق الروح بالجسد فهو أمر وارد، إذ لو لم يكن ممكنا في نفسه لما وقـــع أولا، والله تعالى قادر على كل شيء؛ لذلك لا يُعجزه إعادة الموتى أحياء، وما هذه الدلائل إلا يقينا ظاهرا[6].

وكون الصادق جل جلاله أخبر عن وقوع ما ثبت في العقل إمكان وقوعه، وجب القطع به،

---

(1)–الرازي: التفسير الكبير، ج21، ص113.

(2)–محمد جواد مغنية: فلسفة المبدأ والمعاد، دار الجواد، (د.م)، ط4، 1982-1983، ص119.

(3)–سورة يس، الآية: 79.

(4)–سورة الإسراء، الآية: 51.

(5)–سورة يس، الآية: 78.

(6)– الرازي: المصدر السابق، ج6، ص164-ج28، ص34.

ذلك أن تلك الأجسام بعد موتها وتفرقها؛ فهي قابلة لتلك الصفات التي فقدتها بعد تحللها، لأنها لو لم تكن قابلة لها في وقت ما، لما كانت حية، عاقلة في وقت من الأوقات، وكونها كذلك -حية عاقلة- وجب أن تكون قابلة لهذه الصفات في أي وقت شاء الله بعثها[1]، إذ الذي قدر على خلقها ابتداء، الأولى أن يقدر على إعادتها ثانيا، ذلك أن ما كان ممكن الحصول في بعض الأوقات، فهو ممكن الحصول في سائرها.

أما ما يثبت قدرته ﷻ على كل الممكنات، وعلمه بجميع المعلومات، ما أشار إليه في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[2]، أي إذا تفكّرتم وتدبرتم كيفية خلق عناصر هذا الوجود، وما جرى فيها من التدبير، علمتم أن من بلغت قدرته هذا المبلغ، وأحاط علمه بكل شيء، مما لا يمكن أن يكون لغيره، لابد أن قدرته ذاتية لا يعجزه شيء عمّا أراد، كما أن علمه شامل لا تخفى عنه خافية[3]، وهو ما يقرره جل جلاله في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ. وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾[4].

فهذه الآيات فيها من أدلة الآفاق والأنفس على عقيدة البعث، ما يمحو كل شك من القلوب حولها، ويبدد شبهة كل منكر لها، فمن بين ما تضمنته دليل نشأة الإنسان، وأصل خلقه من التراب، إضافة إلى مراحل الخلق المتعددة والمختلفة، التي لو تأملها الإنسان في نفسه علم أن القادر على فعل ذلك لا يعجزه إعادة إحياء الموتى مرة أخرى، مصداقا لقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ

---

(1)-الرازي: التفسير الكبير، ج23، ص10.

(2)-سورة الطلاق، الآية: 12.

(3)-الرازي: المصدر السابق، ج30، ص40.

(4)-سورة الحج، الآيات: 5-8.

سُدًى. أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى. ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى. فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى. أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾[1].

لذلك جاء ترشيده ﷻ لعباده إلى النظر في حقائق الأنفس، فقال جل جلاله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ. يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ. إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾[2].

ووفق هذا المنهج يقدم البيان القرآني الآيات الشاهدة على أن الذي خلق الإنسان أول مرة، قادر على أن يعيده مرة أخرى، فإن شق على المنكرين لهذه الحقيقة تصور الأمر وتقبله؛ فليتدبروا دلائل ذلك في أنفسهم، مما يرشدهم إلى أن مظاهر القدرة الإلهية في خلقهم، ونقلهم من طور إلى آخر، ومن حال إلى حال أخرى، مع تلك الاختلافات الحاصلة في كل منها، إضافة إلى إحكامها، مما جعله في أحسن صورة وأتمها، مصداقا لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[3]، ما هي إلا دليل على أن من لم يعجزه الخلق ابتداء، لن تثنيه قدرته وعلمه عن إعادة إحياء الموتى.

ولكون الخلق يستلزم قدرة الخالق على المخلوق وعلمه بتفاصيل خلقه، فإنه سبحانه وتعالى حيث أقام الدلالة على البعث أكد كمال قدرته وشمول علمه، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[4]، فتلك الحقائق المتعلقة بالأنفس، ما هي إلا دليل على موجد كامل القدرة شامل العلم، ومتى صحّ ذلك ثبت كون الإعادة ممكنة، إذ كيف يتعذر عليه سبحانه وتعالى إحياء العظام وهي رميم، والتفريق بين أجزاء كل المخلوقات، وهو خالقها ابتداء.

ذلك أن الذرات المكونة للأجسام المختلطة بالتراب بعد الموت، لو أذرتها الرياح أو جرفتها السيول، وضمتها البحار، فإن الله على علم بها، وقد أخبر جل جلاله في محكم تتريله عن حصول البعث، إذ أن قدرته المطلقة الممتنعة الزوال تمكنه من ذلك، كما أن علمه الشامل يجعله يميز بين تلك

---

(1)-سورة القيامة، الآيات: 36-40.

(2)-سورة الطارق، الآيات: 5-8.

(3)-سورة التين، الآية: 4.

(4)-سورة يس، الآيات: 77-79.

الأجـــزاء المختلفة، وهو ما يدل على أن أمر البعث ممكن في نفسه، وجائز الوقوع عقلا[1]، أليس هو جل جلاله «القادر بقدرة كاملة لا يعجزه شيء، العالم بعلم محيط بذرات كل جسم، نافذ الإرادة لا راد لما أراد»[2].

وبذلـــك يكـــون إخباره سبحانه وتعالى عن الإحياء بعد الموت، خبر صادق لابد من القطع بحقيقـــته، إذ لـــيس الأمر إلا نقل من حال إلى حال أخرى، التي كانت موجودة من قبل، والإنسان يشـــاهد مثل هذه الأمور في حياته الدنيوية، ومن ذلك البعث من النوم، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّـــذِي يَـــتَوَفَّاكُمْ بِاللَّـــيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3].

وكما وجهت آي الذكر الحكيم الأنظار إلى آيات الأنفس؛ للإيمان بحقيقة البعث انطلاقا من تضمنها لدلائل القدرة الإلهية، فإنها أرشدته أيضا إلى دلائل الآفاق، إذ جعل سبحانه وتعالى في الكون من البينات ما لو تأملها كل منكر للحق، لأدرك صدق ما أخبر به عن البعث، لذلك نجد «عادة الله الجارية في القرآن بأنه كلما ذكر الدلائل الموجودة في الأنفس، فإنه يذكر عقبها الدلائل الموجودة في الآفاق»[4] –أو العكس–، التي من مقاصدها إثبات قدرته تعالى على بعث الموتى.

وكـــون دلالـــة آيات الآفاق على البعث هي مضمون المباحث الآتية، سنكتفي هنا بذكر ما أورده ســـبحانه وتعالى لبيان طلاقة قدرته وشمولية علمه، من ذلك قوله جل جلاله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ. عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ. الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ. كَلَّا سَيَعْلَمُونَ. ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ. أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَـــادًا. وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا. وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا. وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا. وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا. وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا. وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا. وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا. وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا. لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا. وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا. إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾[5].

فالقـــادر عـــلى خلق هذه العناصر الكونية على عظمتها، مع الإحكام في تدبيرها؛ لأن يقدر

---

(1)–الرازي: التفسير الكبير، ج17، ص27-30. ج30، ص217-218.

(2)–الرازي: المصدر نفسه، ج25، ص46.

(3)–سورة الأنعام، الآية: 60.

(4)–الرازي: المصدر السابق، ج31، ص41.

(5)–سورة النبأ، الآيات: 1-17.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

على البعث كان أولى، كما أن «الذي يصحّ منه إيجاد هذه الأشياء لابد وأن يكون واجب الإنصاف لذاتـــه بالقدرة، ومن كان كذلك كان قادرا على جميع الممكنات، ومن كان كذلك فإنه لابد وأن يكون قادرا على الإعادة»[1]، لذلك حيث أقام الدلالة جل جلاله في كتابه العزيز على البعث، ذكر معه كونه قادرا وعالما، من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[2]، وحيث ثبت هذان الأصلان ثبت القول بصحة البعث.

وبهـــذا يكون الوحي الإلهي قد أقام في تقريره عقيدة البعث، أدلة يقينية وحجج قاطعة، أثبت مـــن خلالها أن حياة الإنسان لن تنتهي بالموت، بل لها استمرار في عالم آخر، وحياة أخرى، فيها يتم الحساب، وحينها يكون الثواب أو العقاب.

كما تبين لنا أن الأصول الدينية في القرآن الكريم، قد أمدت الإنسان بعقيدة سليمة وواضحة عن عالم الغيب، ومنه عقيدة البعث، بما يضمن له النجاة في الدارين، وقد شكلت آيات الآفاق قاعدة أساســية في تقريــر تلك الحقيقة، وذلك بربطها بين عالمي الغيب والشهادة، إذ بالرجوع إلى منهج الـــرازي واســتدلاله بها على عقيدة البعث، نجده قد أولى لدلالة تلك الآيات اهتماما كبيرا، وهو ما سيتجلى لنا من طرق الاستدلال وما تضمنته من دلائل البعث في المباحث الاتية.

---

(1)-الرازي: التفسير الكبير، ج23، ص10.

(2)-سورة يس، الآية: 79.

المبحث الثاني: طريق الخلق

يعـد طريق الخلق[1] من أهم الدلائل الكونية التي يعتمدها الرازي في إثبات الحقائق الإيمانية، معتـبرا أن الاستدلال به هي الطريقة المعتمدة عند أكابر الأنبياء –عليهم السلام–[2]، دليله ما حكى الحـق سبحانه وتعالى على سيدنا إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾[3]، أما سيد الخلـق –عليـه الصـلاة والسلام–، فإن أول ما أنزل عليه قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾[4]، أي أن أصل هذا الطريق النظر إلى عناصر الكون من حيث أنها مخلوقة، مع قطع النظر عن أحوالها أو الغاية من وجودها.

ومـن ثمة يكون منطلقه تدبر أصل تلك العناصر، «وذلك من حيث المآتى الوجودي للكون كـلا وأفرادا»[5]، سواء كدلالة عامة تتناول جميع المخلوقات في الوجود الكوني، أو كدلالة خاصة باعتبار كل عنصر منها على حده، كخلق النبات، وخلق الحيوان وغيرها، إذ لدليل الخلق دلالة عامة ودلالة خاصة[6].

أما المراد بالخلق، فهو «تصيير الشيء موجودا بعد أن كان معدوما»[7]، أي إيجاده وإخراجه مـن العدم إلى الوجود، وانتقاله من حيز الإمكان إلى حيز الوجود، كخلق الكائنات الحية من نبات وحيوان، وإيجاد السماوات والأرض، التي لم تكن موجودة ثم وجدت.

وتجـدر الإشارة إلى وقوف الرازي –مطولا– عند مسألة، هل الخلق هو المخلوق أم لا؟[8] عارضـا مخـتلف وجهـات الـنظر فيها، مع تحليل ومناقشة حججها؛ ليصل إلى أن الخلق هو عين

---

[1]–ويعرف أيضا بدليل الاختراع. –انظر: ابن رشد: مناهج الأدلة في عقائد الملة، ص152.

–كمـا يطلـق عليه اسم البرهان الكوني. أحمد حجازي السقا: هامش: المطالب العالية من العلم الإلهي للرازي، ج1، ص277.

[2]–الرازي: التفسير الكبير، ج31، ص138.

[3]– سورة الشعراء، الآية: 78.

[4]–سورة العلق، الآيتان: 1–2

[5]–عبد المجيد النجار: الإيمان بالله وأثره في الحياة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997، ص74.

[6]–الرازي: المصدر السابق، ج22، ص68.

[7]–الرازي: المصدر نفسه، ج24، ص144. –ج19، ص32.

[8]–الرازي: المصدر نفسه، ج4، ص178–179.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المخلوق[1]، مؤكدا أن في القرآن الكريم حيث ذكر الخلق، أريد به الإيجاد، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[2]، وقوله جل جلاله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾[3]، فليس المراد منه أنا قدرناه أنه سيوجد منها[4]، بل المقصود منه الإيجاد.

وبذلك يدل لفظ الخلق عند الرازي على الاحتياج إلى الخالق؛ لكون الخلق عبارة عن الإيجاد، وهذا الأمر حاصل في عناصر الكون، إذ هي أجسام محدثة، وكل محدث مفتقر إلى الغير ومحتاج إليه في وجوده؛ فمن حيث أنها لم تكن موجودة ثم وجدت دلت على وجود المؤثر في إيجادها، وعلى كونه قادرا؛ لأنه لو كان سبب وجودها ذاتيا فيها، لدام أثره بدوامه، وما كان يحصل التغير فيها، لكن حصول ذلك مع عجزها عن إيجاد نفسها، ما هو إلا دليل على وجود من لا يعجزه إيجادها[5].

أما صفة الخلق، فهي خاصة بذلك الموجد، -المفتقر إليه الكون في وجوده-، إذ لا يتصف بها غير الله سبحانه وتعالى، خالق الكون وما فيه، بل هي أعظم ما استحق من أجلها العبادة مصداقا لقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[6]، فورود استحقاق العبادة عقب صفة الخلق، دلالة على أنه هو القادر على الإيجاد لا غيره[7]، إذ ما تيسر للإنسان إلا الكشف عن قدرات الخالق ﷻ في الوجود الكوني، مما يدل على عجزه عن التأثير في إيجاد ولو عنصر بسيط منه، وذلك العجز يصدق على الكون في حد ذاته من باب أولى، إذ الخلق لا يكون إلا بالقدرة والإرادة[8].

فهو سبحانه وتعالى وحده ﴿...لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾[9]، أي له التكوين والإيجاد، ثم بعدها

---

(1)-الرازي: التفسير الكبير، ج27، ص260.
(2)-سورة لقمان، الآية: 25.
(3)-سورة يس، الآية: 77.
(4)-الرازي: المصدر السابق، ج29، ص76.
(5)-الرازي: المصدر نفسه، ج17، ص169.-ج12، ص149.-ج4، ص202.
(6)- سورة الأنعام، الآية: 102.
(7)-الرازي: المصدر السابق، ج12، ص150
(8)-الرازي: المصدر نفسه، ج26، ص12.
(9)-سورة الأعراف، الآية: 54.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

التكليف، يخلق ما شاء كيف شاء وأراد، له القدرة على الخلق وعلى الأمر على الإطلاق[1]، لو أراد خلق ألف عالم ممن في السماوات والأرض في أقل من لمح البصر لكان له ذلك.

وبهذا يكون العاقل على علم -دون شك- أن البدء من الله؛ لأن الخلق الأول لا يكون من مخلوق، وإلا لما كان خلقا أول؛ لذا أمر سبحانه وتعالى الإنسان بأن يكون على علم وبيّنة بكيفية بدء الخلق، وذلك لإدراك القدرة الإلهية على البعث وإعادة إحياء الموتى، فقال جلا جلاله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]، أي إن لم يحصل لكم العلم بأصل الوجود الكوني عن طريق العلم الحدسي، الحاصل من غير طلب بالنظر في الأنفس، مصداقا لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[3]، فتفكروا في أقطار الأرض لتعلموا بالعلم الفكري، عن طريق التأمل في الوجود، والتدبر في حوادثه[4]؛ لتعلموا أن أمر الإعادة سهل يسير على الله، ممكن الوقوع، إذ من عرف كيفية بدء الخلق أدرك طلاقة القدرة الإلهية.

ولبيان دلالة أصل الخلق على عقيدة البعث، سنقتصر على دلالة نموذجين، الأول يعتمد على النظر إلى الكون باعتباره كلا في وجوده الابتدائي، والثاني يمثل التدبر في أحد عناصره، وهما: خلق كل من السماوات والأرض، وخلق النبات.

المطلب الأول: دلالة خلق السماوات والأرض على عقيدة البعث

وتتعلق هذه الدلالة بأصل الوجود الكوني، وكيفية خلقه، إذ تمثل السماوات والأرض العالمين الأعلى والأسفل منه؛ لذلك قد يبدو الاستدلال بخلقها دليلا عاما، يحتوي العديد من الدلائل الكونية الأخرى، التي وإن انفردت بدلالتها، غير أنها تؤسس لهذا الدليل بوجه أو بآخر، كما أنها منبثقة منه لارتباطها به.

كما يعرف هذا الدليل، بدليل الابتداء على الإعادة، إذ يقوم على النظر في كيفية بدء خلق السماوات والأرض، من حيث أنها لم تكن موجودة ثم وجدت، مما يدل على قدرة خالقها وشمولية

---

(1)-الرازي: التفسير الكبير، ج14، ص124.

(2)-سورة العنكبوت، الآية: 20.

(3)-سورة العنكبوت، الآية: 19.

(4)-الرازي: المصدر السابق، ج25، ص47.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

علمه، ويعتبره الرازي دليل في غاية الصحة والقوة، لا يرتاب فيه مرتاب؛ لدلالته الظاهرة القوية[1].

وتتجلى أهمية معرفة كيفية وجود هذه العناصر الكونية، كونها من الأسئلة الخالدة في تاريخ الفكر البشري، والتي شدت الانتباه إليها منذ زمن بعيد؛ فكانت من القضايا التي شغلته، كما لا تزال من مسائل معترك الأفكار والمعتقدات، وما خوض الإنسان فيها إلا سعيا منه لإدراك حقيقتها؛ لما يترتب عنها من معرفة أمور بالغة الأهمية، وفي مقدمتها مصيره والغاية من وجوده.

لذلك نجده قد قدّم إجابات مختلفة لهذه القضية، رغم أن الخلق من الأمور الغيبية التي لا يعلمها إلا الله ﷻ مصداقا لقوله: ﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾[2]، فلم يرى الإنسان النشأة الأولى لكل من السماوات والأرض، ولجنسه، كما لن يتم له الأمر؛ لأنه أثناء الخلق الأول لم يكن موجودا، لكن الله سبحانه وتعالى دعاه إلى تدبر كيفية بدء الخلق، في قوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3]، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[4]، وبما أن الخلق ابتداء غير مشهود، فقد علق سبحانه وتعالى الرؤية بالكيفية لا بالخلق؛ لأن هذا القدر من الكيفية معلوم[5]، ويمكن للإنسان تحصيله، بما أمده الله من أدوات المعرفة، التي إن أحسن توظيفها تمكن من إدراك تلك الحقيقة؛ لذلك دعاه جل جلاله إلى تدبر ما في الكون من مظاهر الخلق؛ لمعرفة كيفية وجودها ابتداء، ومن علم ذلك أدرك عظمة ملكه سبحانه وتعالى، وعظيم قدرته في خلقه، ولا معنى لعلمي الفلك والجيولوجيا -بفروعهما المختلفة- إلا معرفة الحقائق المتعلقة بكل من السماوات والأرض، بداية بالبحث عن حقيقة وجودهما.

وقبل التطرق لدلالة خلق السماوات والأرض على عقيدة البعث، من المهم معرفة رأي الرازي في تلك القضية ذات الأبعاد المتعددة -دينية، علمية وفلسفية-، المتمثلة في كيفية وجود كل من السماوات والأرض، فالمسلمون وإن اتفقوا على الاعتقاد بالمصدر الإلهي لأصل وجودهما، إلا أنهم

---

(1)-الرازي: التفسير الكبير، ج24، ص79، 211.

(2)-سورة الكهف، الآية: 51.

(3)-سورة العنكبوت، الآية: 20.

(4)-سورة العنكبوت، الآية: 19.

(5)-الرازي: المصدر السابق، ج25، ص46.

اختلفوا بين الخلق من العدم والخلق من مادة أولية قديمة[1].

يناقش الرازي في "تفسيره الكبير" هذه القضية، مع تحليله لمختلف الآراء فيها؛ ليصل إلى أن «الباري تعالى خلق السماء من أجزاء مظلمة»[2]، ويبدو أن الرازي يربط هذا الظلام بالدخان الوارد ذكره في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[3]، وهو ما يتجلى لنا من قوله: «الظلمة عبارة عن عدم النور، فالله سبحانه لما خلق الأجزاء التي لا تتجزأ قبل أن يخلق فيها كيفية الضوء كانت مظلمة عديمة النور، ثم لما ركبها وجعلها سماوات وكواكب وشمسا وقمرا، أحدث صفة الضوء فيها، فحينئذ صارت مستنيرة؛ فثبت أن تلك الأجزاء حين قصد الله تعالى أن يخلق منها السماوات والشمس والقمر كانت مظلمة، فصح تسميتها بالدخان؛ لأنه لا معنى للدخان إلا أجزاء متفرقة، غير متواصلة عديمة النور»[4].

أما عن كيفية الخلق، وحالة السماوات والأرض قبل أن توجد، والتي عبر الوحي الإلهي عنها في قوله جل جلاله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[5]، نجد الرازي يعرض اختلاف المفسرين حول مدلول ومعنى الرتق والفتق[6]، مؤكدا أن الرتق الذي معناه الالتصاق، يدل مجازا عن العدم، والفتق الذي يعني المفارقة، هو كناية عن الوجود؛ فيكون العدم ذلك السلب المحض شيئا متحدا ملتصقا، وعند الخلق حدث انفصال لما هو متماسك، مما أدى إلى تمايز مختلف العناصر، الأمر الذي نتبينه من قوله: «والعدم نفي محض، فليس فيه ذوات مميزة، وأعيان متباينة، بل كل كأنه أمر واحد متصل متشابه، فإذا وجدت الحقائق، فعند الوجود والتكوين يتميز بعضها عن بعض، وينفصل بعضها عن

---

(1)- وذلك راجع إلى اختلافهم حول مفهوم المخلوق، فعند الفريق الأول، الخلق من العدم ينفي كونه أزلي، إذ من لوازم التوحيد الاعتقاد بحدوث العالم. في حين يذهب الرأي الثاني إلى أن المخلوق لا ينفي كونه أزلي، خلق من مادة كانت موجودة، والقول بأزلية هذه المادة لا يعارض التوحيد، لأن لا علاقة له به.

(2)- الرازي: التفسير الكبير، ج27، ص104.

(3)- سورة فصلت، الآية: 11.

(4)- الرازي: المصدر السابق، ج27، ص104

(5)- سورة الأنبياء، الآية: 30.

(6)- الرازي: المصدر السابق، ج22، ص162.

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بعض، فهذا الطريق حسن جعل الرتق مجازا عن العدم والفتق عن الوجود»[1].

ومن ثمة تكون حالة السماوات والأرض، قبل الخلق شيء واحد؛ لاتصالهما المعبر عنه بالرتق، إذ الشـــيء قـــبل أن يدخل في الوجود يكون عدما محضا، ونفيا صرفا، وهنا يتصور العقل من العدم ظلمة متصلة، فإذا أخرج الموجد ذلك الشيء من العدم إلى الوجود، فكأنه شق ذلك العدم[2].

لكن بعد أن استحسن الرازي هذا المعنى، يعدل من تأويله مصطلحي الفتق والرتق إلى الأخذ بما هو ظاهر من معناهما، فيقول: «والظاهر يقتضي أن السماء على ما هي عليه، والأرض على ما هي عليه كانتا رتقا، ولا يجوز كونهما كذلك إلا وهما موجودات، والرتق ضد الفتق، فإذا كان الفتق هو المفارقة، فيجب أن يكون الرتق هو الملازمة»[3].

فـــبعد أن كان الرتق هو العدم، استبدله مفكرنا بمعنى الملازمة، فعدل بذلك من التأويل إلى الأخذ بالمعنى المأثور للمصطلح، الذي منه ما ورد في قول أبي مسلم الأصفهاني: «يجوز أن يراد بالفتق الإيجـــاد والإظهار كقوله: ﴿...فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[4]، فأخبر عن الإيجاد بلفظ الفتق وعن الحال قبل الإيجاد بلفظ الرتق»[5]، وهو ما يعني أن السماء والأرض كانتا في حالة اتحاد ثم انفصلتا.

وبذلك يكون تفسير الرازي لحالة السماوات والأرض قبل الخلق، وكيفية وجودهما، مقبول إلى حـــد بعيد، مع العلم أن علماء الفلك يقررون أن الخلق كان نتيجة انفجار عظيم[6] (Le Big Bang)، ويـــتحدثون عـــن البيضة الكونية التي احتوت مادة السماوات والأرض فيها[7]، وسبقت

---

[1]-الرازي: التفسير الكبير، ج22، ص163.

[2]-الرازي: المصدر نفسه، ج13، ص95.

[3]-الرازي: المصدر نف سه، ج22، ص163-164.

[4]-سورة فاطر، الآية: 1.

[5]-الرازي: المصدر السابق، ج22، ص163.

[6]-حيث تؤكد نظرية الانفجار العظيم أن كل شيء في عالمنا المعروف، الزمن، الفضاء، الطاقة، المادة، ... كانت في لحظة معينة محتواة داخل نقطة ذات كثافة لا نهائية تعرف بـــ"المفردية" (Singularity)، هي التي حدث لها ذلك الانفجار.

—كـــاتي ساويرز: "أسرار الكون"، ترجمة: عبد المنعم محمد، مجلة الثقافة العالمية، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع99، مارس- أفريل 2000، ص99.

—جعفر شيخ إدريس: الفيزياء ووجود الخالق، مكتبة الملك فهد الوطنية (د.م)، ط1، 1422هـــ-2001م، ص82-88.

[7]-يحيى هارون: خلق الكون، ص27.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بوجودها ذلك الانفجار، مما يعني أن العالمين الأعلى والأسفل كانا ضمن تلك البيضة، في حالة رتق ثم حدث انفصال لمادتهما عقب الانفجار، إذ كانتا على شكل كتلة سديمية غازية، والتي عبر عنها القرآن الكريم بالدخان[1]، التي منها حصل الخلق؛ فكانت السماوات والأرض، أين تم تكوينها بشكلها الحالي، وهو ما عبر عنه بالفتق، ولا نريد الخوض أكثر في هذه المسألة، ويكفي الإطلاع على ما قيل فيها في أحد كتب علم الفلك أو الجيوكرونولوجيا لمعرفة حقيقة ذلك بعمق.

وتجدر الإشارة إلى تناول الرازي في "تفسيره الكبير" لقضية من الأولى في الخلق السماوات أم الأرض، استنادا إلى الآيات القرآنية التي أشارت إلى ذلك، وما قد يبدو بينها من تعارض، إذ ورد في قوله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا. رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا. وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا. وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾[2]، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[3]، فبعد عرض مختلف الأقوال الواردة في هذه المسألة، يعطي لنا الرازي الجواب الذي يراه صحيحا، كحل لهذا الخلاف، ومفاده أن خلق السماء مقدم على خلق الأرض، وهذا لا يقتضي أن تسوية السماء مقدمة على خلق الأرض، وبهذا التقدير يزول ما قد يبدو تعارضا بين نصوص الوحي الإلهي، فتكون "ثم" في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ﴾، ليست للترتيب، إنما هي على جهة تعديد النعم[4].

والملاحظ أنه رغم عناية مفكرنا بالجانب الكوسمولوجي الوارد في الآيات القرآنية، إلا أننا نجد ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[5]، أي أن العالم الأعلى في توسع مستمر[6]، وهي حقيقة ينفيها الرازي بقوله: «إن الفلك لا يقبل النمو، لأن كل نام ففيه زيادة حاصلة، كائنة من جنسه، وقد ثبت أن الكون على كلية الفلك أو على أجزائه

---

[1]- عبد العليم عبد الرحمن خضر: الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن الكريم، الدار السعودية للنشر، (د.م)، ط2، 1405هـ-1985م، ص260.

[2]- سورة النازعات، الآيات: 27-30.

[3]- سورة البقرة، الآية: 29.

[4]- الرازي: التفسير الكبير، ج2، ص155.

[5]- سورة الذاريات، الآية: 47.

[6]- جمال ميمون، نضال قسوم: قصة الكون من التصورات البدائية إلى الانفجار العظيم، ص152-155.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

محال»[1]، لكن هذا التوسع الذي قررته الآية القرآنية، هو أحد دلائل خلق الكون في علم الفلك حاليا.

وبذلك تأتي الاكتشافات العلمية مقررة ما أكده الوحي الإلهي، من أن السماوات والأرض أتت إلى الوجود نتيجة خلق إلهي، ولم توجد مصادفة كما يرى أصحاب التفسير المادي[2]، تلك الحقيقة التي يؤكدها أهل الاختصاص، إذ يقول جورج إيرل دافيز: «ولكننا نستطيع أن نتحقق من وجود الله باستخدام العقل والاستنباط، مما نتعلمه ونراه، فالمنطق الذي نستطيع أن نأخذ به، والذي لا يمكن أن يتطرق إليه الشك هو أنه ليس هناك شيء مادي يستطيع أن يخلق نفسه»[3]، وبذلك كلما اتسع مجال العلم وازدادت اكتشافاته قويت البراهين الدامغة على وجود خالق كامل القدرة، شامل العلم؛ فالجيولوجيين والفلاكيون وغيرهم تعاونوا على تشييد صرح العلم الذي هو صرح عظمة الخالق جلا جلاله[4].

أما إدراك دلالة خلق السماوات والأرض، فإنه لما أحكم سبحانه وتعالى الحديث في خلقها، فرع عليه إثبات القول بالبعث، والأمر هنا يتعلق بإثبات الجواز العقلي لعقيدة المعاد[5]، فمن تدبر حقيقة وجود تلك العناصر أدرك أنها أمر ممكن، إذ كان من الممكن أن لا توجد أصلا، وكون ترجيح الوجود على العدم لا قدرة لأحد فيه، إنما كان بقدرة الخالق، القاهر للعدم بالإيجاد، فكذلك بعث الموتى.

فلما ثبت بالدلائل القاطعة أن السماوات والأرض مخلوقة لله ﷻ، فكيف يعجز عن إعادة خلق الإنسان وهو القادر على إيجاد تلك العناصر ابتداء؟ إذ إيجاده سبحانه وتعالى للأشياء وتكوينه لها لا يتوقف على سبق مادة ولا مدة ولا آلة، إنما يكونها بمحض قدرته ومشيئته، كما ليس لقدرته دافع

---

(1)-الرازي: المباحث المشرقية، مكتبة الأسدي، طهران، (د.ط)، 1966م، ج2، ص95.

(2)-انظر: تحليل لآراء أصحاب هذه النظرة والرد عليهم عند -جعفر شيخ إدريس: فيزياء ووجود الخالق، ص94-115 وما بعدها.

(3)-والقول للعالم الطبيعي ورئيس قسم البحوث الذرية بالبحرية الأمريكية بروكلين، أخصائي في إشعاع الشمس والبصريات الهندسية. -المرابط بن محمد لخديم الشنقيطي: معرفة الله، دلائل الحقائق القرآنية والكونية، دار وحي القلم، دمشق، ط1، 2002، ص152.

(4)-وهو ما قرره العالم الفلكي الإنجليزي "هرشل" -المرابط بن محمد لخديم الشنقيطي: المرجع نفسه، ص153.

(5)-الرازي: التفسير الكبير، ج26، ص124.

ولا لمشيئته مانع[1]. لكن قد يغفل الإنسان هذه الحقيقة، وينكر البعث، لأنه لا يوجد القادر على فعل ذلـــك، بدعـــوى أن ما نشاهده من سماوات وأرض، وجدت من تلقاء نفسها؛ لذلك وجه القرآن الكريم الإنسان إلى تدبر كيفية خلقها، فقال جل جلاله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَـادِرٍ عَلَـى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ. إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُـنْ فَـيَكُونُ﴾[2]، معبرا عن كمال قدرته ونفاذ إرادته، ومنه لما قدر على الإيجاد ابتداء وجب أن يكون قادرا على الإعادة.

كما تتجلى دلالة خلق السماوات والأرض على عقيدة البعث، كون إيجادها أعظم وأكبر من خلـق الإنسـان، فهـل يسـتحيل في حق من قدر على إيجاد ما هو أصعب وأشد وأشق من هذا الكـائن الحي، إعادة بعثه بعد موته؟، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْـنَا...﴾[3]، والـتقدير كأنه تعالى يقول لرسوله ﷺ «استفت المنكرين أهم أشد خلقا من خلق السماوات والأرض، ولا شك أنهم يعترفون بأن خلق هذا القسم أشد وأصعب، فبأن يكون موجدها قادرا على إعادة الموتى كان أولى»[4].

فـلما تقـرر بالبرهان، الذي لا إنكار له أنه تعالى خالقا لتلك العناصر، نبههم إلى أمر يُعلم بالمشـاهدة، بقوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ... وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾[5]، ذلك أن خلق الإنسان على صغره وضعفه إذا أضيف إلى خلق السماوات والأرض على عظمها، كان يسـيرا، فـبين جل جلاله أن إيجادها أعظم، وكون الأمر كذلك فإعادته بعد الموت أولى أن يكون مقدورا لله تعالى[6]، إذ كيف ينكرون هذه الحقيقة وهم الذين لم يُحك عنهم أنهم أقروا أن خلق هذه الأشياء أصعب؛ لأنه معلوم بالضرورة[7].

ونظير هذه الدلالة ما ورد في قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ

[1]-الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص31.
[2]-سورة يس، الآيتان: 81-82.
[3]-سورة الصافات، الآية: 11.
[4]-الرازي: المصدر السابق، ج26، ص124.
[5]-سورة النازعات، الآيات: 27، 30.
[6]- الرازي: المصدر السابق، ج1، ص43.
[7]-الرازي: المصدر نفسه، ج26، ص125.

على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم﴾[1]، مؤكدا الأمر بقوله سبحانه وتعالى: ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[2]. فالمقصود من هذه الآيات إقامة الدلالة على إمكان وقوع البعث، ذلك أن بمقارنة الإنسان وجوده بخلق العالمين الأعلى والأسفل، يدرك أن إعادته لا تمثل شيئا أمام إيجادهما ابتداء. لذلك فكلا الأمرين بالنسبة لقدرة الله تعالى واحد في اليسر.

ودليل ذلك أن خلق السماوات والأرض أعظم، وأفخم من إعادة الميت حيا، والقادر على الأقوى الأكمل لابد وأن يكون قادرا على الأقل الأضعف، أما تعلق الروح بالجسد فهو أمر ممكن في نفسه، إذ لو لم يكن كذلك لما وقع بداية، فلكمال قدرته جل جلاله وجب أن يكون قادرا على الإعادة، ويكفي للإيمان بذلك الوقوف على هذه الدلائل اليقينية الظاهرة[3]..

لكن مع ما تقرر في صريح العقول من أن القادر على الأعظم قادرا على الأصغر، إضافة إلى تلك الحجج القاطعة، هناك من بقي مصرا على إنكاره لحقيقة البعث، مما يثير التعجب المشار إليه مصداقا لقوله تعالى: ﴿فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب ۝ بل عجبت ويسخرون﴾[4]، فرغم ظهور الحجة، كيف يعقل بقاء القوم على الإصرار؟ بل يصل بهم إنكارهم حد السخرية من حقيقة البعث[5]، ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير﴾[6]، فهؤلاء ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفورا﴾[7]، وهذا إظهار لفساد تشبيههم، وما ضربوه من الأمثال، إذ قالوا: لا يقدر أحد على الإعادة قياسا للغائب على الشاهد، فأكد تعالى أن في الشاهد يكون الخلق بالآلات البدنية والانتقالات المكانية، ولا يقع إلا في الأزمنة الممتدة، لكن الله يخلق "بلا

---

(1)- سورة يس، الآية: 81.

(2)- سورة غافر، الآية: 57.

(3)- الرازي: التفسير الكبير، ج28، ص34- ج19، ص174..

(4)- سورة الصافات، الآيتان: 11-12.

(5)- الرازي: المصدر السابق، ج26، ص126.

(6)- سورة الأحقاف، الآية: 33

(7)- سورة الإسراء، الآية: 99.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فيكون"، فكيف يُضرب المثل الأدنى، وله المثل الأعلى[1] في ذلك، أين يُدرك الحق، وما الإعادة إلا مثل الخلق ابتداء.

وهذا الدليل القائم على النظر في كيفية خلق السماوات والأرض، والذي يكون فيه الاستدلال باقتداره على الخلق ابتداء على اقتداره على البعث، ثبت أن القول بالبعث حق وصدق، وهو أمر ممكن الوقوع في نفسه، إلا أن وقوعه ودخوله في الوجود، له وقت لا يعلمه إلا الله؛ فهو القهار للعدم بالتكوين والإيجاد، والقهار للوجود بالإفناء، ينقل الممكن من العدم إلى الوجود تارة، ومن الوجود إلى العدم أخرى[2]، إذ قدرته على الخلق ابتداء وعلى إعادة الخلق أمر واحد، فإن كان هناك من يأبى إلا الكفر والجحود لهذه الدلالة القاطعة، له في غيرها من الظواهر الكونية عبر عديدة.

المطلب الثاني: دلالة إحياء الأرض الميتة وخلق النبات على عقيدة البعث

يتفق هذا الدليل مع سابقه، في أن كل منهما قائم على التدبر في كيفية خلق عناصر الكون، مما يؤدي إلى إدراك ذلك الفعل المعجز، الدال على قدرة فاعله، وفيما كان الدليل الأول خاص بالنظر في خلق السماوات والأرض؛ فهذا الدليل يتعلق بتدبر ظاهرة إحياء الأرض الميتة وإخراج النبات فيها، والتي هي من الحقائق الكونية المشهودة.

وإذا كان الغرض من الاستدلال إفادة العلم، فإن كل ما كان أظهر دلالة، كان أقوى إفادة، مما يجعله أولى بالذكر، ومع أن مضمون هذا الدليل من أقرب الآيات الكونية المحسوسة لدى الإنسان، إذ لا تنفك ظاهرة إحياء الأرض الميتة عن ناظره، بتكررها أمامه مرارا، مما يجعله أعرف بحالها من غيرها، لكن تم تأخير دلالتها في عرض طرق الاستدلال؛ لأن خلق النبات كالأمر الناتج والمتولد عن عقد النكاح المبرم بين السماء والأرض، والأثر بلا شك متأخر عن المؤثر[3].

على أن ما قرره الوحي الإلهي عن منكري البعث، جدالهم بغير علم، إذ استبعدوا عودة الحياة إلى الأجساد بعد تحولها إلى عظام رميمة، ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾[4]، بل ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾[5]، وسبب اعتقادهم هذا، جهلهم

---

(1)- الرازي: التفسير الكبير، ج26، ص110.
(2)- الرازي: المصدر نفسه، ج13، ص13.
(3)- الرازي: المصدر نفسه، ج2، ص102.
(4)- سورة الإسراء، الآية: 49.
(5)- سورة ق الآية: 03

بطبيعة الحياة والموت، مع عدم إدراكهم لحقيقة الخلق، مما أدى بهم إلى الغفلة عن القدرة الإلهية؛ فتعاموا عن آثارها الموجودة أمام أعينهم، وكان يكفيهم تدبر آية إحياء الأرض الميتة للتيقن من صدق ما أخبر به الباري ﷻ، من بعث للأجساد بعد الموت.

لذلك حث سبحانه وتعالى على تدبر تلك الآيات الكونية المتعلقة بخلق النبات؛ فكان الربط قويا في محكم تنزيله بين حقيقة كل من إحياء الأرض بإخراج النبات فيها، وبين بعث الإنسان بعد موته، الأمر الذي نقف عليه في آيات عديدة، منها قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]، كما قال جل جلاله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]، مؤكدا ذلك بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[3]، فما على الإنسان إلا الامتثال لقوله ﷻ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[4].

هذا وقد مثلت صيغ التشبيه والتمثيل المختلفة، الواردة في العديد من الايات القرآنية الرابط العضوي بين كل من ظاهرتي إحياء الأرض الميتة وحقيقة البعث، من ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[5]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ. وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ. وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ. رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾[6]، ذلك «أن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كالأصل بالنسبة إلى الفرع، وكالجسم بالنسبة إلى الظل؛ فكل ما في الدنيا فلابد له في الآخرة من أصل، وإلا كان كالسراب الباطل والخيال العاطل، وكل ما في الآخرة

(1)-سورة الروم، الآية: 50.
(2)-سورة فصلت، الآية: 39.
(3)-سورة الأنعام، الآية: 95.
(4)-سورة الحديد، الآية: 17.
(5)-سورة الزخرف، الآية: 11.
(6)-سورة ق، الآيات: 7-11

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فلابد له في الدنيا من مثال، وإلا لكان كالشجرة بلا ثمرة، ومدلول بلا دليل»[1].

وتمام الاستدلال بخلق النبات على عقيدة البعث، أن المتدبر في الأرض يعلم ذلك علم اليقين، مصداقا لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

فحقيقة الأجسام أنها تنقلب من حال إلى حال بعد موت الإنسان، إلى أن تستحيل ترابا، وتصبح رفاتا، ثم ينشئها الله نشأة أخرى؛ لتُبعث يوم القيامة حية كما كانت من قبل، وهذا ما نشاهد مثيله في ظاهرة إحياء الأرض الميتة وإخراج النبات فيها، والتي هي من الحقائق المحسوسة، إذ كل منا يرى مرات عديدة في حياته كيف تعود الحياة إلى الأرض الميتة؛ فبعد يبسها وخلوها من الخضرة، إذا أنزل عليها الماء تحركت وانتفخت؛ ليخرج منها النبات بأنواعه وأشكاله المختلفة، والذي تُعرف فيه الحياة بالتغذي والنمو، «فكما أن النبات ينمو ويزيد، فكذلك بدن الإنسان بعد الموت، ينمو ويزيد بأن يُرجع الله إليه قوة النشوء والنماء، كما يعيدها إلى الأشجار بواسطة الماء»[3].

وبذلك يكون خروج النبات في الأرض بعد سقيها، من صور إخراج الحي من الميت؛ لذلك بتدبرنا هذه الحقيقة الكونية، مما يُعرض للأرض من تحول من هيئة إلى أخرى، علمنا «أن الذي يصح منه إيجاد هذه الأشياء لابد وأن يكون واجب الإنصاف لذاته بالقدرة، ومن كان كذلك كان قادرا على جميع الممكنات، ومن كان كذلك فإنه لابد وأن يكون قادرا على الإعادة»[4]، إذ كيف يعجز من أعاد الحياة إلى الأرض الميتة، عن إعادتها إلى الإنسان بعد موته؟

ويبين العلم حقيقة اهتزاز الأرض بسقيها، حيث تبدأ مختلف البذور فيها بالحركة

---

(1)-الرازي: التفسير الكبير، ج1، ص264.

(2)-سورة الحج، الآيتان: 5-6.

(3)-الرازي: المصدر السابق، ج28، ص157.

(4)-الرازي: المصدر نفسه، ج23، ص10.

والانقسامات الخلوية، بامتصاصها للماء، وتحليل الغذاء إلى وحدات، مقابل تحرك الطين بامتلاء مسام الأرض بالمـــاء، مما يؤدي إلى عملية تأيّن عجيبة في جزئيات التربة، إلى جانب نشاط الديدان بشقها الأنفاق الأرضية، لابتلاعها كميات من التربة وإخراجها مفككة، كل هذه النشاطات التي تحدث في الأرض تـــؤدي إلى زيادة حجم التربة وتغيرها؛ لذلك عُدّ هذا الأمر نوع من الإحياء للأرض الهامدة الساكنة[1]، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]، أي أن اهتزاز الأرض وتحـــركها نتيجة لما يحدث فيها من تفاعلات، هي في حد ذاتها دليل ظاهر وبرهان باهر على قدرة الذي أحياها على إحياء الموتى.

لكن الرازي يفترض أن ذلك غير كاف في إثبات جواز البعث، وهو ما يفسره تأكيد إحياء الأرض الميتة بإخراج منها الحب في قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ. وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ. لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[3]، فلما أحيا الأرض الميتة، وأخرج منها حبا، كان ذلك إحـــياء تاما؛ وكأنه قال سبحانه وتعالى، أن الذي أحيى الأرض إحياء كاملا، قادرا على إحياء الموتى إحياء تاما، إشارة إلى الأمر الضروري الذي لابد منه، إذ كما فعل في موات الأرض كذلك يفعل في الأمـــوات من البشر في القبور، يحييهم ويعطيهم ما لا بد منه لبقائهم وتكوينهم من الأعضاء المحتاج إلـــيها وقواها، مع تزويدهم بالعقل الكامل والإدراك الشامل؛ فيبعث الميت كائن حي كما وجد أول مرة، فيكون إحياؤه تاما مثلما كان إحياء الأرض تاما[4].

ومـــن ثمة فتقرير هذا الدليل يترتب عليه المطلوب والنتيجة، ذلك أن حدوث تلك الأعراض وتواردهـــا عـــلى الأجسام من دلائل كمال قدرة موجدها، وشمولية علمه؛ فلما لم يستبعد منه جل جلاله إحياء الأرض الميتة، وإخراج منها النبات، فكيف يستبعد منه إعادة الأموات[5].

---

[1]–عبد المجيد العرجاوي: البراهين العلمية على صحة العقيدة، دار وحي القلم، دمشق، ط1، 2003م، ص127.

[2]–سورة فصلت، الآية: 39.

[3]–سورة يس، الآيات: 33-35.

[4]–الرازي: التفسير الكبير، ج26، ص66.

[5]–الرازي: المصدر نفسه، ج23، ص9-10.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أمـا إذا نظر إلى ظاهرة خروج النبات من الأرض الميتة، على أنه أمر عادي وطبيعي؛ لتوفر مجموعة من الأسباب، فليتدبر الإنسان طعامه، وما يمر به من مراحل حتى يصل إليه ليدرك أن البعث حقـيقة لا ريب فيها، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ. مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ. مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ. ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ. ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ. ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ. كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ. فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ. أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا. ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا. فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا. وَعِنَبًا وَقَضْبًا. وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا. وَحَدَائِقَ غُلْبًا. وَفَاكِهَةً وَأَبًّا. مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[1]، بل إن الوحي الإلهي وجهنا إلى التفكر في ذلك، بداية من أصل النبات عندما يكون مجرد بذرة، فقال جل جلالـه: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ. أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ. لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾[2]، وذلك ردا على الذين ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ. وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ. أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ. قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ. لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ. ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ. لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ. فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ. فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ. فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ. هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾[3]،

وانطلاقا من هذه الآيات الكونية، الداعية إلى تأمل هذه الظواهر المحسوسة، يلج الرازي عالم النـبات؛ لـيقف على كيفية وجود النبتة من البذرة، وما تحمله من عجائب، متتبعا مراحلها إلى أن تعطـي ثمارهـا، وذلك إيمانا منه بأن تدبر جزئيات الخلق أساس في إدراك دلالة الآيات الكونية على الحقـائق الإيمانية، وهو ما كان من قواعد منهجه في الاستدلال بها، إذ من كان أكثر توغلا في بحار مخلوقات الله، كان أكثر علما بعظمته وقدرته ﷻ.

هـذا الأمـر ندركه من خلال بيان مفكرنا لبعض خواص النبات، وما يحمله من تصاريف القـدرة الإلهية، مما يدل على أن إيجاده لا يصدر إلا عن قدرة واسعة، وعلم تام، وحكمة بالغة، وفي كل ذلك دلائل حقيقة البعث؛ فبعد تفريقه بين أنواع البذور، من حب ونوى، وبيان أشكالها بإعطاء أمـثلة عـن كـل قسم، يصور لنا الرازي ما يحدث لكل منهما من عجائب في عملية خلق النبات

---

[1]-سورة عبس، الآيات: 17-32.

[2]-سورة الواقعة، الآيات: 63-65.

[3]-سورة الواقعة، الآيات: 46-56.

وخروجه من البذرة، التي هي أساس الحياة.

ذلك أن الحب بوقوعه في الأرض الندية، إذا استولى عليه التراب والماء، فإن النظر العقلي يقتضي تعفنه وفساده؛ لتوفر شروط ذلك، لكن تبقى البذرة محفوظة وبازدياد الرطوبة تنفلق، أما النوى بصلابته التي يعجز أحيانا الإنسان عن كسرها، إذا وقع في الأرض الندية ينفلق لا محالة، ومنه فالبذرة مهما كان نوعها بوقوعها في التربة الندية، إذا مرت عليها مدة زمنية أظهر الله فيها من الأعلى شقا، ومن الأسفل شقا آخر؛ فالشق الظاهر في أعلاها يخرج منه الجزء الصاعد إلى الهواء –فوق سطح الأرض–، أما الشق الذي يظهر في الأسفل منها؛ فيخرج منه الجزء الهابط في الأرض –يعرف بعروق النبتة–، وبذلك تصير البذرة سببا لاتصال الجزأين.

ومن العجائب التي تحملها طبيعة تلك النبتة، التي خرجت من فلق البذرة، إن كانت تقتضي النزول في عمق الأرض، فكيف تولد منها الجزء الصاعد، وإن تقتضي الصعود فكيف تولد منها الجزء الهابط؟ فلما تولد منها هذان الجزءان، مع أن الحس والعقل يشهدان بأن طبيعة كل منهما مختلفة، دل ذلك على أن خلق النبات ليس بمقتضى الطبع والخاصية، وإنما هو إيجاد وإبداع لقادر حكيم[1].

ومنه لو أدرك الإنسان حقيقة خلق النبات، وكيفية خروجه من البذرة؛ لخشعت القلوب، ولأدركت أن ذلك آية كبرى من آيات الله على عظمته، ودليل قاطع على طلاقة القدرة الإلهية على إحياء الموتى، لقوله جلا جلاله: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[2]، فالبذرة مع اختلاف أنواعها وأحجامها، القاسم المشترك بينها أن في كل منها كائنا حيا يدعى الرشيم، له غذاء مخصوص وموزون، ما إن يوضع في مكان رطب إلا وينمو إلى سويق، ومنه إلى جذير، وحجم البذرة كاف لتغذيته إلى أن يصبح الجذر قادرا على امتصاص الغذاء من التربة[3].

فإخراج النبات من البذرة –بهذه الكيفية–، هو من جنس إخراج الحي من الميت؛ لأن النامي في حكم الحي، وسكون البذرة بعدم نموها، في حكم الميت، نظير ذلك قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ

---

[1]–الرازي: التفسير الكبير، ج13، ص95-99.

[2]–سورة الأنعام، الآية: 95.

[3]–محمد راتب النابلسي: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، آيات الله في الآفاق، ص233.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[1]، أي كون الأرض هامدة، خالية من مظاهر النمو، فهي في حكم الميت، في حين خروج النبات فيها، هو إحياء لها، ومشاهدة خروج هذا الحي من ذاك الميت، ألا يدل على قدرة كاملة وعلم شامل؟، بل المدرك لتلك الظاهرة كيف يكون منه استبعاد إخراج البدن الحي من التراب الرمين مرة أخرى؟ أيعجز القادر على خلق النبات من تلك البذرة، عن جمع أجزاء الإنسان وتركيب أعضائه؟

والمقصود من كل هذا، الإنكار على تكذيب الحشر والنشر، إذ الضدان متساويان في النسبة؛ فكما لا يمتنع الانقلاب من أحد الضدين إلى الآخر، وجب أن لا يمتنع الانقلاب من الثاني إلى الأول، أي عدم امتناع حصول الموت بعد الحياة، يوجب عدم امتناع حصول الحياة بعد الموت؛ فيخرج منه جواز البعث[2].

ومن ثمة يمكن القول أن الحياة معجزة ذات طبيعة واحدة في مختلف أشكالها وصورها، سواء عند النبات أو الإنسان أو غيرهما؛ فكما يخرج الله الحي من الميت في ظاهرة إحياء الأرض الميتة وخلق النبات، كذلك يخرج الأجساد حية من قبورها، وتُرد الحياة إلى الأموات، إذ الأرض الميتة لما قبلت الحياة اللائقة بها، كذلك الأعضاء تقبل الحياة، وكما تسوق القدرة الإلهية الريح والسحاب –وما يحمل من مطر– إلى البلد الميت، يسوق جل جلاله الروح والحياة إلى البدن الميت[3]، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[4]، فالقدرة التي تخرج الحي من الميت في هذه الدنيا، هي نفسها التي تحيي الإنسان بعد موته، وما هذه الدلائل الكونية المشهودة إلا تذكرة لأولي الألباب، وآيات لقوم يعقلون.

وقد يقال أنه لا مجال للمقارنة بين القضيتين، إذ البذرة إن وُفّرت لها ظروف معينة، أخرجت نباتا، عكس بعث الأجساد بعد موتها، لكن الواضح أن أساس هذا الاعتقاد الجهل بحقيقة الخلق في كلا الحالتين، ونسبة إيجاد النباتات إلى علل مادية محضة، مما أدى إلى نفي التدبير الإلهي لذلك، في

(1)–سورة الحديد، الآية: 17.

(2)–الرازي: التفسير الكبير، ج31، ص99–ج2، ص123–124.

(3)–الرازي: المصدر نفسه، ج26، ص7.

(4)–سورة الأعراف، الآية: 57.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

حين يؤكد أهل الاختصاص أن أصل وجود النبات هي القدرة الإلهي، إذ «إننا نخدع أنفسنا إذا اعتقدنا أن النظريات العلمية التي لدينا تكفي لإنبات البذور، وإنماء النبات، نحن نقول أن الماء والهواء والمواد الكيميائية التي تمتصها الجذور من الأرض، هي التي تنبت النبات، ولكن ذلك كله هواء، إذا لم نؤمن بوجود قوة قادرة هي التي توجه التفاعلات الكثيرة المتشابكة، التي تعمل في توافق عجيب، والدليل القاطع لي ذلك أننا على الرغم مما ندعيه من تقدم العلوم لا يمكننا صنع أي بذرة من البذور مهما بلغ صغر شأنها»[1].

هذا، ويتجلى عجز الإنسان عن إدراك حقيقة الأمر، في عدم تمكنه من الكشف عن بعض خصائص الخلية الموجودة في البذرة، والمسؤولة عن حياة النبات، والتي بلغت من التعقيد درجة من المستحيل على العقل البشري حل طلاسمها، مما يؤكد أن ذلك راجع إلى طلاقة القدرة الإلهية في تكوينها، تلك القدرة الموجد للكون[2].

لذلك اعتبر الرازي البحث في كيفية بعث الموتى، وتصورها لا يكون إلا في نطاق نصوص الوحي الإلهي، هذه المسألة التي أثيرت بين المسلمين بوقوفهم عند قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[3]، وقوله جل جلاله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ. وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ. رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾[4]، فالأمر هنا يتعلق بوجه الشبه في "كذلك الخروج"، و"كذلك تخرجون"، هل يُحمل على الإحياء بالماء والإخراج؟ أم على مجرد الإحياء؟

يبين الرازي أن المسألة فيها قولان، الأول: أن المراد أنه تعالى كما يخلق النبات بواسطة إنزال الماء؛ كذلك يحي الموتى بمطر يترله على الأجسام الرميمة، إذ رُوي أنه تعالى يمطر على أجساد الموتى مطرا، فينبتون ويصيرون أحياء، قال مجاهد: «إذا أراد الله أن يبعثهم أمطر السماء عليهم حتى تنشق عنهم الأرض، كما ينشق الشجر عن النوى والثمر، ثم يرسل الأرواح فتعود كل روح إلى

(1)-القول لجون زيمرمان: أستاذ الزراعة في كلية جوشن -انظر: أحمد عمر أبو حجر: التفسير العلمي في الميزان، ص500

(2)-وهو ما صرح به تشارلز إرنست: وكيل الأكاديمية العلمية في أنديانا. -أحمد عمر أبو حجر: المرجع نفسه، ص500.

(3)-سورة الزخرف، الآية: 11.

(4)-سورة ق، الآيات: 9-11.

جسدها»[1].

أما القول الثاني: فيذهب إلى أن التشبيه إنما وقع بأصل الإحياء، أي أنه تعالى كما أحيا ذلك البلد بعد خرابه، بإنبات فيه الشجر، وجعل فيه الثمر، فكذلك يحيي الموتى؛ لأن من يقدر على إحداث الجسم، وخلق الرطوبة والطعم فيه، قادر على إحداث الحياة في بدن الميت، فيكون المقصود منه إقامة الدلالة على أن البعث حق لا ريب فيه[2].

لقد اعتبر الرازي القول الأول مجانبا للصواب؛ لما يترتب عنه من أسئلة واعتراضات تتعلق بكيفية البعث، كتفرق أعضاء الموتى، واختلاطها فيما بينها، وما يترتب عن ذلك من تجريدات ذهنية وشبهات، مما يتعارض مع التسليم المطلق بقدرة الله تعالى على الإعادة، وكل هذا تكلف وتغييب لمقاصد نصوص الوحي الإلهي، والتي تضمنت بيان واضح وبرهان قاطع في تأكيد حقيقة البعث.

لذلك وبرجوعنا إلى الآيات القرآنية التي تناولت القضية، نجد مفكرنا يؤكد في دلالة خلق النبات على البعث، أن التشبيه بين الصورتين إنما وقع بالإحياء بعد الموت، لا بالوسيلة والكيفية نفسها، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[3]، أي أن الله ﷻ يجعل الناس أحياء بعد الإماتة، كهذه الأرض التي أُنشرت بعد أن كانت ميتة[4].

والأمر نفسه يؤكده في تناوله لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾[5]، إذ يتساوى الإنسان والنبات في قبول الحياة بعد الموت، وعليه يكون النشور في كلا الحالتين أمر واحد[6]، أي أن دلالة

---

(1) -الرازي: التفسير الكبير، ج14، ص143، أما الحديث الوارد في هذا الباب فهو ما رواه عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «... ثم يرسل الله أو قال ينزل الله مطرا كأنه الطّل أو الظّن نعمان الشاك، فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى، فإذا هم قيام ينظرون». -رواه الإمام مسلم في صحيح بشرح النووي، كتاب الفتن، باب: ذكر الدجال، دار الفكر، 1401هـ-1981م، مج9، ج20، ص76-77.

(2) -الرازي: المصدر السابق، ج14، ص143.

(3) -سورة الزخرف، الآية: 11.

(4) -الرازي: المصدر السابق، ج27، ص168.

(5) -سورة فاطر، الآية: 9.

(6) -الرازي: المصدر السابق، ج26، ص7.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إحــياء الأرض الميتة وإخراج فيها النبات على إمكان البعث تكمن في القدرة على الإحياء، وإرجاع قــوة النشوء والنماء إلى الجسم، لكن إذا كانت عودتها إلى النبات بواسطة الماء؛ فالأمر يبقى في علمه تعالى وحده بالنسبة للإنسان[1].

ويمكــن إرجاع السبب في ترجيح الرازي للقول الأول في كيفية بعث الأجساد، ودلالة خلق النـبات علـيها، أنه لم يأخذ بعين الاعتبار الأحاديث المروية فيما يخص الخلية الموجودة في الإنسان، والتي هي الأصل الذي منه يتم إعادة إحيائه، وهو ما يُعرف بـ"عَجْبِ الذَّنَب"، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون، قالوا: أربعون يوما؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهرا؟، قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت، ثم ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، ولـيس مــن الإنســان شــيء لا يبلى إلا عظما واحدا وهو عَجْبُ الذَّنَب، منه يُركب الخَلْق يوم القيامة"»[2].

وعــن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الإنسان عظما لا تأكله الأرض أبدا فيه يركب يوم القيامة، قالوا: أي عظم هو يا رسول الله؟ قال: عجْب الذَّنَب»[3]؛ ففي كلا الحديثين الشــريفين تأكــيد على أن كيفية بعث الأجساد بعد موتها لا تختلف عن إحياء الأرض الميتة وخلق النبات، وأن ما جاء من تشبيه في الآيات القرآنية التي تناولت دلالة إخراج النبات من الأرض، بإعادة إحــياء الموتى، والتي وردت في قالب ضرب الأمثال، هي أقيسة نبه بها ﷻ عن عدم اختلاف الأمر فيهما، إذ الحكم على الشيء، حكم على مثله؛ لأن المتماثلين متساويين في الخضوع للقدرة الإلهية في وجودهما.

فــإذا كان إخراج النبات السبب فيه هو سقي البذرة بالماء، فإن هذه الأحاديث النبوية تبين وتؤكد أن الأمر نفسه بالنسبة لإحياء الموتى، إذ تنبت الأجسام تحت الأرض من عجب الذنب، كما

---

(1)-الرازي: التفسير الكبير، ج28، ص157.

(2)-رواه الإمــام مسـلم في صحيحه بشرح النووي، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ما بين النفختين، مج9، ج20، ص91-92.

-وورواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة 39، الزمر، باب: قوله ونفخ في السور فصعق من في السماوات ومن في الأرض، دار الفكر، (د.ط)، 1401هـ-1981م، مج3، ج6، ص34.

(3)-رواه الإمــام مسلم في صحيحه بشرح النووي، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: ما بين النفختين، مج9، ج20، ص92.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ينبت البقل، ذلك أن الإنسان له بذرة منها يعود إلى الحياة من جديد، كما هو الأمر بالنسبة للنباتات. التي أكد العلماء أن بذورها خُلقت خلقا يجعلها في منأى عن التلف، فقد تبقى في الأرض لسنوات دون أن تفقد خاصية النمو، محافظة على مكوناتها، وما إن تُسقى يخرج منها النبات، مما يجعل الأرض الجرداء لفترة طويلة، جنة خضراء بسقيها لأيام معدودة، فالذي فعل بها ذلك هي القدرة الإلهية، إذ جعل سبحانه وتعالى البذور على استعداد دائم للنشوء؛ لما تحتوي عليه من خصائص النمو[1].

ومن ثمة فعجْب الذّنَب، ذلك العظيم الصغير الموجود في أسفل العمود الفقري للإنسان، وبالتحديد في العصعص، هو البذرة التي تحتوي على خلية حية تتضمن خصائص الجسم[2]، والتي تبقى حية بعد الموت؛ لأن عجب الذنب لا يفنى ولا يبلى إلى أن يشاء الله بعث الموتى، لكن قد يقال بأن بذرة النبات تجد ظروف ملائمة لنمورها، فماذا عن خلية بعث الأجساد؟

فاستنادا إلى ما ورد في الأحاديث النبوية، نقول أن الأمر بيد الله ﷻ، إذ يترل الماء من السماء فتنبت الأجزاء تحت الأرض كما ينبت النبات، ويتم إعادة خلق الأجساد كما كانت قبل موتها، ومتى أصبحت تامة التكوين أرسل إليها خالقهاالأرواح، التي قُبضت بأمره، فتحيا وتُبعث من جديد، وما تقنية الاستنساخ إلا عملية تعين على فهم حقيقة البعث.

وبذلك تكون حقيقة البعث مبنية على حقيقة الخلق، التي هي قضية مشهودة أمام أعين الناس، ودلالتها على ذلك واضحة وقاطعة، فيكفي تدبر خلق السماوات والأرض إلى جانب خلق النبات، لإدراك طلاقة القدرة الإلهية على فعل كل شيء، لكمال علمه سبحانه وتعالى، وسعة إحاطته بما في الوجود، والذي لا يعجزه إعادة إحياء الموتى.

---

(1)-محمد راتب النابلسي: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، آيات الله في الآفاق، ص238.

(2)-العربي بن عمار: "دليل البعث موجود فينا"، مجلة الهداية، الصادرة عن المجلس الإسلامي الأعلى، تونس، ع150، ربيع الثاني- جمادى الثانية 1423هـ، جوان-أوت 2002م، ص184.

المبحث الثالث: طريق الإحكام والإتقان

الإحكام والإتقان أو ما يُعرف بالنظام، هو إحدى طرق الاستدلال بالآيات الكونية عند الرازي، ذلك أن «من تدبر أجزاء العالم الأعلى والأسفل ظهر له أن هذا العالم مبني على الوجه الأصلح والأصوب، والترتيب الأفضل والأتقن، وصريح العقل شاهد بأن وقوع الشيء على هذا الوجه لا يكون إلا بتدبير حكيم عالم»[1]، أي أن منطلق هذا الدليل هو الترتيب الحاصل في عناصر الكون، وما تخضع له في وجودها من تقدير، سواء في تركيبها وحركاتها أو في كيفياتها، مع ما ينشأ بينها من تناسق وانسجام في علاقات قائمة على سنن منتظمة رغم اختلاف أحوالها، مما يدل على قدرة وعلم موجدها.

ذلك أننا نرى في هذا الوجود نظاما حاكيا عن نوع من التدبير فيه، والمضاد للصدفة، التي لا يمكنها أن توجد مثله، إذ كان خلقه سبحانه وتعالى «ما أراد وفق ما أراد موصوفا بالإحكام والإتقان، مبرأ عن الفسخ والاضطراب»[2].

وقد جاء الوحي الإلهي مؤكدا حقيقة هذا النظام في الوجود الكوني، وارتباط الإحكام والإتقان بأصل خلق عناصر الكون، والبناء العام لها، فقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[3]، وتقدير الشيء معناه جعله على مقدار معين ووجه مخصوص[4]، وبذلك يكون كل عنصر في الآفاق وجد على كيفية مخصوصة وبكمية محدودة، وفق تقدير محكم لا مجال فيه للمصادفة، التي إن أظهرت ذلك في أمر ما؛ فإنها لا تظهره في كل شيء، في حين نرى الكون بأكمله مسوّى بدقة في جميع مظاهره، بما يدل على أنه ﴿...صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[5]، والذي جعل خلقه وحدة متماسكة الأجزاء؛ لأنه جل جلاله ﴿...وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[6]، مما ينفي عنه الفوضى والاضطراب، أو ما عبّر عنه القرآن الكريم بالتفاوت في قوله تعالى: ﴿...مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ

---

(1)-الرازي: المطالب العالية في العلم الإلهي، ج1، ص233.

(2)-الرازي: التفسير الكبير، ج31، ص139.

(3)-سورة القمر، الآية: 49.

(4)-الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص658.

(5)-سورة النمل، الآية: 88.

(6)-سورة الفرقان، الآية: 2.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مِن تَفَاوُتٍ﴾[1].

وكل ذلك كان لحسن التدبير، الذي أخضع الكون لبالغ الدقة والانتظام؛ فكان محكم الإتقان الأمر الذي ليس في مقدور أي مخلوق الإحاطة بعلمه، ناهيك عن إقامته والتحكم فيه، إذ ما كشف عنه الإنسان ما هو إلا جزء يسير من السنن الإلهية التي يخضع لها هذا الوجود؛ لذلك ليس بمقدور أي أحد إنكار ما تخضع له عناصر الكون من نظام، ولو صدر منه ذلك لقضى على أهم ركيزة للعلوم الكونية، التي تعد فيها السنن والمقادير الكونية الأساس الذي يُبنى عليه أيّ تصوّر وتفسير لظواهر الكون.

أما دلالة هذا الطريق على الوجود الغيبي، فإنه يعتمد على النظر والتدبر في عناصر الآفاق، وما تخضع له في وجودها من إحكام وإتقان، الذي «لا يمكن تحصيله إلا بقدرة كاملة متعلقة بجميع الممكنات، وعلم نافذ في جميع المعلومات من الكليات والجزئيات»[2]، ومن ثمة فإن الاستدلال به على عقيدة البعث يستلزم بيان أن القادر على خلق هذا الكون وفق نظام محكم، قادر دون شك على إعادة بعث الموتى، وذلك لكمال قدرته وشمولية علمه.

وتجدر الإشارة إلى أن مظاهر الإحكام والإتقان في الكون بحر لا ساحل له، لذلك سيكون بيان دلالته من خلال عرض نموذجين هما: حفظ السماوات وحركة الكواكب.

المطلب الأول: دلالة حفظ السماوات على عقيدة البعث

تمثل السماء[3] العالم الأعلى في الوجود الكوني، وهي من أعظم المحسوسات؛ لما تحتويه من نظم كونية، إذ يحصي علماء الفلك في الجزء المدرك منها مائتي مليون بليون مجرة على الأقل[4]، كل مجرة فيها عبارة عن تجمع من الكواكب والنجوم، والتي لا حصر لها، إذ ليس في الأمر مبالغة إذا قيل

---

(1)-سورة الملك، الآية: 3.

(2)-الرازي: التفسير الكبير، ج19، ص102.

(3)-في اللغة: هي كل ما علاك فأظلك، وسميت سماء لسموها، فكل ما سماك فهو سما، أي كل ما ارتفع فوق رأسك في هذا الفضاء الذي يمثل الجزء الأعلى للكون. –ابن منظور: لسان العرب، مادة (سماء)، ج14، ص397.

-الرازي: المصدر السابق، ج2، ص156، 111.

(4)-زغلول النجار: السماء في القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1425هـ-2004م، ص313.

أن عددها يفوق بكثير عدد حبات الرمال المتواجدة في شواطئ بحار المعمورة بأكملها[1].

وهذه السماء التي تبدو لنا واحدة، إلا أنها في الحقيقة سبع سماوات، اختصت بتقدير محكم في تركيبها؛ فكانت ﴿...سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾[2]، مما جعلها تبدو وكأنها طبقة واحدة؛ لكون بعضها فوق بعض[3]، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾[4]، منسجمة في وجودها، ومتناسبة فيما بينها، خالية من أي اضطراب، ذلك أن الله ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[5]، ومعنى تسويتها: تعديل خلقها وإخلاؤه من مظاهر العوج، فكان وجودها على أكمل وجه وأحسن حال.

«واعلم أن القرآن ههنا دل على وجود سبع سماوات، وقال أصحاب الهيئة، أقربها إلينا كرة القمر، وفوقها كرة عطارد، ثم كرة الزهرة، ثم كرة الشمس، ثم كرة المريخ، ثم كرة المشتري، ثم كرة زحل»[6]، ومعرفتهم لهذا الترتيب كان من طريق أحوال هذه الكواكب، وذلك اعتمادا على ستر بعضها لبعض في حركتها، مع اختلاف منظرها.

فما يمكن قوله بغض النظر عن صحة هذا الترتيب؛ لكون هذا ما توصلت إليه نتائج العلوم في عصر الرازي، أن هذه الكواكب التي أُخذت على أنها تمثل السماوات السبع، ما هي إلا جزء يسير من كواكب السماء الدنيا –وتحديدا من المجموعة الشمسية–، لذلك احتمال وجود كواكب أخرى أدى بمفكرنا إلى التسليم باحتمال وجود سماوات أخرى رغم تنبيهه على «أنه لا سبيل للعقول البشرية إلى إدراك –مثل– هذه الأشياء، وأنه لا يحيط بها إلا علم فاطرها وخالقها، فوجب الاقتصار فيه على الدلائل السمعية، فإن قال قائل فهل يدل التنصيص على سبع سماوات على نفي العدد الزائد؟ قلنا: الحق أن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفي الزائد»[7].

ولإدراك دلالة الإحكام والإتقان في حفظ السماوات، نجده سبحانه وتعالى يدعونا إلى تدبر

---

(1)-توفيق محمد عز الدين: دليل الأنفس بين القرآن والعلم الحديث، ص317.

(2)-سورة الملك، الآية: 3.

(3)-الرازي: التفسير الكبير، ج23، ص87.

(4)-سورة المؤمنون، الآية: 17،

(5)-سورة البقرة، الآية: 29.

(6)-الرازي: المصدر السابق، ج2، ص156. –ج4، ص180.

(7)-الرازي: المصدر نفسه، ج2، ص158.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هذه الحقيقة في وجودها المحسوس، وذلك لمعرفة بعدها الغيبي؛ فقال جلا جلاله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾[1]، ذلك أن ﴿...مِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾[2]، وهي دعوة للتفكر، والبحث عن سر بقاء هذه السماوات محفوظة في الفضاء ولا تزول، دون أن تقوم على عمد مرئية، بل «نظرة جديدة بأن تفتح البصيرة على اليد التي تمسك بها وتحفظ توازنها، وقد تحقق شيء من هذه الدعوة في العصر الحديث، واستطاع علماء الفلك استكناه بعض حقائق هذه النواميس الكونية»[3]، ويتمثل ذلك في قانون الجاذبية.

ويعد هذا القانون الكوني من الثوابت العلمية، وسنة من سنن الله في خلقه، أودعها في كل عنصر من عناصر الآفاق؛ لتكون مرتبطة فيما بينها، وهو ما يحافظ على توازنها في هذا الوجود[4]، الذي تجلى في حفظ السماوات في الفضاء دون أن تسقط، أو تكون عرضة للفوضى والاضطراب، وفيما عبر عنها القرآن الكريم بالعمد غير المرئية، سماها الرازي بقدرة الله الحافظة[5] لهذه السماوات على الوجه المشهود، إذ لو لا هذا الرباط المودع فيها ما بقيت بناء محكم الإتقان.

فإرجاع الرازي هذه القوة الممسكة للسماوات، المحافظة على بقائها في الفضاء إلى القدرة الإلهية، ينم عن قدرته على توظيف الحقائق العلمية في استدلاله بالآيات الكونية، كما أن عمله هذا مقبولا إلى حد بعيد بالنسبة إلى مستوى التطور العلمي في عصره، إذ لا يكتفي بما توصل إليه العلم من نتائج، إنما يحاول إعطاء تفسيرا لظواهر كونية مشهودة انطلاقا من مضمون النص القرآني.

وحاصل الكلام أنه تعالى كما قدر على خلق السماوات بذلك الإحكام والإتقان، وإبقائها محفوظة دون اضطراب وفق قانون كوني محكم التنظيم، مما أعجز الخلق عن فك طلاسم حقيقة النظام في الكون لفترة طويلة، فإنه قادر على بعث الناس بعد موتهم؛ ليحاسبهم حيث لا يشغله شأن عن شأن، إذ أن هذه الدلائل تدل على أنه سبحانه وتعالى عالم بكل المعلومات، قادر على كل الموجودات، فلما كان كذلك وجب أن يكون قادرا على إعادة تركيب تلك الأجسام كما كانت،

---

(1)-سورة الغاشية، الآيتان 17-18.

(2)-سورة الروم، الآية: 25.

(3)-يوسف تيتواح: عالم الغيب والشهادة عند فخر الدين الرازي، رسالة ماجستير، قسم الفلسفة، كلية الآداب، الجامعة الأردنية، 1405هـ-1985م، ص39.

(4)-زغلول النجار: السماء في القرآن الكريم، ص351.

(5)-الرازي: التفسير الكبير، ج18، ص232.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وإحيائها من جديد[1]، وما هذه الآيات الكونية المشهودة إلا كما قال تعالى: ﴿...لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[2]، إذ خضوع عناصر الوجود إلى النظام المحكم الإتقان من دلائل صحة المعاد مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ. ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ.وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾[3]؛ لذلك لا بد من إدراك بعدها الغيبي إلى جانب بعدها المادي، لأن موجدها هو الذي ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ. ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ. الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ. ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ. وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ. قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[4].

وظاهرة الإحكام والإتقان في السماوات تؤكدها المشاهدة، ذلك أن «الحس دل على أن هذه السماوات السبع أجسام مخلوقة على وجه الإحكام والإتقان، وكل فاعل كان فعله محكما متقنا لا بد وأن يكون عالما»[5]، هذه الحقيقة المشهودة أقسم بها سبحانه وتعالى في آياته المقروءة فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾[6]، أي ذات الإحكام المتقن في وجودها، علما أن الآيات القرآنية الواردة بصيغة القسم، هي تنبيه إلى عظمة الأمر المقسم به؛ لذلك تلفت هذه الآية الانتباه إلى ظاهرة الانتظام في السماوات، كونها من الآيات الكونية العظيمة، والتي من أهم مظاهر ذلك في خلقها:

أنها شاسعة الاتساع، عظيمة البناء، ومع ذلك فهي متقنة الخلق، ذات ترابط محكم في كل أجزائها، مما جعلها سقفا محفوظا، تمسكه قوى من أن يلحقه أي خلل يؤدي إلى اضطرابه، مصداقا

---

(1)-الرازي: التفسير الكبير، ج23، ص10، 88.

(2)-سورة الرعد، الآية: 2

(3)-سورة المؤمنون، الآيات: 12-17.

(4)-سورة السجدة، الآيات: 5-11.

(5)-الرازي: المصدر السابق، ج30، ص58.

(6)-سورة الذاريات، الآية: 7.

لقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[1]، لكونها محكمة الإتقان، «إذ حقيقة التفاوت، عدم التناسق، وكأن بعض الشيء يفوت بعض ولا يلائمه، وهذا منفي عن السماوات»[2]، فعلى عظمة خلقها إلا أن وجودها كان في غاية الدقة والانتظام، خال من أي مظهر للفوضى والاضطراب، مما يدل على طلاقة قدرة موجدها وشمولية علمه.

ولقد جاء ذكر ما في هذه السماوات من تدبير محكم، الدال على عظمتها في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾[3]، إشارة إلى الدليل الذي يدفع قول منكري البعث: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾[4]، إذ ظاهرة الإحكام والإتقان في وجود السماوات ماثلة فوق رؤوسهم غير غائبة عنهم، ذلك أنها كانت خالية من أي فروج؛ لانتفاء أمر الاضطراب فيها المؤدي إلى الفتور.

أما دلالتها على بعث الموتى، وأولوية وقوع الرجع في حقهم، أن الإنسان له أساس هي العظام كالدعامة، وقوى من أنواع السمع والبصر؛ فبناء السماوات بهذا الإحكام الخالي من التفاوت والفتور أعظم من أساس البدن، كما أن زينة السماء أكمل من زينة الإنسان بلحم وشحم، وبذلك فالسماء ما لها من فروج، تأليفها أشد، أما للإنسان فروج ومسام، ولا شك أن التأليف الأشد كالنسج الأصفق، والتأليف الأضعف كالنسج الأسخف، وكون الأول أصعب عند الناس وأعجب، فكيف يستبعد وقوع الأدون مع علمهم بوجود الأعلى –السماوات–، الذي كان بقدرة الله تعالى[5].

كما تتجلى حقيقة الإحكام والإتقان في السماوات، كونها بناء مرفوعا، وسقفا محفوظا من الوقوع على الأرض، ومن الزوال –إلا بإذنه تعالى–، وهو ما ورد تقريره في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾[6]، وهو ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ

[1]–سورة الملك، الآيتان: 3-4.

[2]–الرازي: التفسير الكبير، ج30، ص57.

[3]–سورة ق، الآية: 6.

[4]–سورة ق، الآية: 3.

[5]–الرازي: المصدر السابق، ج28، ص155.

[6]–سورة غافر، الآية: 64.

بِنَاءً﴾[1]، إضافة إلى قوله جل جلاله: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾[2] إذ رغم عظمة هذا النظام الذي جعل السماوات سقفا محفوظا في الفضاء، وبناء قائما؛ فإن هناك من هو غافل عن التفكير فيه، ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ. إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[3]، لذلك وجه الخطاب الإلهي الإنسان إلى تدبر وجودها المنتظم، وإدراك حقيقته؛ فقال ﷻ مقسما: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾[4]، ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾[5].

ويكون تدبر السماوات وما فيها من انتظام، من حيث أنها بقيت معلقة في الفضاء بلا عمد، ولا سلسلة، وفي ذلك يقول الرازي: «إن هذه الأجسام العظيمة بقيت واقفة في الجو العالي، ويستحيل أن يكون بقاؤها هناك لأعيانها ولذواتها»[6]، ذلك أن السماء في مكان وهو فضاء، الفضاء لا نهاية له، وكونها في بعضه دون غيره ليس إلا بقدرة مختارة[7]، هي التي تمنعها من الزوال من موضعها مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[8].

لهذا، فإن بقاء السماوات محفوظة، ليس أمرا واجبا لذاته، بل لابد من مخصص ومرجح، ولا يجوز أن يقال أنها بقيت بسلسلة فوقها ولا عمد تحتها، وإلا لعاد الكلام في ذلك الحافظ، ولزم المرور إلى ما لا نهاية له –وهو محال–، ومنه بقيت السماوات محفوظة؛ لأجل أن مدبر العالم أوقفها هناك بقدرته، فهو ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[9]، وذلك

---

(1)–سورة البقرة، الآية: 22.

(2)–سورة الأنبياء، الآية: 32.

(3)–سورة غافر، الآيتان: 58-59.

(4)–سورة الطور، الآية: 5.

(5)–سورة الشمس، الآية: 5.

(6)–الرازي: التفسير الكبير، ج18، ص232.

(7)–الرازي: المصدر نفسه، ج25، ص143.

(8)–سورة فاطر، الآية: 41.

(9)–سورة الرعد، الآية: 2.

الحفظ أصل في خلقها، وليس هو أمر عارض مصداقا لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[1]، «وحينئذ يكون عمدها هو قدرة الله؛ فنتج أن يقال أنه رفع السماوات بغير عمد، أي لها عمد في الحقيقة، إلا أن تلك العمد هي قدرة الله تعالى وحفظه وتدبيره، غير أنهم لا يرون ذلك التدبير، ولا يعرفون كيفية ذلك الإمساك؛ فالقادر على إبقائها في الجو العالي بتدبيره، لا يعجزه دون شك بعث الأموات، مما يدل على صحة المعاد»[2].

المطلب الثاني: دلالة حركة الكواكب على عقيدة البعث

لمعرفة حقيقة الإحكام والإتقان في عناصر الكون بوضوح أكثر، نقف عند أحد ظواهر الأجسام الموجودة في السماوات، والمتمثلة في الكواكب، وما تخضع له من حركة، سواء تلك العامة التي تشملها جميعا داخل المجرة المنتمية إليها، أو ما ينفرد به كل كوكب من حركة خاصة، وهي حركات منتظمة في مقاديرها ومساراتها[3]، لا مجال فيها للاضطراب والفوضى، حيث تمثل كل مجرة نظاما ثابتا في حركة كواكبها بالداخل منها، دون أن يقترب بعضها من بعض ولا أن يبتعد، مشكلة بذلك نسقا في غاية الانتظام.

هذه الحركة الدالة على خضوع الكواكب في وجودها لنوع من الإحكام والإتقان، لو تدبرها الإنسان وتفكر فيها لأدرك عظمة وقدرة موجدها؛ لذلك يعتبرها الرازي من الأمور الواجب معرفتها للاستدلال بأحوال السماوات، وهو ما يلفت الانتباه في "تفسيره الكبير"، بعقده فصولا مطولة للتعريف بتلك الكواكب، وبيان ترتيبها ومقادير حركاتها[4]، قبل عرضه لكيفية الاستدلال بها على الحقائق الإيمانية، معتمدا في ذلك على ما توصلت إليه العلوم في عصره.

وعلم الفلك في عصر مفكرنا –على حسب ما أورده– لم يتوصل إلى معرفة إلا تسعة كواكب، أما ترتيبها بالنسبة لموقعها من الأرض؛ فنجد أقربها فلك القمر، وفوقها كرة عطارد، ثم كرة الزهرة، ثم كرة الشمس، ثم كرة المريخ، بعدها كرة المشتري، فكرة زحل، ثم كرة الثوابت

---

[1]–سورة لقمان، الآية: 10.

[2]–الرازي: التفسير الكبير، ج18، ص232.

[3]–عبد المجيد النجار: الإيمان بالله وأثره في الحياة، ص90.

[4]–الرازي: المصدر السابق، ج4، ص180-186.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وآخرها الفلك الأعظم[1]، مع إقرار الرازي بإمكانية وجود غيرها، إلا أن الآلات لم تسعف – حينها– في اكتشافها، إذ يقول: «والحق أن الرصد لما دل على هذه التسعة أثبتناها، فأما ما عداها فلم يدل الرصد عليه لا جرم ما جزمنا بثبوتها، ولا بانتفائها»[2]، وهو اعتراف منه بنسبية نتائج العلوم.

مع الإشارة إلى أن أهم طرق معرفة ترتيب هذه الكواكب سترها، وذلك أن الأسفل منها إذا مر بين أبصارنا وبين الكوكب الأعلى، فإنهما يصيران كوكبا واحدا، ويتميز الساتر عن المستور بلونه الغالب، باعتبار أن لكل منها لونا خاصا، إذ القمر يكسف الكواكب الستة، وعطارد يكسف الزهرة، التي تكسف بدورها المريخ، وهكذا بالنسبة للبقية، وإذا كان ترتيبها يدل على كون القمر تحت الشمس؛ لانكسافها به، فإنه لا يحدد موقع الشمس لأنها لا تنكسف بشيء من الكواكب؛ التي تضمحل أضواؤها في ضوئها، مما يؤكد عدم جدوى هذا الطريق في تحديد موقع الشمس[3]؛ لهذا يعرض الرازي طرق أخرى لمعرفة ترتيب تلك المواقع بإحكام وإتقان.

على أن ما ورد في "التفسير الكبير" من معارف فلكية، فيما يتعلق بترتيب تلك الكواكب وحركاتها، لا تهمنا مدى صحتها بقدر ما يهمنا الغرض منها، المتمثل في إثبات أن النظام المحيّر للعقول الذي تخضع له في وجودها، لا يمكن أن يُنسب إلى الصدفة، بل هو من أكبر الدلائل على وجود منظم لعناصر الكون، خلق كل شيء بقدر، ذلك «أن أجرام الأفلاك بحركاتها بالمقادير المخصوصة في البطء والسرعة... لا يمكن تحصيله إلا بقدرة كاملة متعلقة بجميع الممكنات، وعلم نافذ في جميع المعلومات من الكليات والجزئيات... وليست هذه الأحوال والصفات بالطبع والخاصية، وإنما بتخصيص الفاعل المختار»[4]، وهذه القدرة التي أوجدت كل هذا الإحكام والإتقان، هي القادرة على بعث من في القبور، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ. وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ. وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِيْن مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ. كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[5].

---

[1]–الرازي: التفسير الكبير، ج4، ص180.

[2]–الرازي: المصدر نفسه، ج4، ص181.

[3]–الرازي: المصدر نفسه، ج4، ص180.

[4]–الرازي: المصدر نفسه، ج19، ص102.

[5]–سورة الأنبياء، الآيات: 32-35.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لذلك من أوجه الاستدلال بأحوال الكواكب، النظر إلى النظام الذي تخضع له، والذي يتجلى من خلال اختصاص كل منها بنوع معين من الحركة في البطء والسرعة؛ فنجد الفلك الأعظم مع نهاية اتساعه وعِظمه يدور دورة واحدة في اليوم بليله، والفلك الثامن –الثوابت- الأصغر من سابقه يُتم دورته في ست وثلاثين ألف سنة، فاختصاص الأول بمزيد السرعة، والثاني بمزيد البطء، مع أنه خلاف حكم العقل؛ لكون الأوسع ينبغي أن يكون أبطأ حركة لعظم مداره، والأصغر أسرع لصغر مداره، مما يدل على أن الأمر ليس إلا لمخصص، ومنه فالعقل يقضي بأن تلك الكواكب إنما اختص كل واحد منها بما هو عليه من الحركة، بتقدير العزيز العليم[1]، الذي أخضعها لنظام محكم الإتقان، على اختلاف مقاديرها، وتفاوت مراتبها.

كما يبرز ذلك بالنظر إلى اختصاص كل كوكب بحيّز معين، إذ نجد لكل واحد من تلك الكواكب مدارات مخصوصة، حسب سرعتها ومرتبتها، وهو أمر جائز يقضي العقل بافتقاره إلى المقتضي[2]، ذلك أن هذه الأجسام متساوية في الماهية، لو وجب حصول أي منها في حيز ما، لوجب حصول كل منها في ذلك الحيز، إضافة إلى أن الفضاء لا نهاية له، والأحياز المعترضة فيه غير متناهية ومتشابهة؛ فحصول تلك الأجرام في مداراتها ليس بالأمر الواجب لذاته، بل لابد من مخصص لها. ومنه يكون بقاؤها في أحيازها مع انفراد كل منها بحركة محددة، ما هو إلا دلالة على أن خالقها أوجدها كذلك بقدرته وعلمه[3].

وقد جاء التنبيه إلى هذه الظاهرة الكونية في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[4]، والمواقع هي الأماكن التي تمر بها في حركتها عبر السماء، محتفظة في ذلك بكل من علاقاتها المحددة فيما بينها، سرعة سيرها، والأبعاد الفاصلة بينها، إضافة إلى قوى الجاذبية التي تربطها ببعضها[5]، وفي اختصاص مواقعها للقسم بها فائدة جليلة؛ لكونها من الدلائل، إذ وجود كل واحد منها في موضع محدد من السماء، دون غيره من المواضع مع تساويها، في الحقيقة هي دليل الفاعل المختار؛ لأن كل ما جعله الله جل جلاله قسما، فهو دليل في نفسه، والقسم كان بالمواقع

---

(1)-الرازي: التفسير الكبير، ج4، ص187.

(2)-الرازي: المصدر نفسه، ج4، ص184.

(3)-الرازي: المصدر نفسه، ج18، ص231-232.

(4)-سورة الواقعة، الآيتان: 75-76.

(5)-زغلول النجار: السماء في القرآن الكريم، ص196.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لا بالنجوم، مما يعني أنه «دليل وبرهان قوي لو تعلمون وجهه لاعترفتم بمدلوله، وهو التوحيد والقدرة على الحشر، وذلك لأن دلالة اختصاص الكواكب بمواضعها في غاية الظهور ولا يلزم الفلاسفة دليل أظهر منه»[1]، وما سبب الإنكار الحاصل إلا عدم التدبر لمثل هذه الآيات الكونية المشهودة، أيكون هذا الترتيب العجيب في تركيب الكواكب، وائتلاف حركاتها واقع بالجزاف والعبث؟

إن المطلع على "التفسير الكبير" يدرك الاهتمام البالغ للرازي، بإظهار ما أودعه الله سبحانه وتعالى في الكون من إحكام وإتقان، مما ينفي العفوية والصدفة في حركة الكواكب، رابطا بين ذلك وبين دلالتها على طلاقة القدرة الإلهية، وشمولية علمه ﷻ، مما ينفي القول بوجود هذا الانتظام جوازا واتفاقا، فنظرا إلى أنها محدثة ومختصة بمقدار محدد، وموضع خاص، وحركة معينة، مما جعلها تخضع في وجودها لتقدير محكم الإتقان؛ فإنها تدل على أن موجدها قادرا عالما[2].

هذه الحقيقة التي ليس في مقدور أحد إنكارها، وفي مقدمتهم معتقدي النظام الميكانيكي للسماوات، حيث يؤكد نيوتن –المنتمي إلى أصحاب هذا الاعتقاد– أن الله ضروري لإحداث حركة الكواكب وتنظيمها، إذ يقول: «إن حركات الكواكب الراهنة لا يمكن أن تكون قد انبثقت من أي علة طبيعية فحسب، بل كانت بفعل قوة عاقلة»[3]. وهو الخالق الذي «يحكمها كلها ليس كروح، بل كسيد مالك لكل الأشياء، وبسبب سلطته العليا الغالبة، فهو يُدعى عادة بالسيد الإله القدير»[4].

وبذلك يرد على أصحاب الاتجاه المادي في علم الفلك، المدعين أن أصل النظام المشاهد في الكون، وبقاءه يمكن تفسيره بالصدفة[5]؛ لأنها أمور غامضة لا يمكن تفسيرها، ولا هي نتيجة لتدخل خارجي. كما يفنّد هذه النظرة المجانبة للصواب القانون الثاني في "التيرموديناميك" –أحد قوانين الفيزياء الحديثة–، والمعروف بـ"الأنتروبي"، الذي من نتائجه أن النظام الذي حصل عقب الخلق –الانفجار الكبير–، هو تغير من الفوضى إلى الإحكام والإتقان، والتي كانت ستبقى لو تعاظم الأنتروبي، لكن تم الخروج منه –كقانون كوني سيتحقق في آخر الزمان–، وذلك بوجود خارق

(1)–الرازي: التفسير الكبير، ج29، ص188-189.

(2)–الرازي: المصدر نفسه، ج30، ص59.

(3)–أغروس. م. روبرت، جورج. ن. ستانسيو: العلم في منظوره الجديد، ص58.

(4)–والقول لإسحاق نيوتن، أحد الرواد المؤسسين للفيزياء الحديثة وعلم الفلك. -يحي هارون: خلق الكون، ص51 (بالهامش).

(5)–يحيى هارون: المرجع نفسه، ص69.

للطبيعة[1].

كما يذكر الرازي مثال يوضح به هذه الحقيقة، فيقول: «إن جُوّز في بناء رفيع وقصر مشيّد أن التراب والماء انظم أحدهما إلى الآخر ثم تولد منهما لبنات، ثم تركبها قصر مشيد وبناء عال، فإنه يقضي عليه بالجنون، ونحن نعلم أن تركيب هذه الأفلاك وما فيها من الكواكب، وما لها من الحركات ليس أقل من ذلك البناء؛ فثبت أنه لابد فيها من رعاية حكمة»[2]، لا واقعة نتيجة الجزاف والعبث.

وهو ما يستبعده العقل وتبطله المشاهدة، إذ الأمر لا يخلو إما أن يقال أن الكواكب متحركة بنفسها، أو يقال أن محركها مدبرا قاهرا، والأول باطل لأن حركتها إما أن تكون طالبة استكمالها، أو لا لهذا الغرض؛ فإن كانت طالبة بحركاتها لتحصيل كمال، فهي ناقصة في ذواتها، والناقص بذاته يحتاج إلى مكمل، فتكون محتاجة. وإن لم تكن لهذا الغرض فهي عابثة في أفعالها، وهو ما يستحيل في العقل، ومنه لم يبق قسم أليق بالذهاب إليه، إلا أن مدبرا قادرا عالما يحركها لأسرار مخفية وحكم لطيفة[3]، وما على الإنسان إلا الإيمان بحقيقتها في بعديها المادي والغيبي.

ذلك أن الكواكب التي يحكي سيرها عن تدبير الخالق لها، الذي أوجدها وفق تقدير محكم، إذا وجدت حسا سليما وعقلا متفتحا، كانت منطلقا للإنسان لإدراك الحقيقة، بما تكشف له من معالم الطريق السوي في تحصيل اليقين، الأمر الذي نبه إليه الرازي في تقريره لقواعد منهجه في الاستدلال بالآيات الكونية، إذ ما كشف العلم لبعض القوانين التي تخضع لها الكواكب في حركتها إلا تحقيقا لوعده سبحانه وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[4].

هذا الحق الذي جاء مسطورا في الوحي المقروء، كما هو مشهود في الكون المنظور، والذي منه حقيقة بعث الموتى، مع العلم «أن الدلائل المذكورة كما تدل على وجود الصانع الحكيم، فهي أيضا تدل على صحة القول بالحشر والنشر؛ لأن من قدر على خلق هذه الأشياء وتدبيرها على

(1)-يحيى هارون: خلق الكون، ص64-65.

(2)-الرازي: التفسير الكبير ، ج4، ص188.

(3)-الرازي: المصدر نفسه ، ج4، ص188.

(4)-سورة فصلت، الآية: 53.

عظمتها وكثرتها، فلأن يقدر على الحشر والنشر كان أولى»[1].

ولإدراك ذلك جاء التوجيه الإلهي للإنسان إلى أكثر الكواكب وضوحا للمشاهدة بالعين المجردة، وهي الشمس والقمر، إذ تشير الآيات القرآنية إلى وجودهما المحكم الإتقان فتصفهما بالحسبان في كل من قوله تعالى: ﴿...وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾[2]، وقوله جل جلاله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[3]، أي يسيران بحساب دقيق، وقدر معلوم، ذلك أن حركة القمر تتم في شهر حول الأرض وحول محوره، كما يتم دورته السنوية حول الشمس، أما الشمس فهي بدورها ليست ثابتة، إذ تتحرك في فضاء مجرة درب التبانة -بسرعة 19كلم/ثا-، فتقوم بدورة كاملة حول مركز المجرة في مائتي وخمس وعشرين مليون عام كما تتم دورتها حول نفسها في خمس وعشرين يوما، تسع ساعات وخمس وثلاثين دقيقة[4]، أي أنها تجري لمستقر لها مع كواكب المجموعة الشمسية حول مركز مجرتنا، إضافة إلى حركة كل كوكب منهم في مداره الخاص[5]، مصداقا لقوله تعالى: ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[6]، فالحكمة الإلهية اقتضت الدقة في حركتهما مما يجنبهما الاصطدام أو الخروج عن المسار المحدد لكل منهما، ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، إذ مدار الشمس لا يتصل بمدار القمر، ولن يصطدما ببعضهما أبدا.

ذلك أن ﴿... الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ... وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ. فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ. وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ. قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا

---

[1]-الرازي: التفسير الكبير، ج18، ص234.

[2]-سورة الأنعام، الآية: 96.

[3]-سورة الرحمن، الآية: 5.

[4]-James Mitchel et autres : L'univers, traduction. Eve Boisseau, édition larousse, P.68.

[5]-زغلول النجار: السماء في القرآن الكريم، ص203، 455.

-الرازي: المصدر السابق، ج13، ص111.

[6]-سورة يس، الآية: 40.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿مَا وَعَدَ الرَّحْمَانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾[1]، وتحقيقه أنه تعالى قدّر لكل منهما سيرا خاصا إلى جهة خاصة، بمقدار خاص من السرعة والبطء، في مدار محدد لا يزيد ولا ينقص، ومتى كان الأمر كذلك لزم أن يكون لهما بحسب كل لحظة حالة ما كانت حاصلة قبل ذلك[2]، مثاله حصول الأحوال المختلفة للقمر بسبب محوه الحاصل من دورانه حول الأرض في منازل محددة، متدرجا في مراحل متعاقبة حتى يصبح هلالا بعد أن كان بدرا في طور اكتماله، مما يدل على أن ما يحصل له ليس بسبب الطبيعة، بل بقدرة الفاعل المختار؛ لذلك فالتغير الحاصل في وجهه –القمر- هو أيضا برهان عظيم على قول المسلمين في المبدأ والمعاد[3].

وكل هذه الدلائل إنما يراد من تقريرها التنبيه على أن المؤثر في القول فاعل بالاختيار لا موجب بالذات[4]، وإدراك ذلك الإحكام والإتقان يثبت استحالة أن يكون خلق هذا الوجود بما فيه الإنسان عبثا، مصداقا لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[5].

في حين من لا يتدبر ذلك الإحكام والإتقان، الذي يوحي بأن لعناصر الكون خالقا مدبرا لا يتسنى له إدراك أن البعث ضرورة من الضرورات التي يؤكدها النظام الكوني، أين يتم العدل بين البشر كما كان العدل في إقامة السماوات والأرض، إذ كانت مقاديرها متعادلة متكافئة؛ فلو كان بعضها أزيد بحسب الكمية أو بحسب الكيفية من الأخرى لاستولى الغالب على المغلوب، ولانقلبت بذلك الطبائع كلها إلى طبيعة الجرم الغالب[6].

ومن ثمة يكون النظام الكوني، وما تخضع له عناصر الكون من إحكام وإتقان، من أهم المجالات التي على الإنسان قراءتها في الكتاب المحكم التنزيل، وتدبرها في الكون المشهود، وذلك لإدراك بعديها الغيبي والمادي، ومن ذلك دلالتها على عقيدة البعث، إذ العاقل أول ما ينظر إلى خلق الكون يعلم أن له خالقا؛ فلا يقطع النظر عن تدبره لأحواله حتى يدرك وجوده المحكم الإتقان، وإذا

---

(1)-سورة يس، الآيات: 38-40، 48-52.

(2)-الرازي: التفسير الكبير، ج18، ص234.

(3)-الرازي: المصدر نفسه، ج20، ص165.

(4)-الرازي: المصدر نفسه، ج20، ص165.

(5)-سورة آل عمران، الآية: 191.

(6)-الرازي: المصدر السابق، ج19، ص102.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

علم الإنسان ذلك أدرك أن موجدها كامل القدرة، شامل العلم، مما يؤدي إلى تيقنه من أن هذا الخالق كما لا يعزب عن علمه أجزاء الموجودات في الأرض ولا في السماوات، لا يعجزه جمع ما تفرق ولا إحياء ما هو رميم، مما يؤدي إلى تحصيل الإيمان بتمام المعاد من طريق ما خلقه الله على أحسن نظام[1].

فالله جل جلاله وضع في الكون سنن متدرجة ليتمكن الإنسان من معرفتها، ومن ثمة توظيفها في أداء واجبه الاستخلافي، وإذا عرفت هذا عن الإحكام والإتقان في الوجود الكوني، من كونه تعالى حافظا للسماوات، ومحركا لكواكبها وفق نظام دقيق، على أنها دلائل القدرة الإلهية على البعث، أدركت أن هذه الأحوال الفلكية أعظم في القلوب وأكثر وقعا، إذ لا تقع عيناك على مشهد من مشاهد الكون إلا وأعطاك ترتيبا عاما، من حيث ارتباط أجزائه ببعضها، ومن حيث تفرد كل جزء منه بترتيبه الخاص.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]-الرازي: التفسير الكبير، ج75، ص71.

المبحث الرابع: طريق الهداية

ويمثل آخر طرق الاستدلال بالآيات الكونية في منهج الرازي،والذي عدّه من الاستدلالات المعتمدة عند الأنبياء[1] -عليهم السلام-، ذلك أن سيدنا موسى ﷺ ورد عنه في إثباته للخالق ﷻ قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[2]، وهي الدلالة التي ذكرها الله تعالى لسيد الخلق ﷺ في قوله جل جلاله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى. الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾[3].

فإذا كان الخلق هو تصيير الشيء موجودا بعد أن كان معدوما، والنظم عبارة عن التصرف في الأجزاء الجسمانية،وتركيبها على وجه خاص، مما يجعلها محكمة الإتقان؛ فإن الهداية هي إيجاد تلك القوة الجذابة للمنافع، الدفاعة للمضار في عناصر الكون، حيث تكون كل قوة مصدر لفعل معين، ويحصل من مجموعها تمام المصلحة[4]، مما يدل على العناية الإلهية بالإنسان، إذ سخّر له ما في الكون ليكون موافقا لمطالبه، الأمر الذي يُمكّنه من تحقيق وظيفته الوجودية.

ذلك أنه بالنظر إلى عناصر الآفاق نجد فيها نوعا من التسخير الدال على الغائية، التي تتجلى في وجود تلك الموجودات على الوجه الأصوب والأصلح، مما يدل على قصد في تكوينها وحكمة في تدبيرها؛ فكان خلقها بالحق مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾[5]، أي أن خلقها واقع وفق مصالح المكلفين مطابقا لمنافعهم، بما أودع فيها خالقها من قوى وخواص، يصدر بسببها عنها آثار مطابقة لمصالح هذا الوجود ومنافعه[6].

فمحل الاعتبار في هذا الطريق، هي المنفعة الحاصلة للإنسان نتيجة عمل عناصر الكون وفق ما يحقق مصالح العباد، ذلك التصرف الدال على أن الله هدى المخلوقات للقيام بوظائفها التي خلقت من أجلها، والتي فيها من القصد في تكوينها والحكمة في تدبيرها ما يدل على قدرة وعلم موجدها،

---

(1)-الرازي: التفسير الكبير، ج22، ص64.

(2)-سورة طه، الآية: 50.

(3)-سورة الأعلى، الآيات: 1-3.

(4)-الرازي: المصدر السابق، ج31، ص139.

(5)-سورة الأنعام، الآية: 73.

(6)-الرازي: المصدر السابق، ج13، ص33-34.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وسعة حكمته.

وبذلك تكون الهداية عامة وشاملة لكل الموجودات، والتي تجعلها تنساق إلى غاياتها، إذ أثبتها سبحانه وتعالى لجميع خلقه في قوله جل جلاله: ﴿...الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[1]، أي هدايته لكل مخلوقاته إلى كمال وجودها، وإيصالها إلى الغاية من خلقها، حيث «أنك إذا فتشت عن كل واحدة من مركبات هذا العالم الجسماني ومفرداتها وجدت لها أشياء تلائمها وتكمل حالها، وأشياء تنافرها وتفسد حالها، ووجدت فيها قوى جذابة للملائم، دفاعة للمنافي، فقد ظهر أن صلاح الحال في هذه الأشياء لا يتم إلا بالخلق والهداية»[2].

وتجدر الإشارة إلى تطرق الرازي في "تفسيره الكبير" إلى مفهوم الهداية[3]، مناقشا مختلف الأقوال فيها، ومفرقا بين الهداية الخاصة بالإنسان التي يقابلها الضلال، والهداية العامة المقصود بها الدلالة، فالله جل جلاله دل هذه الموجودات على سبلها، فكان وجودها وفقا للهداية الإلهية محققا لمنفعة الإنسان، بما أودع فيها من قوى جذابة للمنافع، دفاعة للمضار.

ومن ثمة تمثل الهداية في الموجودات طريقا قائما بذاته، فالاستدلال به يكون بالنظر إلى ما تحققه عناصر الكون من منفعة للإنسان، نتيجة وجودها الموافق لمصالحه، مما يدل على العناية الإلهية بأفضل المخلوقات، والتي سخرت له ما في الكون.

لذلك فعناصره كما هي نعم دنيوية، فهي نعم دينية، وكما فيها منافع مادية، فهي أيضا دلائل إيمانية، ومنها دلالتها على حقيقة البعث، إذ القادر على تسخير ما في الكون للإنسان لا يعجزه إعادة إحياء الموتى، وهو ما سيتضح لنا من خلال النماذج المختارة لبيان حقيقة هذا التسخير ودلالته الإيمانية.

---

[1]-سورة طه، الآية: 50.

[2]-الرازي: التفسير الكبير، ج24، ص144.

[3]-الرازي: المصدر نفسه، ج2، ص19-20.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الأول: دلالة تسخير ما في الأرض على عقيدة البعث

تمثل الأرض العالم الأسفل من الوجود الكوني، وهي أساس ميادين التسخير، لكونها المهد الذي مُكّن فيه الإنسان لأداء وظيفته الوجودية، والمقر الذي يجد فيه ما يحتاج إليه في حياته مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾[1]، الأمر الذي جعل العلاقة بينهما جد وطيدة، وقد عبر عنها الرازي بصلة الأم بأبنائها.

ذلك أن الله تعالى لما خلق الأرض، وكانت كالصدف والذرة المودعة فيه آدم وأولاده، وعلم أصناف حاجاتهم، فكأنه قال يا آدم لا أحوجك إلى شيء غير الأرض، التي هي لك كالأم، بل أشفق منها[2] لمنافعها المختلفة، ونعمها المتعددة.

مع الإشارة إلى أن سبب تقديم دلالة تسخير ما في الأرض على ما في السماوات، أن الأرض أقرب إلى الإنسان من السماء، وهو أعرف بحالها منه بأحوال السماء[3]، التيلاتقل هي الأخرى أهمية كأحد الميادين التي تتجلى فيها مظاهر التسخير.

فالمتدبر في منافع الأرض يدرك حقيقة تسخيرها، لكون وجودها موافقا لمصالح الإنسان، بما توفره له من متطلبات الحياة، كما هُيّأت بما يتلاءم ومهمته الاستخلافية، وذلك لما تحتويه من نعم عديدة، «منها ما يتصل بالحيوان والنبات والمعادن والجبال، ومنها ما يتصل بضروب الحرف والأمور التي استنبطها العقلاء»[4]، ووفق هذه المعطيات، فالأرض مسخرة للإنسان لقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[5]، وما تسخيرها إلا جعلها لفائدته، وتذليلها ليكون بمقدوره الاستفادة منها، اعتمادا على ما زوّد به من وسائل الإدراك والمعرفة.

وقد جاء الوحي الإلهي مؤكدا أن الأرض مسخرة لخليفة الله فيها، منبها إلى ضرورة التفكر في نعمها لإدراك أبعادها الإيمانية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ

---

(1)-سورة الأعراف، الآية: 10.

(2)-الرازي: التفسير الكبير، ج2، ص109-110.

(3)-الرازي: المصدر نفسه، ج2، ص19-20.

(4)-الرازي: المصدر نفسه، ج2، ص153.

(5)-سورة الجاثية، الآية: 13.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لرءوف رحيم. وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور﴾[1]، كما قال جل جلاله: ﴿الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[2].

فهذه العناصر الكونية المبثوثة في الأرض نعم دنيوية يمكن الانتفاع بها ماديا، وكذلك هي نعم دينية لما تتضمنه من دلائل على الحقائق الإيمانية على الإنسان تدبرها، وهو ما يمثل أحد القواعد التي بنى عليها الرازي منهجه في الاستدلال بالآيات الكونية.

ومن ثمة فالاستدلال بما في الأرض من نعم، يكون أولا ببيان أن وجودها ضروري لحياة الإنسان، مما يدل على أن الغاية من وجودها هو انتفاعه بها ليتمكن من أداء واجبه الاستخلافي، وذكر تفاصيل هذه المنافع، وإن ورد في سور عديدة من القرآن الكريم، الذي تضمنت آياته صور مختلفة للتسخير، فإننا سنقتصر على بعض مظاهره:

فوجود الأرض بخصائص جعلتها الكوكب الوحيد الملائم لحياة البشر، إذ كانت قرارا له لقوله تعالى: ﴿...ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾[3]، ذلك أنه بعد خلقها تمت تدحيتها وتسويتها للاستقرار مصداقا لقوله عز وجل: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾[4]، أي بسطها لأنها كانت كالكرة المجتمعة ثم مُدّت لتكون صالحة للعيش[5]، فكان كل ما فيها مساعدا على استمرار الحياة، وذلك راجع إلى شكلها؛طبيعة سطحها وموقعها، وما إلى ذلك مما تتميز به عن غيرها من الكواكب الموجودة في النظام الشمسي.

فإذا تأملنا سطح الأرض نجده متوسطا في الصلابة والرخاوة، فلم يكن كالحجر الذي يصعب العيش فوقه، ولا هو في الرخاوة كالماء الذي يغوص فيه، بل نجد طبيعته كثيفة غبراء، مما يسمح للنور بالاستقرار عليها، إذ لو كانت لطيفة لما حصل ذلك، وبانعدامه تصير الأرض من شدة بردها، بحيث

---

(1)-سورة الحج، الآيتان: 65-66.

(2)-سورة الجاثية، الآيتان: 12-13.

(3)-سورة البقرة، الآية: 36.

(4)-سورة النازعات، الآية: 30.

(5)-الرازي: التفسير الكبير، ج31، ص48.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تموت الكائنات الحية عليها[1]، لكنها هيّأت بما يضمن قيام الحياة في أحضانها، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾[2].

ومن مظاهر تسخير الأرض شكلها وما تميز به كونه كروي، مما جعل امتداد سطحها طولا بين المشرق والمغرب، وعرضا بين الشمال والجنوب محدبا[3]، ولولا ذلك لصارت جميع مناطقها مضيئة دفعة واحدة أو مظلمة، ولما حصل تعاقب الليل والنهار وما فيهما من منافع لحياة الإنسان.

أما حجم الأرض فهو ليس أقل أهمية للحياة من شكلها، وطبيعة سطحها، فبالنظر إلى أبعادها، نجد أنها وجدت بهذا الحجم، ولم تكن أصغر كالقمر أو أكبر كالمشتري، والغاية من ذلك «أن حجم الأرض هو تماما ما ينبغي أن يكون عليه، فهي ليست صغيرة جدا، فتخسر جوها، لكون جاذبيتها الثقالية صغيرة، فلا تستطيع منع هروب الغازات منها إلى الفضاء، وهي ليست كبيرة بالقدر الذي يجعل جاذبيتها الثقالية تزداد كثيرا، فتحتفظ بجو غازي أكبر بما فيها غازات ضارة»[4]. فيستحيل مع ذلك وجود الهواء المناسب للحياة باختلال التوازن في الغلاف الجوي للأرض.

كما يعد موقع الكوكب الذي نعيش فيه في النظام الشمسي من معالم تسخيره للإنسان، ذلك أن بعده عن الشمس معتدل، مما جعل مجال درجة الحرارة الضرورية لبقاء الحياة موجودة فيها دون غيرها من الكواكب، إذ نجد أن المريخ والمشتري وغيرهما باردة جدا لبعدها عن الشمس، عكس الزهرة وعطارد، فحرارتهما عالية جدا لقربهما منها، أما الأرض فدرجة حرارتها ملائمة لبقاء العنصر الأساسي في تشكيل مختلف الروابط الكيميائية التي تعتمد عليها الحياة، وهو الكاربون، الذي يحتاج إلى درجة حرارية متوسطة، وهو ما لا يوجد إلا على سطح الأرض[5].

إضافة إلى أن وجودها في المركز الثالث بعدا عن الشمس، وقبل المشتري، له فائدة عظيمة في حفظ الحياة، ذلك أن كون المشتري أكبر حجما من الأرض يجعل مدارها ثابتا، كما له دور كبير في حمايتها، إذ «بدون وجود كوكب ضخم متموقع بدقة، حيث المشتري موجود، فإن الأرض كانت

---

(1)-الرازي: التفسير الكبير، ج2، ص107.

(2)-سورة الذاريات، الآية: 48.

(3)-الرازي: المصدر السابق، ج4، ص192.

(4)-وهو ما صرح به العالمان الجيولوجيان الأمريكيان فرانك بريسي وريمون سيفر. - هارون يحيى: خلق الكون، ص87.

(5)-هارون يحيى: المرجع نفسه، ص83.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ستصطدم في الماضي ألوف المرات، وبشكل تكراري بالمذنبات والشهب، وغيرها من الحطام بين الكوكبية، فإذا لم يكن المشتري موجودا فلن نكون موجودين لندرس أصل النظام الشمسي»[1]، فيكون موقع كوكبنا في تركيب المجموعة الشمسية، قد صمم خصيصا لصالح حياتنا.

هذا وقد تناول الرازي مختلف نعم الأرض، مبينا مختلف مظاهر تسخيرها استنادا إلى ما ورد في الوحي الإلهي الذي نبه إلى منافعها ودلائلها بألفاظ لا يبلغها البلغاء، ويعجز عنها الفصحاء[2]، ويكفي أن ينظر الإنسان إلى أن أعز الأشياء عنده الذهب والفضة، ولو خلقت الأرض منهما، هل كان سيحصل منها هذه المنافع، وتكون ملائمة لحياة الكائنات الحية، وصالحة للإنسان؟ لكن وجودها بخصائصها المتميزة الموافقة للحياة جعلها أشفق من الأم، التي تطعمك لونا واحدا من اللبن، في حين توفر لك الأرض ألوانا لا تعد ولا تحصى[3] من مطالب الحياة واستمرارها، فكانت حقا كما وصفها جل جلاله في قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾[4]، والفراش عادة يكون ملائما لصاحبه في النوم واليقظة، أليس هي المهد الذي يقضي فيه الإنسان فترة وجوده في الدنيا ويعود إليها بعد موته مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾[5]، و﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى. كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى. مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى. وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾[6].

فتلك الصفات المختلفة للأرض، والتي أدت إلى تنوع منافعها، لابد وأن تكون لأسرار وحكم علم خالقها أن وجود الأرض لا يكمل إلا بها، لذلك ميّزها عن غيرها من الكواكب، فكانت المجال الوحيد الملائم للحياة.

ومن ثمة ما على الإنسان إلا الامتثال لما ورد في قوله تعالى: ﴿...يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[7]، ذلك أن كون الأرض موصوفة بصفات مطابقة للمصالح موافقة للمنافع يدل على

---

(1)-وهو ما ورد في مقال لجورج ويذرل بعنوان: "Haw special is Jupiter". -هارون يحيى: خلق الكون، ص72.

(2)-الرازي: التفسير الكبير، ج2، ص104-105، ج24، ص207.

(3)-الرازي: المصدر نفسه، ج2، ص109-110.

(4)-سورة البقرة، الآية: 22.

(5)-سورة الذاريات، الآية: 48.

(6)-سورة طه، الآيات: 53-56.

(7)-سورة هود، الآية: 61.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الصانع الحكيم، الذي جعل كوكبنا قابلا للعمارة النافعة للإنسان القادر على أداء ذلك لما يملكه من إمكانات، ويرجع حاصل هذه الدلالة[1] إلى ما ذكر في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾[2]، أي هدى مخلوقاته إلى الغاية من وجودها، فكان تسخيره لها دليلا على عنايته التي أحدثت ذلك التوافق بين الإنسان والأرض، وما قدرته على ذلك إلا دليلا على أن إحياء الموتى ليس بالأمر الممتنع في حقه تعالى، فالقادر على تسخير الأرض لتكون مهدا لحياة أفضل المخلوقات، هو القادر على إخراج الحي من الميت[3]، وبعث الموتى، ولأنه خلق لكم ما في الأرض جميعا فكيف يعجز عن إعادتكم[4]، وهو القائل: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا. وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا. مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ. فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى. يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى. وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾[5].

ثم إنه تعالى ذكر تفاصيل هذه المنافع المودعة في مختلف عناصر الأرض، مع وحدة الغاية من وجودها، المتمثلة في حفظ حياة الإنسان، وهو ما يتجلى لنا من تسخير الحيوانات التي هي من الأشياء المتولدة في الأرض إلى جانب كل من المعادن والنباتات، إذ تمثل أحد العناصر الكونية المسخرة مما يدل على قصد في تكوينها وحكمة في تدبيرها، لما يحققه وجودها من منافع ملموسة يدركها كل عاقل.

ذلك أن «هذا العالم بأسره جار مجرى معمورة أو خان معدّ، وجميع منافعها ومصالحها مصروفة إلى الإنسان، الذي هو كالرئيس المخدوم، والملك المطاع، وسائر الحيوانات بالنسبة إليه كالعبيد»[6]، لكونه مخصوصا من عند الله جل جلاله بمزيد من التكريم والتفضيل مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[7].

---

(1)-الرازي: التفسير الكبير، ج18، ص17.

(2)-سورة الأعلى، الآية: 3.

(3)-الرازي: المصدر السابق، ج17، ص86.

(4)-الرازي: المصدر نفسه، ج2، ص153.

(5)-سورة النازعات، الآيات: 30-36.

(6)-الرازي: المصدر السابق، ج21، ص14.

(7)-سورة الإسراء، الآية: 70.

ومـــن منافع هذه الكائنات، التي تبدو معدة لخدمة الإنسان، لما توفره من مطالب الحياة، ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ. وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ. وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

فالـــنعم الحاصلة من هذه الحيوانات على اختلاف أنواعها، جعلت من وجود هذه الكائنات مصالح عديدة للعباد، وذلك لكونها وسيلة للركوب وقطع المسافات، عند التنقل مع قدرتها على حمل الأثقـــال إلى أمـــاكن لم تكـــن لتبلغ إلا بصعوبة كبيرة، مما يدفع عن النفس بواسطتها ضرر الإعياء والمشقة، كما تعد زينة في نفسها[2]؛ لما يضفيه وجودها من سرور على القلوب بامتلاكها أو بالنظر إليها، إضافة إلى أنها مصدر رزق للإنسان، فمنها قوته، لما توفره من لحوم وحليب، ومنها كسوته التي إمـــا أن تكون من الشعر والصوف أو من الجلود[3]، وبذلك تكون هذه الحيوانات التي بثها الله تعالى في الأرض من النعم التي منّ الله بها على الإنسان، بأن سخرها له فكانت معدّة لنفعه.

وهـــذا التوافق بين وجود هذه الكائنات الحية وبين مصالح خليفة الله في الأرض، يتجلى من خـــلال منافع عديدة، لفت القرآن الكريم الأنظار إليها، وحثّ على تدبر حقيقتها للكشف عن آثار الـــنعم الإلهية، وما تحمله من دلائل الحق، منها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ. وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ. وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[4]، وما خلقها وتذليلها إلا لأجل التصرف فيها بشتى ضروب الانتفاع، الذي على الإنسان ألا يقتصر همه على جانبه المادي فقط، وإنما عليه التفكر في حقيقة هذا التســـخير، وكيف يمكن أن تكون هذه الموجودات وفقا لمتطلبات الحياة؟ ومن هداها ليكون وجودها محققا لمصالحه؟

فظاهرة توفير الأنعام لأهم ما يحتاج إليه الإنسان في معاشه من الحليب بأنواعه، يكفي تدبرها لإدراك حقـــيقة تسخير هذه الحيوانات، وهو ما أشار إليه الرازي بقوله: «اعلم أن حدوث اللبن في الـــثدي، واتصـــافه بالصفات التي باعتبارها يكون موافقا للتغذية مشتمل على حكم عجيبة، وأسرار

---

[1]-سورة النحل، الآيات: 5-8.

[2]-الرازي: التفسير الكبير، ج19، ص236.

[3]-الرازي: المصدر نفسه، ج2، ص105.

[4]-سورة يس، الآيات: 71-73.

بديعة، يشهد العقل بأنها لا تحصل إلا بتدبير الفاعل الحكيم، والدبر الرحيم»[1]، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[2].

فقد ذكر سبحانه وتعالى أن الأنعام عبرة مجملا، ثم أردفه بالتفصيل من وجوه منها ألبانها، ووجه الاعتبار فيها أنها تجتمع في الضروع وتتخلص من بين الفرث والدم بإذن الله تعالى، فتستحيل إلى طهارة، وإلى لون وطعم موافقا لرغبات الإنسان، ومنه تكون غذاء له، فمن استدل بذلك على قدرة الله وحكمته كان ذلك معدودا في النعم الدينية، ومن انتفع به فهو نعمة الدنيا[3]، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾[4]، فإنتاج الأنعام للبن أمر يحتاج للتدبر والتفكر في كيفية حصوله، وهي من الآيات التي يريد بها خالقها تعليم الإنسان ما لم يعلم، بدعوته إلى النظر في المخلوقات للاستدلال بها على الحق جل جلاله، ذلك أن هذه الألبان التي تخرج من بطونها إلى ضروعها تجدها شرابا طيبا، وإذا ذبحتها لم تجد لها أثرا، مما يدل على عظيم قدرة موجدها[5].

ونجد الرازي قد وقف عند هذه الظاهرة الكونية، محللا كيفية حدوثها، ذلك أنه تعالى إنما خلق اللبن من فضلة الدم، ومن الغذاء الذي يتناوله الحيوان، فالشاة لما تناولت العشب والماء، فالله تعالى خلق الدم من لطيف تلك الأجزاء، ثم خلق اللبن من بعض أجزاء ذلك الدم، ثم إن اللبن حصلت فيه أجزاء ثلاثة على طبائع متضادة، فما فيه من الدهن يكون حارا رطبا، وما فيه من المائية يكون باردا رطبا، وما فيه من الجبنية يكون باردا يابسا، وهذه الطبائع ما كانت حاصلة في ذلك العشب الذي تناولته الشاة، فظهر أن هذه الأجسام لا تزال تنقلب من صفة إلى صفة، ومن حالة إلى حالة، مع أنه لا يناسب ولا يشاكل بعضها بعضا[6].

والأمر مرده إلى تلك القوى الدفاعة للمضار، الجذابة للمنافع في الجسم، فالخبراء يؤكدون وجود غدد في الضرع خاصة بإفراز اللبن، إذ تمدها الأوعية الشريانية بخلاصة مكونة من الدم

(1)-الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص68.
(2)-سورة المؤمنون، الآية: 21.
(3)-الرازي: المصدر السابق، ج20، ص69.
(4)-سورة النحل، الآية: 66.
(5)-الرازي: المصدر السابق، ج23، ص92.
(6)-الرازي: المصدر نفسه، ج20، ص69

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والكيلوز –خلاصة الغذاء المهضوم– وكلاهما غير مستساغ طعما، ومن هذين السائلين تقوم تلك الغدد باستخلاص العناصر اللازمة لتكوين اللبن، مفرزة عليها عصارات خاصة، تحيلها إلى شراب سائغ، يختلف تماما عن كل من الدم والكيلوز، لونا ومذاقا[1]، فمن دلّ هذه الكائنات الحية على مثل هذه الأعمال التي تبدو الغاية منها منفعة الإنسان؟

إن المتدبر لتفاصيل مثل هذه النعم يدرك أن هذه الأحوال إنما تحدث بتدبير فاعل حكيم رحيم، يدبر أحوال هذا العالم على وفق مصالح العباد، فالحكمة الإلهية اقتضت تدبير كل شيء على الوجه اللائق الموافق لمنفعة البشر، واعتبار حدوث اللبن كما يدل على وجود الصانع المختار سبحانه وتعالى، كذلك يدل على حقيقة البعث، ذلك أن من هدى هذه المخلوقات إلى الغاية التي وجدت لأجلها، وأحدث ذلك الانسجام بين عملها ومنفعة الإنسان لا يعجزه إحياء الموتى، إذ قدرته على تقليب تلك الأجسام من صفة إلى صفة حتى كانت ملبية لحاجة الإنسان، دليل على أنه لا يمتنع في حقه أن يكون قادرا على تقليب أجزاء أبدان الأموات إلى صفة الحياة، فهذا الاعتبار يدل من هذا الوجه على أن البعث أمر ممكن الوقوع[2]، مصداقا لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ. أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ. أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ. وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ. أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَانُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ. أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَانِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ. أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾[3].

المطلب الثاني: دلالة تسخير ما في السماوات على عقيدة البعث

بتأملنا للوجود الكوني نجده كالبيت المتوفر على مستلزمات العيش، السماء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم منورة كالمصابيح، وكل من النباتات والحيوانات

---

[1]–عبد المجيد العرجاوي: البراهين العلمية على صحة العقيدة الإسلامية، ص128.

[2]–الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص67-69.

[3]–سورة الملك، الآيات: 15-21.

بمختلف أنواعها مهيأة لمنفعة الإنسان ومُصرفة في مصالحه، وما عليه إلا التصرف فيه كمالك له[1]، مما يدل على أن الكون مخلوق بتدبير كامل وتقدير شامل، وحكمة بالغة، وقدرة غير متناهية.

وتمثل السماوات الفضاء الخارجي للوجود الكوني، وما تسخيرها إلا دليل على العناية الإلهية التي أحدثت ذلك الانسجام بينها وبين وجود الإنسان، إذ هي ليست أقل من ذلك البناء المصمم خصيصا لحياة البشرية مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[2]، فتكون الحكمة المراعاة في وجودها منفعة الإنسان، لأن معنى تسخيرها جعلها موافقة لمصالحه لكونها تحت القدرة والإرادة الإلهية،علما أن التسخير الذي هو عبارة عن القهر والقسر لا يليق إلا بمن هو قادرا يجوز أن يقهر؛ لهذا أطلق على هذا النوع من التدبير لفظ التسخير،وبذلك يكون المؤثر فيه هي القدرة، فتكون السماوات مسخرة بقدرته تعالى و تكليفه[3].

هذه الحقيقة التي أكدها الوحي الإلهي، ودعا الناس لتدبرها حتى يقدّروها في قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[4]، أي أن الشمس والقمر والنجوم، وما تحتويه السماوات مسخرة بأمر موجدها؛ لما فيها من فوائد للعباد، وعلى هذا الوجه يكون الاستدلال بنعمها[5]، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ. وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ. أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ. وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ. وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ. وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ. أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ. إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ

---

(1)- الرازي: التفسير الكبير، ج2، ص109.

(2)- سورة الجاثية، الآية: 13.

(3)- الرازي: المصدر السابق، ج20، ص5

(4)- سورة لقمان، الآية: 20.

(5)- الرازي: المصدر السابق، ج25، ص152.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مُسْتَكْبِرُونَ﴾[1].

فكـــل مـــا في هذا الفضاء وجد وفق ما يسمح للانسان بالانتفاع به، الذي عليه تدبر ذلك التســـخير واستخلاص العبر منه؛ لأن هذه المسخرات كما هي منافع مادية، فهي أيضا دلائل إيمانية يـــدرك حقيقـــتها مـــن خصها بمزيد من التأمل والتفكر لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، فإنما خصت هذه الآيات بالعاقلين لتمكّنهم من النظر فيها،والاستدلال بها على ما يلزمهم من أصول الدين[2]، لذلك جاء تعديده سبحانه وتعالى لنعمه على خلقه، مرتبطا بتأكيد حقيقة البعث

ومن ثمة تكون هذه العناصر الكونية جامعة بين كونها دلائل وبين كونها نعمًا، لذلك فالعاقل يجـــب أن يعتـــبرمما حوله من آثار حكم الله تعالى في خلق السموات والأرض وما بينهما، فمن تدبر فيهما علم أنها مشتملة على ألف ألف مسألة أو أكثر أو أقل على قول الرازي[3]، ثم إنه تعالى نبّه على أنها مخلوقة لمنفعة الإنسان، وهو ما يتجلى لنا من خلال مظاهر عديدة.

فوجـــود هـــذا الفضاء الذي هو بمثابة البناء المرفوع، و السقف المحفوظ بطبقاته المتعددة، إذ كثيرا ما يرد ذكرها في الوحي بصيغة الجمع مقابل ورود الأرض بلفظ المفرد، مع أن الأرضيين أيضا كثيرة بدليل قول تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[4]، ذلك أن السماء جاريـــة مجرى الفاعل، والأرض مجرى القابل، فلو كانت السماء طبقة واحدة لتشابه الأثر، مما يؤدي إلى خلـــل في هذا الوجود،ولكونها متعددة كانت الفائدة منا حصول الاتصالات المختلفة للكواكب، وتغير مطارح الشعاعات وغيرها من الأحوال ومنه يحصل بسبب تلك الاختلافات مصالح هذا العالم.

أما الأرض فهي قابلة للأثر فكانت واحدة كافية[5]، وقوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْـتُمْ أَمْوَاتًـا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي

---

[1]-سورة النحل، الآيات: 12-22.

[2]-الرازي: التفسير الكبير، ج4، ص203.

[3]-الرازي: المصدر نفسه، ج1، ص6.

[4]-سورة الطلاق، الآية: 12.

[5]-الرازي:الصدر السابق، ج12، ص149.

الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات﴾[1]، إلا تنبيها إلى تسخير هذه السماوات، أي أن موجدها عز وجل سواهن وفق مصالح هذا العالم، فكان خلقها وفق مصالح الإنسان مطابقا لمنافعه[2]، دليل على أن موجدها بتلك الصفات قادرا على إحياء الموتى.

ثم تفكر في لون هذا الفضاء وما فيه من صواب التدبير، فإن هذا اللون أشد الألوان موافقة للبصر وتقوية له، حتى أن الأطباء يأمرون من أصابه وجع العين بالنظر إلى الزرقة، فانظر كيف جعل الله تعالى أديم السماء ملونا باللون الأزرق لتنتفع به الأبصار الناظرة إليها، فهو سبحانه تعالى جعل لونها أنفع الألوان،كما جعل شكلها أفضل الأشكال وهو المستدير ولهذا قال جل جلاله: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج﴾[3]، أي ما فيها من فصول، ولو كانت سقفا غير محيط بالأرض لكانت الفروج حاصلة فيها[4]، وما حصل منها النفع.

ذلك أن وجود هذه القبة الزرقاء هي بمثابة السقف المحفوظ مصداقا لقوله تعالى: ﴿وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون﴾[5]، فكونها الغلاف الجوي للأرض وُصفت بالسقّف المحفوظ من الانفلات والتسرب، وبتدبر ر حقيقة هذه القبة نجدمن خصائصها، أنها المسؤولة على الاحتفاظ بالأكسجين اللازم لبقاء الحياة على وجه الأرض، كما أن فيها يتكون ضوء النهار عند دوران الأرض،إذ بسببها تتناثر أشعة الشمس من الطبقة الممتدة من سطح الأرض حتى ارتفاع حوالي مائتي كلم2[6]، ولولاها لما كشف النهار عن الشمس ولعاش الإنسان في ظلام الفضاء.

ومن ثمة فإن هذه العناصر الكونية مسخرة للإنسان مجاناً، دون تدخل منه لتكون على ما هي عليه ممّا يجعلها تعمل لصالحه، وموافقة لنفعه، وما المطلوب منه إلا بذل الطاقة الفكرية، وإعمال قدراته الإدراكية لمعرفة سنن تلك الموجودات، الأمر الذي يُمكّنه من استغلالها على أكمل وجه في عمارة الأرض، لكن كونه خليفة فيها الواجب يفرض عليه ألا يقف عند هذا المستوى بإدراك شطر من حقيقتها، بل لا بد من استكمال معرفة بعدها الغيبي، وذلك لا يتسنى له إلا بالنظر والتدبر

[1]-سورة البقرة، الآيتان: 28-29.

[2]-الرازي: التفسير الكبير، ج14، ص121، -ج13، ص34.

[3]-سورة ق، الآية: 6.

[4]-الرازي: المصدر السابق، ج2، ص107.

[5]-سورة الأنبياء، الآية:32.

[6]-عبد العليم عبد الرحمان خضر: الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن الكريم، ص41.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المتجاوز لبعدها المادي. ممَّا يمكّنه من إدراك دلالتها على الحقائق الغيبية، وفي مقدمتها حقيقة البعث، وهو ما نبّه إليه الوحي الإلهي، الذي ورد فيه قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ. أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ. قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ. بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ .أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾[1]. واعترف الرازي بأن «منافع السماوات أكثر من أن تحيط بجزء من أجزائها المجلدات، وذلك لأن السماوات بالنسبة إلى مواليد هذا العالم جار مجرى الأب، والأرض جارية مجرى الأم؛ فالعلل الفاعلة سماوية، والعلل القابلة أرضية»[2]، يجعلنا نقتصر في بيان مظاهر تسخير عناصرها على أظهر جرمين فيها،وهما الشمس والقمر، لأن المقام لا يسمح لبيان كل المنافع الحاصلة من السماوات وما فيها، رغم تناول الرازي لذلك بالتفصيل في "تفسيره الكبير".

هذه الكواكب التي جاء الذكر الحكيم بدعوة الناس إلى تدبر نظمها وتوازناها التي وجدت خصيصا لفائدهم، واستخلاص العبر منها، فقال عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3].

أما الشمس التي هي آية النهار فتفكر في طلوعها وغروبها، وفيما قُدِّر لها من طلوع في كل يوم وغروب في كل ليلة، وذلك لئلا تكل القوى والأبصار بالسهر والتعب، ولا يخرب العالم بترك العمارة بسبب الظلمة الدائمة، فكيف كان الناس يسعون في معايشهم؟[4].

وإذا كانت المنفعة في طلوع الشمس ظاهرة، فتأمل في غروبها، الذي لولاه لما عرف الناس الهدوء والاستقرار، مع الحاجة الكبيرة إليه لتحصيل الراحة، وانبعاث القوة الهاضمة، إضافة إلى تنفيذ الغذاء إلى الأعصاب؛ لذلك قال تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[5]، فالليل للسكينة والطمأنينة الجسدية والنفسية، أما النهار

---

[1]-سورة ق، الآيات: 2-6.

[2]-الرازي: التفسير الكبير، ج12، ص150.

[3]-سورة النحل، الآية: 12.

[4]-الرازي: المصدر السابق، ج2، ص107.

[5]-سورة يونس، الآية: 67.

فهـــو للسعي والكد، ولولا غروب الشمس وحلول الظلام المنبئ عن الليل؛ لكان حرص الناس على المداومة على العمل[1] على ما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا.وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾[2]، فالحكمة من تعاقب الليل والنهار هو تسخيرهما للإنسان، وذلك باختلاف وظيفتهما وفق ما يحقق منفعته.

كما نجد بُعد الشمس عن الأرض، والذي عبّر عنه الرازي بارتفاع الشمس وانحطاطها الناتج عنه اختلاف درجات الحرارة، قد جُعل سببا لحصول الفصول الأربعة الحاصل منها مصالح عديدة، إذ في الشـــتاء تغور الحرارة في الشجر والنبات، فتتولد منه الثمار، ويكثر السحاب والمطر وتقوى أبدان الحيوانات بسبب احتقان الحرارة الغريزية في البواطن.

أما في الربيع فتتحرك الطبائع بظهور المواد المتولدة في الشتاء، فينمو النبات، وتزهر الأشجار، وتهـــيج الحـــيوانات للتلاقح، في حين يحتد الهواء في الصيف مما يؤدي إلى نضج الثمار، ويجف وجه الأرض فتتهـــيأ للبـــناء والعمارات، فيأتي الخريف ليظهر اليبس والبرد، مما يؤدي إلى انتقال الأبدان بالـــتدريج إلى الشتاء، ذلك أن وقوع الانتقال دفعة واحدة، يؤدي إلى هلاك أجسام الكائنات الحية وفسادها[3].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الرازي يعتبر الأرض ثابتة وليست متحركة رغم إقراره بكرويتها، لذلـــك فالشمس هي التي تدور حولها مما يؤدي إلى تعاقب الفصول الأربعة،واختلاف الليل والنهار بغروبها وشروقها، لكن ما أثبته العلم فيما بعد أن المسؤول عن حصول هذه الأمور هو دوران الأرض حول الشمس وحول نفسها، كما أن المسافة الفاصلة بين الأرض والشمس محددة، فهي لا ترفع ولا تـــنحط لأن بعدها ثابت، لا كما اعتقد الرازي بأنه قدّر لها بعدا لتُجمع الرطوبات في باطن الأرض والشجر، وتنضج ويجف ما على سطح الأرض، ثم تبعد لتستمر الحياة.

أمـــا عن حركة الشمس، فقد جعلت «أبطأ من سير القمر وأسرع من سير زحل لأنها كاملة النور، فلو كانت بطيئة لدامت زمانا كثيرا في مسامتة شيء واحد فتحرقه،ولو كانت سريعة لما حصل بـــث بقدر ما ينضج الثمار في جهة واحدة»[4]،فإذا تأملنا في حقيقة سيرها ندرك أنها وجدت وفقا

---

(1)-الرازي: التفسير الكبير، ج2، ص107.

(2)-سورة النبأ، الآيتان: 10-11.

(3)-الرازي: المصدر السابق، ج2، ص107، 108.

(4)-الرازي: المصدر نفسه، ج26، ص72.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لحكمة، ذلك أنها لو كانت غير متحركة لاشتدت الحرارة في موضع مقابل اشتداد البرودة في بقية المواضع، لكنها تشرق في النهار فتقع على ما يحاذيها من جهة الغرب، وبدورانها تمس جميع الجهات، لتنتهي إلى الغروب فتقع على الجوانب الشرقية، ومنه لا يبقى أي موقع في الأرض إلا ويغشاه شعاعها[1].

ومن منافع ميل الشمس في حركتها عن خط الاستواء مثلا، أنها لو لم يكن لها حركة في الميل لكان تأثيرها مخصوصاً ببقعة واحدة، فكانت سائر الجوانب محرومة من المنافع الحاصلة منها، وكان ما هو أقرب منها متاشبه الأحوال؛ لأن القوة الغالبة هناك لكيفية واحدة، ومنه إن كانت حارة قضت على الرطوبات بإحالتها إلى طبيعة نارية، مما يؤدي إلى عدم تكوّن المتولدات، فيكون في الموضع المحاذي لمر الشمس صيف دائم يوجب الاحتراق، وفي خط ما لا يحاذي ممرها شتاء دائم ببرودته، أما الخط المتوسط بينهما فيكون ربيع أو خريف لا يتم فيه النضج[2].

والأمر نفسه لو لم تكن لها عودات متتالية، وكانت تتحرك ببطء، لكان الميل قليل المنفعة، والتأثير شديد الإفراط، في حين لو كانت حركتها أسرع مما هي عليه لما كملت المنافع وما تمت، ومن ثمة تتجلى لنا أهمية وجود ميل يحفظ الحركة في مكان معين لمدة، لتنتقل إلى جهة أخرى، وبذلك يكون تأثير الشمس بشمولها جميع المناطق بمقدار الحاجة، ويبلغ التمام بكثرة منافعها، فسبحان موحدها، المدبر بالحكمة البالغة والقدرة غير المتناهية[3]، القائل جل جلاله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[4]، أي أن حركتها هي من تقدير الغالب، الذي بكمال القدرة يغلب والعليم كامل العلم، فهو الذي قدر على إجرائها على الوجه الأنفع، وعلم الأنفع فأجراها على ذلك[5]، إذ تسخير الشمس وإجراؤها على الوجه الأصلح يحتاج إلى تقدير صاحب العزة والقدرة، وصحاب العلم.

هذا عن تسخير الشمس، أما القمر و«هو المسمى بآية الليل فاعلم أنه سبحانه وتعالى جعل

---

(1)-الرازي: التفسير الكبير، ج2، ص107-108.

(2)-الرازي: المصدر نفسه، ج2، ص108.

(3)-الرازي: المصدر نفسه، ج2، ص108.

(4)-سورة يس، الآية: 38.

(5)-الرازي: المصدر السابق، ج26، ص72.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

طلوعه وغيبته مصلحة، وجعل طلوعه في وقت، مصلحة، وغروبه في وقت آخر مصلحة»[1]، فكان مسخرا للإنسان مصداقا لقوله تعالى: ﴿...وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾[2].

فإذا تأملنا موضعه وحجمه نجد انه وجد على الوجه الأصلح، ذلك أنه يعد أقرب الكواكب إلى الأرض، إذ يبعد عنها بحوالي 384,400 كيلومتر، فيما يقدر حجمه تقريباً بـ 22 مليون كيلومتر مكعب[3]، فلو ازداد قربه منها لتعاظمت الجاذبية مما يؤدي إلى تصدع سطح الأرض؛ لاستيلاء مياه البحار والمحيطات عليها، بما يغرق قمم الجبال نتيجة لطغيان المد، والأمر نفسه بالنسبة لحجمه.

في حين لو زادت المسافة بين الكوكبين عمّا هي عليه. لتعطل عمل المد والجزر بنقصان الجاذبية، مقابل انجذاب كوكب آخر إلى القمر، فنحرم عندها من نعمه بل وتستحيل الحياة على وجه المعمورة[4].

لكن حكمة الخالق عز وجل اقتضت أن يكون وجود القمر موقعا وحجمًا-ملائمًا لقيام الحياة واستمرارها، وهو ما يتجلى لنا أكثر من خلال حركته التي نبّه إليها الوحي الإلهي في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾[5]، إذ يعد القمر تابعا للأرض، يسايرها في الدوران من الغرب إلى الشرق، فيتم بذلك دورته حول محوره وحول الأرض في وقت واحد خلال شهر، وهو ما يجعل من سنته بفصولها الأربعة اثنى عشر شهرا، أين يتم فيها دورته حول الشمس[6].

وبذلك كانت حركته مصدرًا لمعرفة الحساب وتحديد الشهور والسنوات، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا

---

(1)-الرازي: التفسير الكبير، ج2، ص108.

(2)-سورة الأعراف، الآية: 54.

(3)-زغلول النجار: السماء في القرآن الكريم، ص455.

(4)-عبد الرحمان عبد العليم خضر: الظاهر الجغرافية بين العلم والقرآن الكريم، ص85، 88.

(5)-سورة الزمر، الآية: 05.

(6)-زغلول النجار: المرجع السابق، ص455، 464.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يَكْفُرُونَ. هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1].

فلو كانت دورة القمر أطول أو أقصر مما هي عليه، لاختل النظام الذي كان وفقه حسبانا ولأصبح الشهر القمري أسبوعاً أو أكثر من سنة، لكن حكمة الخالق عز وجل جعلت حركته وفقا لما يحقق مصلحة الإنسان، إذ يتم هذا الكوكب دورته في شهر ليستأنف شهرا جديداً، مما يسمح بضبط المواقيت ودقة الحساب، وهو ما يدل على «انه تعالى رتب مجموع هذه الحركات على اختلاف درجاتها وتفاوت مراتبها سببا لحصول المصالح في هذا العالم»[2].

أما عن طبيعته، فالمعروف أنه ليس من الأجرام المنيرة بذاتها كالنجوم، لكن يستمد نورهُ من أشعة الشمس على سطحه، والتي يعكسها على الأرض، فيبدو منيراً، وهي من نعم الله على عباده، الذي خلق القمر بخصائص جعلته مصدر نور للإنسان في الظلام الحالك، فكان بذلك مسخرًا له، الأمر الذي نبّه إليه الوحي الإلهي في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾[3]، قال جل جلاله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[4]، فرغم أن القمر كوكب مظلم إلا انه سخر ليكون مصدر نور، عكس الشمس المضيئة بذاتها، فنورها صادر عنها لكونها جسم ملتهب، لذلك وُصفت بالسراج، إذ من خصائصها أنها تجمع إلى النور الحرارة، مما جعلها سراج ضخم يشتعل فيه الهيدروجين، الذي تندمج جزئياته مع بعضها في تفاعل نووي، فينتج عنه الهيليوم ويحرر طاقة نووية عظيمة تصل إلينا على شكل ضوء[5]، في حين يفتقر القمر إلى هذه الخصائص التي جعلتها مصدرا للضوء، لكن مع ذلك فهو مصدر نور.

فكون الشمس والقمر مسخرات بأمره سبحانه وتعالى، لذلك مع أنهما أجسام متماثلة إلا أن اختصاص كل منهما بالنور المخصوص والضوء الباهر وفق ما يحقق منفعة الإنسان لا بد وأن يكون لأجل أن الفاعل الحكيم، المقدر العليم، خص تلك الأجسام بصفاتها وأحوالها المميزة بما يجعلها ملائمة

---

(1)-سورة يونس، الآيتان: 04-05.

(2)-الرازي: التفسير الكبير، ج14، ص120.

(3)-سورة الفرقان، الآية: 61.

(4)-سورة نوح، الآية: 16.

(5)-James Michel et autres : L'univers.P.68

للحياة فكان «جسم كل واحد من الكواكب والنيرات كالمسخر في قبول تلك القوى والخواص عن قدرة المدبر الحكيم، الرحيم العليم»[1]، الذي هداها سبيلها لتحقيق الغاية من وجودها.

ومن ثمة يكون تسخير عناصر الآفاق بهدايتها إلى ما يحقق كمالاتها يحتاج إلى صاحب عزة وقدرة، وصاحب علم، وحين نعلم حقيقة هذه الموجودات الكونية وما تتميز به ندرك أن من له صفة القدرة التي تصرف هذا الوجود عن علم ووفق حكمة يستحيل أن يعجزه أمر بعث الموتى، ولأنه خلق لكم ما في الأرض وما في السماوات فكيف يعجز عن إعادتكم[2]، وهو القائل في محكم تنزيله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ. ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ. وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ. وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ. فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ. وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾[3].

هكذا ندرك في هذه الآيات الكونية مظاهر القدرة والعلم الإلهيين، اللذين يقوم عليهما إثبات حقيقة وقوع البعث، وقد جاء تفصيل دلائله الباهرة واحداً عقب الآخر، مع الشرح والبيان في الوحي المكتوب كما في الكون المنظور، لذلك نبّه سبحانه وتعالى في محكم تنزيله الأنظار إلى المنافع الحاصلة من مختلف عناصر الآفاق، وحث الإنسان على التفكر فيها لكشف آثار النعم الإلهية والدالة على عناية الرحمان بخلقه، والدالّة على القدرة الكاملة والعلم الشامل، والحكمة البالغة لخالق هذا الوجود القائل: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[4].

وكون كل ما في هذا الوجود هو في خدمة الإنسان، فهو مسؤول ومكلّف عن هذه النعم، مما يستوجب عليه عدم الركون إلى متاع الدنيا، وأن يأخذ ما سخر له وسيلة لغاية أبعد وأسمى

---

(1)-الرازي: التفسير الكبير، ج2، ص153.

(2)-الرازي: المصدر نفسه، ج2، ص153.

(3)-سورة المؤمنون، الآيات: 15-22.

(4)-سورة لقمان، الآية: 20.

مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1].

لذلك فهذه العناصر الكونية كما هي نعم دنيوية فهي نعم دينية، وكما فيها منافع مادية فهي أيضا دلائل إيمانية، والتي منها دلالتها على عقيدة البعث، إذ كثيرا ما ربطت الآيات القرآنية حقيقة البعث بتسخير ما في السماوات والأرض منها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[2]، كما قال جل جلاله: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ. وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[3]، فكان مضمون هذه الآيات منطلق الرازي في استدلاله بالآيات الكونية،وما قواعد منهجه وطرق الاستدلال بها على عقيدة البعث إلا تجسيدا لما جاء في الوحي الإلهي من حديث عن الكون، ومن دعوة إلى تدبر آياته لإثبات حقائق الإيمان.

بقي أن نشير إلى أن الفصل بين طرق الاستدلال بهذه الصيغة التي وردت عند الرازي لم يتطرق إليها أحد قبله[4] –حسب علمنا– ولو أن عمله مستمد من الوحي الإلهي، الذي كانت نصوصه وما تضمنته المصدرالذي استند إليه مفكرنا سواء في المقدمات المنهجية لاستدلاله بالآيات الكونية أو في طرق استدلاله.

[1]–سورة العنكبوت، الآية: 64.

[2]–سورة الملك، الآية: 15.

[3]–سورة الأنبياء، الآيتان: 32-33.

[4]–وهو ما يؤكد مرتضى مطهري: التوحيد، ترجمة: إبراهيم الخزرجي، دار المحجة البيضاء، بيروت، ط1، 1418هـ–1998م، ص110.

الخـــــاتمـــة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفهـــارس

أولا: فهرس الآيات القرآنية

ثانيا: فهرس الأحاديث النبوية

ثالثا: فهرس الأعلام

رابعا: فهرس المصادر والمراجع

خامسا: فهرس الموضوعات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لقد كانت هذه الدراسة محاولة لإلقاء الضوء على قضية من قضايا الفكر العقدي، والتي تمثّلت في بيان منهج الرازي في الاستدلال بالآيات الكونية على عقيدة البعث من خلال تفسيره "مفاتيح الغيب"، فكان موضوع البحث مرتبطا بعالم الشهادة وأهمية حقائقه في إثبات مباحث عالم الغيب، الذي منه عقيدة البعث، وذلك استنادا إلى موروثنا الفكري وما كان فيه من اهتمام لعلمائه بحقائق الوجود الكوني.

وبعد أن وصلنا إلى ختام الدراسة يمكن إعطاء أهم النتائج المتوصل إليها في النقاط الآتية:

-تمثل الآيات الكونية في القرآن الكريم جانبا مهما منه، وبشكل ملفت للانتباه مع اختلاف مواضيعها وتعدد محاورها، والغرض من حضورها القوي والمتميز ليس التأسيس لمعرفة كونية فحسب، بقدر ما هو توجيه للإنسان من أجل إدراك الأبعاد الوظيفية المتعددة للوجود الكوني، وفي مقدمتها البعد الإيماني.

-تميز الوحي الإلهي في حديثه عن الوجود الكوني بخصائص كانت الأساس في بيان كيفية التعامل مع آياته، إذ قد يظن أن له بعدا ماديا لا غير وإغفال بعده الغيبي، رغم أن العلاقة بين عالمي الغيب والشهادة جد وطيدة، وهو ما بيّنته آي الذكر الحكيم، الذي كانت آيات الآفاق مضمون أساليبه في إثبات الحقائق الإيمانية، فشمل خطابه بها كل من الفطرة، الحواس، والعقل، مما يؤكد أهميتها في مجال الاستدلال على أصول الدين.

-أسس القرآن الكريم نظرة متميزة لعالم الشهادة، من خلال تلك الأبعاد الوظيفية للآيات الكونية، والأهمية التي أعطاها لها مما جعلها من اهتمامات الفكر العقدي، باعتبار أن الكون مادة للتفكر والتدبر، فكانت حقائقهم حجج ومقدمات للاستدلال على صحة العقيدة الإسلامية.

-إن اهتمام الرازي بالآيات الكونية ما هو إلا امتثال للدعوة التي وجهها الوحي الإلهي للإنسان، والتي حثه فيها على ضرورة تدبر عناصر الكون بالسير فيه للكشف عن أسراره ونواميسه، مما يسهل عليه أداء وظيفته الوجودية، فمثل حديثه عز وجل عن الوجود الكوني أسمى توجيه إلى حقائقه، التي إن وجدت عقلا متفتحا وبصيرة نافذة، كانت منطلقا لإدراك حقائق عالم الغيب.

-وقد كان غرض مفكرنا من الاستدلال بآيات الآفاق إعمال النظر والفكر في عناصر الكون، وتوظيف المعارف الخاصة بها لإثبات الحقائق الإيمانية، وهو في عمله هذا واعيا بالفرق بين التفسير لآي الذكر الحكيم والاستدلال على أصول الإيمان، مما جعله يتخذ طريقة متميزة بالنسبة

لعصره في تعامله مع الآيات الكونية انطلاقا من توجيهات الوحي الإلهي، فكان تفسيره "مفاتيح الغيب" على غير المعتاد في الغاية والمنهج، مما أثار تباين الآراء حوله.

-إن إدراك الرازي أهمية الآيات الكونية في إثبات الحقائق الإيمانية،جعله يخصص تلك المباحث الكونية في تفسيره للاستدلال بها كمقدمات علمية واقعية، لذلك رد على منتقديه بتوضيح المنطلقات التي استند عليها في تعامله مع الآيات الكونية، وغرضه من تأليفه "مفاتيح الغيب"، فكان تناوله لتلك الآيات من موقعه كمتكلم، وعلى ضوء فهمه المتطور لغاية علم العقيدة، الذي كانت الضرورة تقتضي البحث عن أساليب جديدة لضمان استمرار وظيفته، ورغبة منه في الابتعاد عن الإيغال في التجريدات العقلية، والعودة إلى الأخذ بما جاء في القرآن الكريم من دلائل إيمانية .

-وقد أسس الرازي منهجه في الاستدلال بالآيات الكونية على قواعد مكنته من التعامل الإيجابي معها، وتوظيفه للحقائق العلمية بطريقة لا تعارض فيها مع ما جاء في الوحي الإلاهي، الذي كان الإطار المرجعي الذي اعتمده الرازي في المقدمات المنهجية لاستدلاله بالآيات الكونية، إضافة إلى استناده في تقسيمه لطرق الاستدلال بها على ما جاء فيه من نصوص تؤكد أن كل من طريق الخلق، الإحكام والإتقان، والهداية هي مما اعتمده الأنبياء عليهم السلام في إثبات حقائق الإيمان.

-فعناية مفكرنا بالآيات الكونية في كتابه "مفاتيح الغيب" لا يهدف منها إلى تطويع القرآن لأهداف البشر، فضلا عن التمحل في إيجاد اتفاقات ما بين العلم والوحي، ولكن غرضه الكشف عن آيات الله في الآفاق الشاهدة على حقائق الذكر الحكيم، إيمانا منه بأن الكون المنظور يفسر الكون المقروء، الذي يدعو إلى ضرورة تدبر وفقه عالم الشهادة، لذلك استعان الرازي بعلوم عصره لتحقيق هذه الغاية، وعمل على توظيف حقائقها في الاستدلال على حقائق العقيدة الإسلامية، وذلك لأهميتها.

-ويندرج موضوع الاستدلال بالآيات الكونية على عقيدة البعث الذي مثّل الجانب التطبيقي لمنهج الرازي، ضمن دائرة الجمع بين القراءتين، قراءة كل من الوحي والكون لإدراك بعدي عالم الشهادة، المادي والغيبي.

-تبيّن لنا طرق الاستدلال بالآيات الكونية على عقيدة البعث أهمية قراءة النص القرآني في ضوء معطيات العلوم، والتي نتجاوز فيها القراءة التجزيئية لنصوص الوحي، إلى الدراسة التجميعية، كما نعيد فيها قراءة الكون بناء على نصوص الوحي.

-لقـــد ارتبطت عقيدة البعث التي هي من صميم الغيبيات بالآيات الكونية، فشكّلت بذلك عناصر الآفاق أدلة إثباتها، وكانت دلائل إيمانية كما هي منافع مادية، وقدمت لنا أدلة واقعية على أن إعـــادة إحـــياء الموتـــى حقيقة لا ريب فيها، وهي في مستوى إدراك الناس على اختلاف مستوياتهم الفكرية وقدراتهم الإدراكية.

-وكـــون الإيمـــان بالبعث من أهم ما تحتاج إليه البشرية في يومنا هذا، لما يحققه من اطمئنان بمعرفة مصير وجودها، فإن إثبات حقيقته بالدلائل الكونية أبلغ ما نحتاج إليه في عصرنا هذا، الذي لا يؤمـــن فيه الإنسان إلا بالحقائق العلمية، وما طرق الاستدلال بالآيات الكونية إلا استدلالات علمية تجمع بين ما جاء في الوحي وما توصل إليه العلم في بناء اعتقاد صحيح.

-بناء على ما قدمه الرازي من أدلة كونية، التي ضمّنها طرقه في الاستدلال على عقيدة البعث تـــبيّن بأنـــه ليس لمنكريه شبهة قوية مع تلك الأدلة الكونية، فإذا كان موجد الكون قادرا على خلقه بذلـــك الإتقان المحكم، وجعله مسخرا للإنسان في جميع مظاهره، فكيف يستبعد من تفكر في حقيقته قدرته تعالى على إعادة إحياء الموتى. فكل ما يستبعده منكر البعث من حقائق الغيب قد قربته الحقائق العلمية إلى العقول.

-والواجب علينا اليوم بيان أصالة منهج الاستدلال في الفكر العقدي عند أسلافنا، وذلك في مـــنطلقاته، قواعـــده، وطرقه للاستفادة منه، إذ أن منهجهم لم يكن يعتمد على التأويل والتفويض، والجـــدل العقيم فحسب، إنما هو تأمل وتدبر في الواقع الكوني، وأخذا بدلائله، الأمر الذي يستدعي إعـــادة الـــنظر في مواقفنا من الموروث الكلامي، وأخذ منه ما يلائم حاجة المسلم في هذا العصر، إذ الاجتهاد يبقى مستمرا في الأبنية المنهجية.

التوصيات:

انطلاقا من إنجاز هذا البحث يمكن صياغة اقتراحات كآفاق له منها:

-دراسة الأبعاد الوظيفية للآيات الكونية،وتخصيص مواضيع كونية في دراسة عقدية.

-إبراز جهود علماء الكلام في اهتمامهم بالآيات الكونية.

هذا ما توصلت إليه من خلال هذه الدراسة، التي لا أزعم أني أتيت فيها بالجديد، ولا أدعي لها الكمال، وإنما بذلت ما في وسعي لإنجازها، فأسأل الله تعالى أن يجعلها في ميزان حسناتي، والحمد لله أولا وآخرا.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا: فهرس الآيات

الآية	الرقم	الصفحة
سورة البقرة		
﴿الم. ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾	2-1	135
﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ ...﴾	06	141
﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ....﴾	07	75
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا....﴾	08	202-201
﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا....﴾	22	254-240-239
﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا....﴾	28	260
﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا....﴾	29	261-260-236-219-182
﴿... سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ....﴾	32	174
﴿... وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾	36	252
﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ....﴾	56	195
﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا....﴾	62	202
﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ....﴾	117	54
﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا....﴾	129	18-16
﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً....﴾	138	46
﴿... إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾	156	29
﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ....﴾	163	31
﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ....﴾	164	-80-55-54-32-31-26 154-140
﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ....﴾	187	34
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ....﴾	189	35
﴿...كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾	219	16
﴿...مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾	232	201
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ....﴾	243	207

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾	252	16
﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ....﴾	259	207-198
﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ....﴾	261	40
﴿...وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ....﴾	285	158
سورة آل عمران		
﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ﴾	41	16
﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ....﴾	103	21
﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ....﴾	109	37
﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ....﴾	110	د
﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ....﴾	158	198
﴿... ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ....﴾	161	204
﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ....﴾	190	164
﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا....﴾	191	247-165-164
سورة النساء		
﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا....﴾	35	196
﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ....﴾	38	202
﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ....﴾	82	158
سورة المائدة		
﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا....﴾	31	196
﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ....﴾	48	145
﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ....﴾	89	16
سورة الأنعام		
﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ....﴾	12	204
﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ....﴾	32	202
﴿... مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾	38	49
﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ....﴾	39	126-123-122

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ....﴾	60	211-196
﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ....﴾	73	249
﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى....﴾	95	228-224
﴿... وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا....﴾	96	246
﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ....﴾	97	179-52
﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ....﴾	102	214
﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ....﴾	141	35
سورة الأعراف		
﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ....﴾	10	251
﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾	14	197
﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ....﴾	32	47
﴿... لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾	54	265-214
﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا....﴾	57	229-81
﴿.. وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ....﴾	101	152
﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا....﴾	179	187-76-75-74
﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ....﴾	185	-164-68-60-59-56-54 176
سورة الأنفال		
﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ....﴾	22	166-83-82
سورة التوبة		
﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ....﴾	29	202
سورة يونس		
﴿نَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ....﴾	3	266 -64
﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا....﴾	4	266
﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً....﴾	5	266-35
﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا....﴾	17	166

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ.... ﴾	18	66
﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ.... ﴾	24	165
﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.... ﴾	31	66-65
﴿ ... لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾	37	157
﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ.... ﴾	67	262
﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ.... ﴾	75	195
﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.... ﴾	101	-162-84-72-69-68-54 166
سورة هود		
﴿ ... كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ.... ﴾	1	155
﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ.... ﴾	24	57
﴿ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ.... ﴾	61	254
سورة يوسف		
﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ.... ﴾	7	19-15
﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ .... ﴾	111	157
سورة الرعد		
﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ.... ﴾	2	240-238
﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ.... ﴾	3	165
﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ.... ﴾	4	80-57
﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ.... ﴾	5	206
﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.... ﴾	16	81-56
﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ.... ﴾	17	81
سورة إبراهيم		
﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا.... ﴾	24	67-57
﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ.... ﴾	25	67-57
﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ.... ﴾	26	67

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ....﴾	33	38
﴿...آتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ....﴾	34	39
﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ....﴾	48	201
سورة الحجر		
﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا....﴾	16	153
﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ....﴾	21	122
سورة النحل		
﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ....﴾	5	256-45-38
﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ....﴾	6	256-45
﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ....﴾	7	256-38
﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا....﴾	8	256-45
﴿خَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ....﴾	12	262-260-82
﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ....﴾	13	260-64
﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ....﴾	14	260
﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ....﴾	15	260-66
﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾	16	260-66-52
﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ....﴾	17	260-66
﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ....﴾	22-18	260
﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ....﴾	38	205-197
﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً....﴾	65	70
﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ....﴾	66	257-178
﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ....﴾	78	79-69
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ....﴾	108	75
سورة الإسراء		
﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا....﴾	5	196
﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ....﴾	12	16

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ.... ﴾	36	188-74-59
﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا.... ﴾	49	223-205
﴿ ... الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ... ﴾	51	208
﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ.... ﴾	70	255-82-30
﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ.... ﴾	78	34
﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ.... ﴾	79	34
﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ.... ﴾	99	222-56
سورة الكهف		
﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا.... ﴾	7	48-47
﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ.... ﴾	19	207
﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ.... ﴾	21	207
﴿ يريدون وجهه.... ﴾	28	180
﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ.... ﴾	32	57
﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.... ﴾	45	40
﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ.... ﴾	51	216
﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا.... ﴾	65	114
﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ.... ﴾	101	76
سورة مريم		
﴿ ... إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ.... ﴾	35	21
سورة طه		
﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ.... ﴾	40	148
﴿ ... الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ.... ﴾	50	250-249-29
﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا.... ﴾	56-53	254
﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ.... ﴾	123	ج
﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي.... ﴾	124	ج-د-33

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سورة الأنبياء		
﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا....﴾	30	217
﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا....﴾	32	268-242-240-261-16
﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ....﴾	33	268-242
﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ....﴾	35-34	242
﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ....﴾	37	16
سورة الحج		
﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ....﴾	5	225-209-45
﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ....﴾	6	225-209-200
﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا....﴾	7	209-200-196
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ....﴾	8	209
﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ....﴾	46	189-188-82-78-77
﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ....﴾	65	252-251
﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ....﴾	66	252
﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا....﴾	72	16
سورة المؤمنون		
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ....﴾	14-12	238
﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ....﴾	16-15	267-238
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ....﴾	17	267-238-236
﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً....﴾	20-18	267
﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً....﴾	21	267-257
﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ....﴾	22	267
﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ....﴾	45	19
﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ....﴾	50	15
﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ....﴾	78	77-70-69
﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ....﴾	83-81	206

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سورة النور		
﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا.... ﴾	1	19
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ.... ﴾	41	36
﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.... ﴾	42	37
﴿ ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾	44	181
﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ.... ﴾	55	د
﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ.... ﴾	61	79
سورة الفرقان		
﴿ ... وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ.... ﴾	2	234
﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ.... ﴾	44-43	82
﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ.... ﴾	45	148-59
﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا.... ﴾	50-46	59
﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ.... ﴾	61	266-44
سورة الشعراء		
﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾	78	213
سورة النمل		
﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ.... ﴾	24	32
﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا.... ﴾	68-67	206
﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً .... ﴾	88	234-71-70
سورة القصص		
﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ.... ﴾	71	72
﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ.... ﴾	72	73-72
سورة العنكبوت		
﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ.... ﴾	19	216-215-50
﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ.... ﴾	20	216-215-71-55-50
﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً.... ﴾	63	182

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا....﴾	64	168-182
سورة الروم		
﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ....﴾	8	163-83
﴿مِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ....﴾	25	237
﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ....﴾	48	61-60
﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ....﴾	49	61
﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ....﴾	50	224-84-83-61-56
﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ....﴾	56	196
سورة لقمان		
﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا....﴾	7	76
﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ....﴾	10	241
﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ....﴾	20	267-259
﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ....﴾	25	214
﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾	34	200
سورة السجدة		
﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ....﴾	4	164
﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ....﴾	6-5	238
﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ....﴾	7	238-162-41
﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ....﴾	8	238-162
﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ....﴾	9	238-162-70
﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ....﴾	10	238-205
﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ....﴾	11	238
﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا....﴾	27-26	75
سورة سبأ		
﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا....﴾	3	204
﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ....﴾	14	149

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سورة فاطر		
﴿... فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾	1	218
﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ....﴾	9	231
﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ....﴾	19	56
﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾	21-20	56
﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ....﴾	22	57-56
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ....﴾	28-27	157-46
﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ....﴾	41	240
سورة يس		
﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي....﴾	22	39
﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ....﴾	35-33	226
﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ....﴾	37	156-37
﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا....﴾	38	264-246-156-37
﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ....﴾	40-39	246-156-37
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ....﴾	45	162
﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ....﴾	50-48	246
﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ....﴾	51	246-201
﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا....﴾	52	247-246-201-197
﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً....﴾	53	201
﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم....﴾	73-71	256
﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ....﴾	77	214-210
﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ....﴾	78	210-208
﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ....﴾	79	212-210-208
﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ....﴾	81	222-221
﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا....﴾	82	221-61-23

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سورة الصافات		
﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا....﴾	11	222-221
﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾	12	222
﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ...﴾	-156 157	152
سورة ص		
﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا....﴾	28	203
﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ....﴾	29	165-53
سورة الزمر		
﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي....﴾	5	265
﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ....﴾	9	165
﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ....﴾	21	37
﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا....﴾	23	13
﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ....﴾	42	27-26
﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَا....﴾	56	27
﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ....﴾	63-62	31
﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ....﴾	68	201
سورة غافر		
﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ....﴾	13	182
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ....﴾	56	161
﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ....﴾	57	222-162-161
﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ....﴾	58	240-161
﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا....﴾	59	240
﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ....﴾	64	239
﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ....﴾	67	37
سورة فصلت		
﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ....﴾	3	19-18

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ....﴾	11	217
﴿... وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ....﴾	12	43
﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً....﴾	39	226-224-71-62
﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ....﴾	53	ب-24-25-26-27-54-69-79-157-160-163-177-245
سورة الشورى		
﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ....﴾	29	62
سورة الزخرف		
﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا....﴾	10	39
﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً....﴾	11	231-230-224-39
﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا....﴾	14-12	39
﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَانِ....﴾	19	73
﴿...إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ....﴾	23	166
سورة الدخان		
﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ....﴾	19-18	152
﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ....﴾	35-34	205
سورة الجاثية		
﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ....﴾	12	252-82-81
﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ....﴾	13	259-251-252-82-38
﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ....﴾	22	203
﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا....﴾	24	206-204
سورة الأحقاف		
﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ....﴾	26	74-59
﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ....﴾	33	222-71
سورة محمد		
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ....﴾	23	75

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿أفلا يتدبرون القرآن....﴾	24	188
سورة ق		
﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم....﴾	2	262
﴿أئذا متنا وكنا ترابا....﴾	3	262-239-233
﴿قد علمنا ما تنقص الأرض....﴾	5-4	262
﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم....﴾	6	262-261-239-156
﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي....﴾	7	224
﴿تبصرة وذكرى....﴾	8	224-58
﴿ونزلنا من السماء....﴾	11-9	230-224
سورة الذاريات		
﴿والسماء ذات الحبك﴾	7	238
﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾	20	ب-59-69-160
﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾	21	ب-59-69-160-163
﴿وتركنا فيها آية....﴾	37	16
﴿والسماء بنيناها بأييد....﴾	47	219-65
﴿والأرض فرشناها....﴾	48	254-253-65-51
﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين....﴾	49	84-65
﴿وما خلقت الجن والإنس....﴾	56	63-30
سورة الطور		
﴿والسقف المرفوع﴾	5	240
﴿أم خلقوا من غير شيء....﴾	36-35	84
﴿أم لهم سلم يستمعون فيه....﴾	38	152
سورة النجم		
﴿وهو بالأفق الأعلى....﴾	7	25
﴿... ليجزي الذين أساءوا بما عملوا....﴾	31	203
﴿وأن عليه النشأة الأخرى﴾	47	198

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى.... ﴾	49	32
سورة القمر		
﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ.... ﴾	8-7	201
﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً.... ﴾	15	64
﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ.... ﴾	22	64
﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾	49	234
سورة الرحمن		
﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾	5	246
﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ.... ﴾	37	44
سورة الواقعة		
﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ.... ﴾	5-1	200
﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴾	6	201-200
﴿ وَحُورٌ عِينٌ.... ﴾	24-22	134
﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ.... ﴾	46	227
﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا.... ﴾	47	227-205
﴿ أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾	48	227
﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ.... ﴾	50-49	227-207
﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ.... ﴾	65-51	227
﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ.... ﴾	76-75	243-76-56
سورة الحديد		
﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ.... ﴾	3	29
﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا.... ﴾	17	229-228-224
﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ.... ﴾	20	202
﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا.... ﴾	22	61
سورة الصف		
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ.... ﴾	10	148

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الآية	رقمها	الصفحة
سورة الجمعة		
﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا﴾	2	196
سورة التغابن		
﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ....﴾	3	200
﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا....﴾	7	204-203-199
سورة الطلاق		
﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ....﴾	12	260-209
سورة الملك		
﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا....﴾	3	-234-156-73-71-42 239-236-235
﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ....﴾	4	239-156-73-71
﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا....﴾	5	44
﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا....﴾	21-15	258
﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ....﴾	23	70
سورة الحاقة		
﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ....﴾	16-13	201
سورة نوح		
﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ....﴾	15	44
﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا....﴾	16	266-44
سورة القيامة		
﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ....﴾	36	210-209
﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ....﴾	40-37	210
سورة الإنسان		
﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ....﴾	3-2	74
سورة المرسلات		
﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾	50	163

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سورة النبأ		
﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ.... ﴾	5-1	211
﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا.... ﴾	9-6	211-169
﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا.... ﴾	11-10	263-211-169
﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا.... ﴾	14-12	211-169-62
﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴾	15	211-170-169-55
﴿ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا.... ﴾	16	211-170-55
﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ.... ﴾	17	211
سورة النازعات		
﴿ يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ.... ﴾	12-10	205
﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى.... ﴾	20	16
﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا.... ﴾	27	221-219
﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا.... ﴾	29-28	219
﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾	30	255-252-221-219
﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا.... ﴾	36-31	255
سورة عبس		
﴿ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ.... ﴾	22-17	227-200
﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ.... ﴾	32-23	227
سورة التكوير		
﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾	23	25
سورة الانفطار		
﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ.... ﴾	4-1	201
سورة الطارق		
﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ.... ﴾	3-1	76-52
﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾	4	76
﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ.... ﴾	8-5	210

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سورة الأعلى		
﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى....﴾	2-1	249
﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾	3	255-249
﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾	17	237-202
سورة الغاشية		
﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ....﴾	17	237-156-69-65-64
﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ....﴾	20-18	156-69-65
﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾	21	65
﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ....﴾	26-25	203
سورة الشمس		
﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا....﴾	4-1	76-55
﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾	5	240-76-55
﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾	6	76-55
﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾	7	76-40
﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا....﴾	10-8	40
سورة التين		
﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ....﴾	4	210
سورة العلق		
﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ....﴾	1	213-54
﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾	2	213
﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾	6	40
﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى....﴾	8	200
سورة الزلزلة		
﴿نْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه....﴾	8-7	203
سورة التكاثر		
﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ....﴾	8-5	73

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانيا: فهرس الأحاديث

طرف الحديث	الصفحة
«ألا وإن في الجسد مضغة...»	188
«إن اله جميل يحب الجمال»	72
«إن في الإنسان عظما لا تأكله الأرض...»	232
«...الحور بعد الكون...»	20
«ليس الخبر كالمعاينة»	72
«ما بين النفختين أربعون...»	232

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثالثا: فهرس الأعلام

العلم	الصفحة
إبراهيم عليه السلام	13
ابن الأثير	100
الإيجي	104
الأسطرلابي	100
الأصفهاني أبي بكر	115
الأصفهاني الراغب	18
الأصفهاني أبي مسلم	218
أفلاطون	146
الآمدي	103 -104
الأنصاري أبي زيد	14
الباقلاني	151
البصري أبي الحسن	109
البيروني	100
بن تكش علاء الدين	111
ابن تيمية	138
ابن جزي	98
جورج إيرل دايفز	220
ابن الجوزي	98
جولد تسيهر	139
الجويني	109
الجيلاني عبد القادر	97
الجيلي مجد الدين	107-125
حاجي خليفة	131

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ابن أبي الحديد	102
حمزة بن حبيب	17
الحموي ياقوت	100
الحوجي فضل الدين	115
الخسروشاهي	115
ابن خلدون	103
خوارزم شاه	112
الخيام عمر	100
الخيوبي شمس الدين	116
الخيوفي شهاب الدين	132-131
ابن رشد	170 -104
الزركان	117
الزمخشري	98
السبكي تاج الدين	139
السرمایاجي سراج الدين	138
السمعاني الحافظ	100
السمناني كمال	107
السمؤل	100
السهروردي	97
ابن سينا	110
شلبي هند	130
شمس الدين	112
ابن الصباح الحسن	101
الصفدي	133-108
ابن الصلاح	100

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ضياء الدين	112
ارسطو	146
الطوسي	103
الطوفي نجم الدين	138
ابن عاشور محمد الفاضل	139-132-130
ابن عباس ﷺ	178-148
العربي محمد	130
ابن عربي محيي الدين	125-114-97
العسقلاني ابن حجر	138
العز بن عبد السلام	103-96
ابن العماد	132
عيسى عليه السلام	197
الغزالي أبي حامد	-169-109-104-99-97 170
الغوري شهاب الدين	113-111
الغوري غياث الدين	112-111-97
القرطبي	138
القفطي	132-131-109
القمولي نجم الدين	132-131
الكبري	98
مجاهد	230
المصري قطب الدين	115
المقدسي	110
موسى عليه السلام	249
ابن ميمون	104
النصيبي شرف الدين	138

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

النعماني	98
نيوتن	244
أبو هريرة ﷺ	232
ابن الياسمين	100

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رابعا: قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية حفص .

- الكتب

-ابن الاثير:

1. الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط5، 1405-1985 .

- الأسنوي عبد الرحمان:

2. طبقات الشافعية، تحقيق:كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1،1407 - 1987 .

-الأصفهاني الراغب أبو القاسم الحسين محمد:

3. المفردات في غريب الفرآن الكريم، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ط)، (د.ت) .

4. تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين،تحقيق:عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط أ، 1408 – 1988 .

-ابن أبي أصيبعة:

5. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1401 – 1981 .

-أغروس روبرت . م، وستانسيو جورج . ن:

6. العلم في منظوره الجديد، ترجمة:كمال خلايلي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، جمادى الأخيرة 1409- فيفري، مارس 1989 .

-أمين أحمد:

7. ظهر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط4، 1966 .

-أيوب إبراهيم:

8. التاريخ العباسي السياسي والحضاري، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط1، 1989 .

-إيلي الفاروني:

9. موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1992،1.

-الباقلاني محمد أبو بكر:

10. تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، تحقيق:عماد الدين احمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط1، 1987 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل:

11. صحيح البخاري بشرح الكرماني، دار الفكر، بيروت، 1401 – 1981 .

-بدوي عبد الرحمان:

12. موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1984.

13. مناهج البحث العلمي، دار القلم، بيروت، ط3، 1977 .

-بردح أنتوني:

14. تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: أحمد غسان سبانو، ونبيل الجير ودي، دار قتيبة، دمشق، (د.ط)، 1985 .

-البستاني بطرس:

15. دائرة المعارف، مؤسسة مطبوعات إسماعليات، طهران، (د.ط)، (د.ت) .

-البغدادي إسماعيل باشا:

16. هدية العارفين، وكالة المعارف، إستانبول، (د.ط)، 1955.

-البهشتي محمد الحسيني:

17. المعرفة في نظر القرآن الكريم، ترجمة:علي الهاشمي، دار الهادي، بيروت، ط1، 1423-2002.

-بوعزيز محمد العربي:

18. نظرية المعرفة عند الرازي من خلال تفسيره، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1999.

-البوطي محمد سعيد رمضان:

19. منهج الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم، دار الفكر، بيروت، ط3، 1998.

-بوكاي موريس:

20. التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ترجمة: الشيخ حسن خالد، المكتب الإسلامي، بيروت، ط3 1411هـ-1990م.

-بيغو فيتش علي عزت:

21. الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة: يوسف عدسي، مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام والخدمات، ألمانيا، ط1، 1994 .

-التفتا زاني أبو الوفاء الغنيمي:

22. الإنسان والكون في الإسلام، دار الثقافة للنشر والتوزيع، مصر، 1995.

-التهانوي محمد علي:

23. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق: علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1996 .

-توفيق محمد عز الدين:

24. دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث، دار السلام، القاهرة، ط2، 1418 – 1998.

-ابن تيمية تقي الدين أحمد عبد الحليم:

25. الرد علي المنطقيين، مطبعة شرف الدين الكتبي وأولاده، (د.م)، (د.ط)، 1368–1949.

26. مجموع الفتاوى، إعداد: عبد الرحمان النجدي، (د.د)، (د.م)، (د.ت).

-جابر عبد الحميد جابر، وكفاف علاء الدين:

27. معجم علم النفس في الطب النفسي، دار النهضة العربية، القاهرة، (د.ط) 1992.

-جابر علي:

28. نظرية المعرفة عند الفلاسفة المسلمين، دار الهادي، بيروت، ط1، 2002 .

-الجرجاني علي بن محمد:

29. التعريفات، تحقيق: عبد المنعم الحفني، دار الرشاد، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).

-الجلنيد محمد السيد:

30. تأملات حول منهج القرآن في تأسيس اليقين، مكتبة الزهراء، القاهرة، (د.ط)، 1990.

-جولد تسيهر:

31. مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة: عبد الحليم النجار، دار اقرأ، بيروت، ط2، 1403– 1986.

-الجوهري إسماعيل بن حماد:

32. تاج اللغة وصحاح العربية، دار الفكر، بيروت، ط1، 1995.

-حاج حمد أبو القاسم:

33. العالمية الإسلامية الثانية، دار ابن حزم، بيروت، ط2، 1416-1996.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-حاجي خليفة مصطفى بن عبد الله:

34. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تحقيق: محمد شرف الدين، ورفعت بليكة، وكالة المعارف، (د.م)، (د.ط)، 1360-1941.

-أبو حجر أحمد عمر:

35. التفسير العلمي في الميزان، دار قتيبة، بيروت، ط1، 1411-1991

-ابن أبي الحديد عز الدين أبو حامد:

36. شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، (د.م)، ط3، 1399-1979.

-حسن إبراهيم حسن:

37. تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل، بيروت، (د.ط)، 1991.

-حسنين عبد المنعم محمد:

38. إيران والعراق في العهد السلجوقي، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط1، 1982.

-الحسيني أيوب بن موسى:

39. الكليات، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1413 – 1993 .

-الحفني عبد المنعم:

40. موسوعة القرآن العظيم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2004 .

-حمدان نذير:

41. الضوء واللون في القرآن الكريم، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 1422-2002

-حمدي حافظ أحمد:

42. الدولة الخوارزمية والمغول، دار الفكر العربي، مصر، (د.ط)، 1949 .

-الحموي ياقوت:

43. معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1410- 1990 .

-ابن حنبل أحمد:

44. المسند، دار الفكر، (د.م)، (د.ط)، (د.ت) .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-حنفي أحمد:

45. التفسير العلمي للآيات الكونية، دار المعارف، القاهرة، (د.ط)، (د.ت) .

-خان وحيد الدين:

47. تجديد علوم الدين، ترجمة: ظفر الإسلام خان، دار الصحوة للنشر، القاهرة، ط1، 1406-1986.

48. قضية البعث الإسلامي، ترجمة: محسن عثمان الندوي، دار الصحوة للنشر، القاهرة، ط1، 1405-1984.

-خضر عبد العليم عبد الرحمان:

49. الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن الكريم، (د.م)، الدار السعودية للنشر، ط2، 1405 - 1985.

50. المنهج الإيماني للدراسات الكونية في القرآن الكريم، الدار السعودية، الرياض، ط1، 1404 -1984 .

51. الإنسان في الكون بين القرآن والعلم،عالم المعرفة،السعودية، د.ط)،1983.

-ابن خلدون عبد الرحمان:

52. المقدمة، موفم، الجزائر، (د.ط)، 1991.

-ابن خلكان شمس الدين:

53. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د.ط)، (د،ت).

-خليف فتح الله:

54. فخر الدين الرازي، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، (د.ط)، 1977.

-خليل عماد الدين:

55. حول إعادة تشكيل العقل المسلم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أمريكا، ط4، 1991.

-داود عبد الباري محمد:

56. دراسات فلسفية وإسلامية في الآيات الكونية، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1 ،1419-1999.

-الداودي محمد بن علي:

57. طبقات المفسرين، تحقيق :علي محمد عمر، مكتبة وهبة، مصر، ط1، 1392 – 1972 .

-دغيم سميح:

58. موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1998.

-الدسوقي طه:

59. عقيدتنا وصلتها بالكون والإنسان والحياة، دار الهدى للطباعة، (د.م)، (د.ط)، 1405 -1984 .

-ديورانت ول:

60. قصة الحضارة، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل، بيروت، (د.ط)، (د.ت) .

-الذهبي شمس الدين محمد:

61. سير أعلام النبلاء، تحقيق: بشار عواد، ومي هلال السرحان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1405 -1985.

-الذهبي شمس الدين:

62. التفسير والمفسرون، (د.د)، (د.م)، ط2، 1396 –1976.

-الرازي فخر الدين محمد بن عمر الحسيني:

63. التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، (د.ت).

64. المطالب العالية في العلم الإلهي، تحقيق:أحمد حجازي السقا، دار الكتاب العربي ، بيروت، ط 1، 1407 -1987 .

65. اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، ومصطفى الهواري، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).

66. محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين، تحقيق، طه عبد الرءوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).

67. المباحث المشرقية، مكتبة الأسدي، طهران، 1966.

68. أصول الدين، مراجعة وتقديم: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، (د.ت).

69. المناظرات، تحقيق: عارف تامر، مؤسسة عز الدين، (د.م)، (د.ط)، 1992.

-ابن رشد أبو الوليد:

70. مناهج الأدلة في عقائد الملة، تحقيق: محمود قاسم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط3، (د.ت).

-رشيد محمد رضا:

71. تفسير المنار، دار المنار، مصر، ط3، 1367.

-الرومي فهد بن عبد الرحمان:

72. اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1418-1997.

-الزر قاني عبد العظيم:

73. مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الفكر، بيروت، ط1، 1997.

-الزر كان محمد صالح:

74. الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية، دار الفكر، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).

-الزركشي بدر الدين محمد:

75. البرهان في علوم القرآن، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

-الزر كلي خير الدين:

76. الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط7، ماي، 1986.

-الزمخشري محمود بن عمر أبو القاسم:

77. الكشاف عن حقائق التتريل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407-1987.

-الزنيدي عبد الرحمان بن زيد:

78. مناهج البحث في العقيدة الإسلامية، مركز الدراسات والإعلام، دار اشبيليا، الرياض، ط1، 1418-1998.

-ابن الساعي:

79. الجامع المختصر في عنوان التواريخ والسير، المطبعة السريانية الكاثوليكية، بغداد، (د.ط)، 1353.

-السرحاني سلطان طريخم المذهن:

80. أنساب قبائل العرب، دار الثقافة، قطر، (د.ط)، (د.ت).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-سرور محمد جمال الدين:

81. تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).

-السعدي عبد الرحمان بن الناصر:

82. تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمان بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1423-2002.

-سعيد جمال الدين:

83. دولة الإسماعيلية في إيران، الدار الثقافية، القاهرة، (د.ط)، 1999.

-ابن سينا:

84. الإشارات والتنبيهات، تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، (د.ط)، 1960.

-السيوطي جلال الدين:

85. الإتقان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

86. تاريخ الخلفاء، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

-الشاطبي إبراهيم بن موسى:

87. الاعتصام، مكتبة الرياض، (د.ط)، (د.ت).

-أبو شامة المقدسي عبد الرحمان بن إسماعيل:

88. تراجم رجال القرنين السادس والسابع، دار الجيل، ط2، 1974.

-شلبي محمود:

89. حياة سلطان العلماء العز بن عبد السلام، دار الجيل، بيروت، ط1، 1412- 1992.

-شلبي هند:

90. التفسير العلمي بين النظرية والتطبيق، (د.د)، تونس، (د.ط)، 1985.

-الشنقيطي المرابط بن محمد لخديم الله:

91. معرفة الله دلائل الحقائق القرآنية والكونية، وحي القلم، دمشق، ط1، 2002.

-شيخ إدريس جعفر:

92. الفيزياء ووجود الخالق، مكتبة الملك فهد الوطنية، (د.م)، ط1، 1422- 2001.

-صبحي أحمد محمود:

93. في علم الكلام، دار النهضة العربية، بيروت، ط5، 1405-1985.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-الصفدي صلاح الدين خليل:

94. الوافي بالوفيات، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، ط1، 1420- 1999.

-الصياد فؤاد عبد المعطي:

95. المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ط)، 1970.

-طاش كبرى زاده أحمد بن مصطفى:

96. مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، دار الباز للنشر، مكة المكرمة، ط1، 1405- 1985.

-الطباطبائي محمد حسين:

97. الميزان في تفسير القرآن، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط1، 1991.

-الطبري محمد بن جرير:

98. تاريخ الأمم والملوك، دار الفكر، بيروت، ط11، 1979.

-طه عبد الرحمان:

99. العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت، ط3، 2000.

-طوقان قدري حافظ:

100. تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (د.م)، ط2، 1374- 1979.

-ابن عاشور محمد الطاهر:

101. التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس، (د.ط)، 1397- 1977.

-ابن عاشور محمد الفاضل:

102. التفسير ورجاله،دار الكتب الشرقية، تونس، (د.ط)، 1972.

-عاصي ميشال، وبديع يعقوب إميل:

103. المعجم المفصل في اللغة والأدب، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1987.

-عبد الباقي محمد فؤاد:

104. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر، (د.م)، ط2، 1401-1981.

-عبده مصطفى:

105. أثر العقيدة في منهج الفن الإسلامي، دار الإشراق، بيروت، ط1، 1410- 1990.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-العربي محمد:

106. المنطلقات الفكرية عند الإمام الرازي، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1992.

-العرجاوي عبد المجيد:

107. البراهين العلمية على صحة العقيدة ، دار وحي القلم، دمشق، ط1، 2003.

-عرجون محمد الصادق:

108. نحو منهج لتفسير القرآن الكريم، الدار السعودية، جده، ط3، 1979.

-العسقلاني ابن حجر شيهاب الدين:

109. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ضبط: عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط)، 1997.

110. لسان الميزان، المؤسسات الإعلامية، بيروت، ط2، 1971.

-العلواني طه جابر:

111. الجمع بين القراءتين، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط1، 1417-1996.

-ابن العماد عبد الحيي:

112. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

-عوض الله حامد:

113. الألوهية وفكر العصر أهناك إله، المركز الثقافي الجامعي، القاهرة، (د.ط)،1977.

-عويضة كامل محمد:

114. علم نفس الشخصية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1996.

-الغزالي أبو حامد:

115. إحياء علوم الدين، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

116. فيصل التفرقة.بين الإسلام والزندقة، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).

117. جواهر القرآن، تحقيق: محمد رشيد رضا القباني، دار إحياء العلوم، بيروت، ط2، 1406-1986.

-الغزالي محمد:

118. نظرات في القرآن الكريم، دار الشهاب، باتنة، ط6، 1986.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

119. تراثنا الفكري بين الشرع والعقل، دار المعرفة، الجزائر، (د.ط)، (د.ن).

-الغمراوي محمد:

120. الإسلام في عصر العلم، مطبعة السعادة، القاهرة، 1973.

-الفيروز آبادي محمد بن يعقوب:

121. القاموس المحيط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995.

-قاسم محمد محمد:

122. المدخل إلى مناهج البحث العلمي، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1999.

-القرضاوي يوسف:

123. العقل والعلم في القرآن الكريم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1421- 2001.

124. كيف نتعامل مع القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة- بيروت، ط2، 1420-2000.

-قطب سيد:

125. في ظلال القرآن الكريم، دار الشروق، بيروت،(د.ط)، 1978.

-ابن قيم الجوزية محمد:

126. ا جتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، تحقيق: بشير محمد عيون،مكتبة دار البيان، دمشق،ط2، 1416- 1996.

-ابن كثير عماد الدين أبو الفداء اسماعيل:

127. البداية والنهاية، منشورات مكتبة المعارف، بيروت، ط6، 1406-1985.

128. تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس، بيروت، طبعة جديدة مصححة، (د.ت).

-كحالة عمر رضا:

129. معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1414- 1993.

-كلشني مهدي:

130. القرآن ومعرفة الطبيعة، دار الأضواء، بيروت، ط1، 1989.

-مجدوب عبد العزيز:

131. الرازي من خلال تفسيره، الدار العربية للكتاب -ليبيا، تونس (د-ط)، 1976

-مجمع اللغة العربية:

132. معجم ألفاظ القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ط2، 1390-1970.

133. المعجم الوسيط، أخرجه إبراهيم أنيس وآخرون، مطابع المعارف، مصر، ط2، 1392-1972.

134. المعجم الفلسفي، عالم الكتب، بيروت (د-ط)، 1399- 1997 .

-محمد فتحي عبد الله:

135. معجم مصطلحات المنطق وفلسفة العلوم للألفاظ العربية والانجليزية والفرنسية، دار الوفاء، الإسكندرية، (د.ط)، 2003.

-محمود حسن أحمد والشريف إبراهيم:

136. العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، القاهرة (د،ط) 1995 .

-مسلم أبو الحسين بن الحجاج:

137. صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق: عصام الصبابطي وآخرون، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1415 هـ -1994.

-مطهري مرتضى:

138. الرؤية الكونية التوحيدية، ترجمة: محمد عبد المنعم الخلقاني، تعاونية العلاقات الدولية في منظمة الإعلام الإسلامي، الجمهورية الإيرانية الإسلامية، ط2، 1989 .

139. التوحيد: ترجمة إبراهيم الخزرجي، دار المحجة البيضاء، دار الرسول الكريم، بيروت، ط1، 1418هـ-1998م.

-المطوي محمد العروسي:

140. الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1982

-مغنية محمد جواد:

141. فلسفة المبدأ والمعاد، دار الجواد، (د.م)، ط4، 1982- 1403

- مناعي عائشة يوسف:

142. أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية، دار الثقافة، الدوحة، ط1، 1412-1992 .

-ابن منظور محمد بن مكرم:

143. لسان العرب تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، (د.م)، (د.ط)، (د.ت).

-منير بعلبكي:

144. موسوعة المورد، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1992 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-مؤسسة سلطان بن عبد العزيز آل سعود:

145. الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر، الرياض،ط2 1419 -1999.

-المودودي أبو الأعلى:

146. مبادئ أساسية لفهم القرآن الكريم، الدار السعودية، المملكة العربية السعودية (د.ط)، (د.ت)

-الميداني عبد الرحمان حبنكة:

147. ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، دار القلم، دمشق، ط5، 1998 .

-ميمون جمال، وقسوم نضال:

148. قصة الكون من التصورات البدائية إلى الانفجار العظيم، دار المعرفة، الجزائر، (د.ط)، 1988.

-النابلسي محمد راتب:

149. موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة آيات الله في الآفاق، دار المكتبي، سوريا، ط1، 1425-2004.

-بن نبي مالك:

150. الظاهرة القرآنية، دار الفكر العربي، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

151. وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ط5، 1986.

-النجار عبد المجيد عمر:

152. مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1992

153. قضايا البيئة من منظور إسلامي، مركز البحوث والدراسات، قطر،ط1، 1420-1992

154. العقل والسلوك في البنية الإسلامية، منشورات مطبعة الجنوب، مدنين (د.ط)،(د.ت).

155. الإيمان بالله وأثره في الحياة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1997

156. فقه التحضير الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1999

-النجار زغلول:

157. السماء في القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1425-2004.

-النشار علي سامي:

158. نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ط 9، (د.ت)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-نعمة عبد الله:

159. فلاسفة الشيعة حياتهم وآراؤهم، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

160. نكرى عبد النبي بن عبد الرسول الاحمد:

161. موسوعة مصطلحات جامع العلوم، تحقيق: على دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1997 .

-النورسي بديع الزمان:

162. الشعاعات، ترجمة: قاسم الصالحي، سوزلر للنشر، القاهرة، ط2، 1993.

163. المثنوي العربي النوري، ترجمة: قاسم الصالحي، سوزلر للنشر، القاهرة، (د.ط)، 1415-1995 .

164. الكلمات، ترجمة :قاسم الصالحي، سوزلر للنشر، القاهرة، ط 2، 1412هـ - 1992

165. صيقل الإسلام، ترجمة: قاسم الصالح، سوزلر للنشر، القاهرة، (د.ط)، 1995.

-نويهض عادل:

166. معجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، (د.م)، ط1، 1404-1984 .

-يحي هارون:

167. خلق الكون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1424هـ 2003 .

-يوسف جمال الدين:

168. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق: إبراهيم علي طرخان، وزارة الثقافة والإرشاد القومي- مؤسسة العامة للتأليف والترجمة، مصر، طبعة مصر عن طبعة دار الكتب، (د.ت).

الأقراص المدمجة:

169. جامع الفقه الإسلامي، شركة حرف لتقنية المعلومات، الإصدار الأول.

المراجع باللغة الأجنبية:

170. Gallimard jeunesse: Dictionnaire visuel pour tous, édition revue et augmentée.

171. James mitchel et autres: L'univers, traduction ive boisseau, édition Larousse.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

172. Le petite Larousse grand format, montreal quèbec, 100 ed /2005

173. www.alwaraq .com.

الدوريات

الرسائل الجامعية

-تيتواح يوسف:

174. عالم الغيب والشهادة عند فخر الدين الرازي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، قسم الفلسفة الجامعية الأردنية، 1405هـ، 1985.

-حدبون محمد قاسم:

175. الآيات الكونية في القرآن الكريم وبعدها الايماني، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين قسم العقائد والأديان، جامعة الجزائر، 1422 هـ، 2001.

-بن عميور خالد:

176. الإعجاز البياني للآيات الكونية في القرآن الكريم، ماجستير كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة والدراسات القرآنية جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة، 2000-2001.

-نعمان صالح:

177. منهجية البحث في علم العقيدة في ضوء التطور العلمي المعاصر، رسالة دكتوراه دولة، كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية قسم العقيدة ومقارنة الأديان جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2003 -2004.

-المجلات

178. آل حبيل ذائر: " الدين ونظرة الانسان الكونية"، مجلة الكلمة، صادرة عن منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، ع 22 س 6، 1420 هـ 1999.

179. البوطي محمد سعيد رمضان: "ظاهرتان تبعثان على الدهشة في كتاب الله عز وجل"، المؤتمر العالمي الرابع لبديع الزمان النورسي، نحو فهم عصري للقرآن رسائل النور نموذجا، تركيا، 20-22 سبتمبر 1998، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، ط1.

180. -جيدل عمار: "منهج الاستدلال على العقيدة"، مجلة الموافقات، المعهد العالي لأصول الدين، الخروبة، الجزائر، ع2، جوان 1993.

181. -خليل عماد الدين: "رؤية جمالية في الكلمات لبديع الزمان النورسي"، المؤتمر العالمي حول تجديد الفكر الإسلامي، استانبول، 27- 29 سبتمبر 1992، شركة سوزلر، القاهرة.

182. الدغامين زياد خليل محمد: "مقاصد القرآن الكريم في فكر النورسي"، المؤتمر العالمي الرابع لبديع الزمان النورسي-نحوى فهم عصري للقرآن. رسائل النور نموذجا-، استانبول، 20- 22 سبتمبر 1998، شركة زولر للنشر، القاهرة، ط1.

183. ساوير كاتي: "أسرار الكون"، ترجمة: عبد المنعم محمد، مجلة الثقافة العالمية، الكويت، ع99، مارس-أفريل 2000.

184. شلبي هند:"مشاكل الألوهية من خلال تفسير الرازي"، النشرة العلمية للكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين، الجامعة التونسية، تونس، ع8، 1985.

185. طسطاس عمار: "التوحيد كرؤية معرفية في فكر إسماعيل راجي الفاروقي"، مجلة الدراسات العقدية ومقارنة الأديان، مخبر البحث والدراسات العقدية ومقارنة الأديان، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، ع1، صفر 1426- 2005.

186. بن عمار العربي: "دليل البعث موجود فينا"، مجلة الهداية، المجلس الإسلامي الأعلى للجمهورية التونسية، ع150، ربيع الثاني-جمادى الثانية 1423، جوان-أوت 2002.

187. قلعجي عبد الفتاح: "عالم الجمال الإسلامي بحث في المنطلقات"، مجلة الثقافة الإسلامية للجمهورية الإيرانية، دمشق،21 ربيع الأول، ربيع الثاني 1409-1988.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خامسا: فهرس الموضوعات

المقدمة .... أ

الفصل الأول: الآيات الكونية في القرآن الكريم

تمهيد.. 13
المبحث الأول: الآيات الكونية وأبعادها الوظيفية.................. 14
المطلب الأول: مفهوم الآيات الكونية.................. 14
أولا: تعريف الآية.................. 14
- لغة 14
- اصطلاحا 17
ثانيا: تعريف الكون.................. 20
- لغة.................. 20
- اصطلاحا 21
ثالثا: المقصود بالآيات الكونية 23
- مفهوم الآفاق 24
المطلب الثاني: الأبعاد الوظيفية للآيات الكونية.................. 28
أولا: البعد الإيماني.................. 31
ثانيا: البعد التشريعي.................. 33
ثالثا: البعد التربوي.................. 36
رابعا: البعد الجمالي.................. 41
المبحث الثاني: خصائص القرآن الكريم في عرض الآيات الكونية.................. 49
أولا: تحديد المصطلحات.................. 50
ثانيا: تنوع البيان القرآني.................. 52
ثالثا: شمولية الخطاب القرآني.................. 58
رابعا: الربط بين مقاصد القرآن والآيات الكونية.................. 60
المبحث الثالث: الآيات الكونية وأساليب إثبات الحقائق الإيمانية.................. 63
المطلب الأول: مخاطبة الوجدان.................. 63

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثاني: مخاطبة الحواس........ 68
المطلب الثالث: مخاطبة العقل........ 78

الفصل الثاني :التعريف بالرازي وتفسيره

تمهيد........ 88
المبحث الأول: الرازي وعصره........ 89
المطلب الأول :عصر الرازي........ 89
أولا: الوضع السياسي........ 89
ثانيا: الوضع الاجتماعي........ 91
ثالثا: الوضع الفكري........ 94
المطلب الثاني: حياة فخر الدين الرازي........ 105
أولا: مولده ونشأته........ 105
ثانيا : جوانب من حياته........ 108
ثالثا: مؤلفاته........ 116
المبحث الثاني : دراسة حول "مفاتيح الغيب"........ 122
المطلب الأول: التعريف "بمفاتيح الغيب"........ 122
أولا:تسميته........ 122
ثانيا: وصف "لمفاتيح الغيب"........ 126
ثالثا: نسبة "مفاتيح الغيب" إلى الرازي........ 130
المطلب الثاني: قيمة " مفاتيح الغيب"........ 135
أولا: الغاية من تأليفه........ 135
ثانيا: آراء العلماء فيه........ 138

الفصل الثالث: المقدمات المنهجية للاستدلال بالآيات الكونية عند الرازي

تمهيد........ 144
المبحث الأول :مفهوم المنهج والاستدلال........ 145
المطلب الأول: مفهوم المنهج........ 145
أولا : لغة........ 145

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانيا: اصطلاحا.. 146

المطلب الثاني: مفهوم الاستدلال.. 147

أولا: لغة.. 147

ثانيا: اصطلاحا... 149

المبحث الثاني: منطلقات الرازي في الاستدلال بالآيات الكونية 154

أولا: الحضور القوي للاستدلالات الكونية في الخطاب الإله 154

ثانيا: دعوة الوحي الإلهي الإنسان لكشف عن أسرار الظواهر الكونية 155

ثالثا: دلائل الآفاق أجل وأعظم من دلائل الأنفس 160

رابعا: مدح الخطاب الإلهي للمتفكرين في ملكوت السموات والأرض 164

خامسا: لكثرة الدلائل وتواليها أثر عظيم في تقوية اليقين 167

سادسا: أفضلية مسلك القرآن الكريم في إثبات الحقائق الإيمانية 168

المبحث الثالث: قواعد منهج الرازي في الاستدلال بالآيات الكونية على عقيدة البعث....... 174

أولا: الاستدلال بالآيات الكونية لا يكون إلا بعد معرفة أقسامها 174

ثانيا: تحصيل أكبر قدر ممكن من المعرفة الكونية 177

ثالثا: النظرة المتكاملة للآيات الكونية 180

رابعا: سلامة كل من العقل والحواس 183

الفصل الرابع :طرق الإستدلال بالآيات الكونية على عقيدة البعث عند الرازي

تمهيد.. 194

المبحث الأول: حقيقة عقيدة البعث.. 195

المطلب الأول: مفهوم البعث 195

لغة 195

اصطلاحا.. 197

المطلب الثاني :عقيدة البعث في القرآن الكريم.. 199

المبحث الثاني : طريق الخلق.. 213

المطلب الأول :دلالة خلق السموات والأرض على عقيدة البعث........................ 215

المطلب الثاني: دلالة إحياء الأرض الميتة وخلق النبات على عقيدة البعث............. 223

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثالث: طريق الإحكام والإتقان........................ 234
المطلب الأول: دلالة حفظ السماوات على عقيدة البعث........................ 235
المطلب الثاني: دلالة حركة الكواكب على عقيدة البعث........................ 241
المبحث الرابع: طريق الهداية 249
المطلب الأول: دلالة تسخير ما في الأرض على عقيدة البعث 251
المطلب الثاني: دلالة تسخير ما في السموات على عقيدة البعث 258
خاتمة........................

الفهارس

أولا: فهرس الآيات 274
ثانيا: فهرس الأحاديث 291
ثالثا: فهرس الأعلام 292
رابعا: فهرس المصادر والمراجع 296
خامسا: فهرس الموضوعات 312

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية